

شريف محي الدين

شارع العرب

لا أنا يوسف ولا أنتم نساء

رواية

إضافة

شارع العزب

وستبصر أنك يوماً كنت تطرق كل الأبواب تهفو لرائحة عطري، وبقايا دخان، وستفتح كل الأدراج وكل خزائن الإنس والجان، تبحث في قصاصات من ورق وحروف، من كلمات صدق أو بهتان، وستفتش حتى في طعامي أو بقايا لقهوة في فنجان، وستسأل أين الإنسان، حتى يأتيك عراف الأزمان، سيمحك عني، سيمحك صورة لن تعرفها وحقيقة لم تبصرها.

سيعطيك زهرة وقلبا، ومدادا من بحر الأيام، وسيخبرك أنك ما كنت يوما وحدك، ولكنك كنت تصارع وحشا وتفجر بركانا، وسيمحك ككأبا مكتوب فيه أنني كنت يوما في كل مكان.



شريف محيي الدين.. عضو اتحاد كتاب مصر.

حاصل على عدة جوائز منها:

جائزة الثقافة الجماهيرية، وجائزة نادي القصة

صدر له العديد من الأعمال السابقة منها:

أصحاب الملامح الباهتة | رواية.. الملك | رواية

أنا الملك | مسرحية.. خارج الحدود | رواية

مريم | رواية.. امرأة عارية | قصص قصيرة



9

789778

574074



إضافة

شارع العزب

"لا أنا يوسف ولا أنتم نساء"

شارع العزب؛ "لا أنا يوسف ولا أنتم نساء"

رواية

شريف محيي الدين

الطبعة الأولى : ٢٠٢٠

رقم الإيداع : ١٥٤٦٣ / ٢٠٢٠

ISBN 978-977-85740-7-4

٣٣٠ ص ، ٢٠ سم

دار إضافة

للنشر والتوزيع

الإسكندرية

ج ٢٠٢٠

{جميع الحقوق محفوظة ©}

المراجعة اللغوية: عادل أبو الأنوار

غلاف وإخراج فني: أمير مصطفى

شارع العزب

"لا أنا يوسف ولا أنتم نساء"

رواية

شريف محيي الدين

إضافة
للتشريع والنوع

١- النجفة

على جانبي شارعنا في حي المنذرة تنتشر الفيلات العريقة، ذات الطراز اليوناني، والتي يجاورها قلة من بعض بيوتٍ لا يتجاوز ارتفاعها ثلاثة طوابق.

وأمام كل بيت ثمة مساحة خضراء من النجيلة والنخيل، تمتلئ بالزهور والرياحين، وأشجار الياسمين.

وكان البستاني المسؤول عن رعاية تلك الحدائق الجميلة كهلاً نحيفاً، لا تفارق السجارة شفتيه، يدعى عم السيد الجنايني.

جدتي ملك هانم، قد استطاعت أن تجمع حولها كل أبنائها، من أفراد عائلة العزب، فأضحى الشارع يبدأ بفيلات أبنائها، وينتهي ببيوت أحفادها، وما بينهما باقي سكان الشارع من سكندريين وبعض اليونانيين العجائز.

عم السيد الجنايني، تجده دوماً في حديقة جدتي! تلك الحديقة التي أصبحت الملتقى اليومي لنا جميعاً، كأفراد العائلة ومعظم قاطني الشارع، الذين نشبت بينهم وجدتي علاقة مودة عميقة.

ولأن جدتي ذات الملامح التركية، التي ورثتها عن جدودها، تجمع صفات هي مزيج بين شيكاكة وجمال الأجانب، وكذلك مروءة وجدعنة أبناء الاسكندرية؛ لذلك فقد أحبها الجميع والتفوا حولها من

سكندرين ويونانيين، بأفراحهم وأحزانهم، وجعلوا يلجأون إليها رجالاً ونساء، لحل أية مشكلة تواجههم.

بينما كان جدي عاكفاً وحده مع فنجان قهوته في شرفة جانبية تطل على جانب آخر من الشارع، هائماً بفرشاته وألوانه، مع لوحاته الزيتية بديعة الألوان.

ومن حديقة جدتي.....

يبدأ عم السيد عمله، وفيها يستريح ويلتقط أنفاسه، ولأن جدتي كانت تقدر مواهبه، فقد استخدمته في القيام بكل الأعمال المنزلية، من نقاشة وسباكة ونجارة، حتى حسبناه سيقوم بممارسة دور الطبيب، ويقوم بإعطائها حقن علاجها الشهري.

عم السيد يقطن في حجرة ملحقة بفيلا كبيرة لا تبعد كثيراً عن بيتنا، تلك الفيلا التي غادر مالکها اليوناني الإسكندرية منذ سنوات بعيدة، وتركها أمانة بين يديه، يرعاها ويهتم بحديقته، كما أنه يقوم بحراستها، مقابل مبلغ مالي، يصله بانتظام عن طريق البريد.

وذات يوم جاء الحاجة، في زيارة سريعة للإسكندرية، وثمة أعطال كهربائية في البيت!

حاول عم السيد القيام بدور الكهربائي وإصلاح شبكة كهرباء البيت، إلا نجفة عتيقة أبت أن تستجيب له، بل ظلت على حالها مضاءة الأنوار، ولا تود أن تنطفئ أبداً!

تملكت العصبية من الحاجة، وجعل يهدر بكلمات يونانية غاضبة، فهم عم السيد معظمها بحكم عشرته الطويلة لليونانيين.

ولم يجد عم السيد الغارق في حيرته وعرقه بدءاً من إحضار (كهربائي محترف) لحل شفرة تلك النجفة العجيبة.

وما إن حضر الكهربائي، حاملاً معه سلمه الخشبي وحقيته السوداء، حتى جعل يطرح العديد من الأسئلة، وبعد برهة قام بغلق جميع أبكاس النور، وغرقت الفيلا كلها في ظلام وصمت مريب، فيما عدا مصابيح النجفة التي بقيت على حالها ترسل ضوءها الحاد، فيخترق عيون كل الحاضرين.

فصل الكهربائي سلك كهرباء النجفة.. قام بقطع التيار من الكابل الرئيسي عن الفيلا كلها....

ولكن وللغربة المفرطة، لم تنطفئ النجفة وليثت مضاءة!

توتر الجميع وأصابهم حالة من الذهول المشوب بالريبة.

ولم يجد الكهربائي حرجاً من أن يعلن فشله وحيرته الشديدة.

قام عم السيد بإزالته من على السلم الخشبي، وعاد ثانية إلى تقمص دور الكهربائي، إلا أنه طفق يتحرك باضطراب، وفي عصبية بالغة، قام بقطع كل أسلاك النجفة، ثم فصل النجفة كلها من السقف.

أصاب الجميع رعب شديد وتملكهم الفزع، وجعلوا يهرولون هرباً إلى الخارج، بينما انطلق عم السيد، وهو يتخبط من الذعر، حاملاً النجفة -وهي لا زالت متوهجة بالمصابيح المضاءة- نحو فيلا جدتي!

٢- نهى وشيرين

يسألني صديقي الشاعر جابر بسيوني ضاحكاً:
 - يبدو أنك كنت طفلاً شقياً جداً. أصمت لبرهة.. تتغير ملامح وجهي، وأقول له:
 - على الإطلاق، كنت طفلاً هادئاً غير مزعج لكل من حولي.
 ينظر جابر إليّ في دهشة، ثم يقول:
 - هل تعلم أن إحدى علامات الذكاء الشديد، هي شقاوة الطفل؟
 أغوص في أعماقي البعيدة، وأستدعي ذكريات لا تمنحي أبداً من عقلي.
 أتذكر شيرين، أختي التي أتت بعدي بعام واحد، وأتذكر أيضاً نهى،
 التالية لشيرين.
 تسقط من عيني دمعة ساخنة... الأولى توفيت بعد إصابتها بحمى شديدة، والثانية ماتت بعد أن صدمتها سيارة.
 حينئذ، لم أكن أنا قد تجاوزت أربعة أعوام.
 فلم أكن أعرف بعد المعنى الحقيقي للموت! فقط رأيته في عيني أبي، وفي انحناء ظهر أمي.
 لم يخبراني أنهما مائتا، بل أخفيا الأمر عني تماماً، وعندما كنت أشعر بالوحدة الشديدة، كنت أبحث عنهما في كل حجرات البيت.
 كنت أتساءل في حيرة:
 - أين هما؟!

وكانت تأتيني الإجابة:

مرة هما عند خالتي، ومرة أخرى عند عمتي، أو جدتي... أو...
أو... وكنت أتعجب كثيراً حين ألاحظ تجمهاً في ملامح وجه من
يجبني.

دوماً أتذكر وجه أختي وهي تلاعبني، كم كانت جميلة هي..
بريئة وطيبة هي..

أتذكر، عندما كسر حصاني الصغير وجعلت أبكي، أتنى، وجعلت
تحتس وجهي، وتمسح دموعي بكف يدها الصغير، وحتى أكف
عن البكاء أعطتني عروستها الصغيرة.. ولا أحد يسألني، من منهما
التي فعلت هذا؛ لأن ملامح شيرين ونهى تتداخل عندي كثيراً في
ضباية غريبة.

حتى أتيت أبي مرة وهو جالس في شرفة منزلنا، وقلت له في براءة
وعفوية شديدة:

- لماذا لم تخبرني أن أختي قد ماتت؟

أتذكر الآن حوارنا هذا مع أبي، وتملكني الدهشة، وأتساءل: كيف
قلت له هذا؟!

بل كيف توصلت إلى هذه الحقيقة، وأنا بالكاد وقتها أستطيع
تكوين، بعض الجمل، القصيرة؟!

تطلع أبي إليّ في ألم، ثم همس بعد أن ألقى بالسيجارة من بين
أصابعه: تقصد أيهما؟!

نظرت إلى أبي في هدوء ثم همست في حزن:

- الاثنتين.

كست الدهشة ملاح وجه أبي، تطلع إليّ طويلا، ثم سألتني:

- من أخبرك؟!

همست في براءة:

- لا أحد.

التفت إلي في وجل، ثم قال:

- لا تتحدث مع أمك في هذا الأمر.

ولما نظرت إليه في تعجب، قال لي وكأنه يرجوني:

- حتى لا تجدد عليها أحزانها.

الآن وبعد مرور أكثر من أربعين عاماً، عرفت لماذا أنا كنت طفلاً

هادئاً دائماً.. حزينا دائماً.. وحيداً دائماً.

الآن تبين لي لماذا كنت في صغري أعاني كثيراً نوبات اكتئاب،

وشعوراً رهيباً بالوحدة.. حتى بعد مضي عدة سنوات، وبعد أن أتت

لي أمي بأخي أحمد، ثم طارق، وأخيراً أختي دينا، فرحت كثيراً

بهم، وأحببتهم حباً عظيماً، ولكنني ظللت أعاني الوحدة الشديدة!

فإخوتي -رغم أنني أكبرهم بعدة سنوات- إلا أنهم دائماً ما يجتمعون

معاً سرّاً، على إتيان بعض الأفعال، ويتفقدون فيما بينهم دون

مشاركتي أو الرجوع إليّ، أو حتى إخباري بها، وكأن فارق

السنوات قد صنع حاجزاً وهمياً بيني وبينهم.

وكثيراً ما واجهتني أفعالهم، فأوجعتني.

ورغم كل هذا فإنني لم أنس يوماً أنني الأخ الأكبر، والذي

يتذكرونه عادةً في حالة وقوع مشكلة، أو لجعله مجرد واجهة أمام الآخر.

رغم أنني كنت دائماً شديد الحرص مع أبي على ألا يظلم أحداً منهم، وكنت كثيراً ما أجادله، وأحياناً أشاجر معه حين أراه يدلل أخي الأصغر على حساب أخي الآخر، والذي لا يكبره سوى بعام واحد.

كنت دوماً أشعر تجاههم بعاطفة، ومسؤولية كبرى، وكثيراً ما دفعت عنهم الأذى، من عصبية أبي الذي كنت أدرك معاناته، وأقدر حجم ما مر به حتى يصل إلى ما وصل إليه من مركز ومكانة اجتماعية كبيرة.. لا شك أنني قد شاركته جزءاً كبيراً في معاناته، وخاصة في بدء حياته العملية، وهو مجرد موظف صغير براتب ضئيل، لا يكاد يكفينا شهراً بعد شهر.

كنت وقتها طفلاً صغيراً، ولم يكونوا هم قد جاءوا بعد إلى هذا العالم، فلم يشهدوا سنوات قحط أو عجاف، ولم يحضروا أكبر كارثتين في أسرتنا الصغيرة -موت الشقيقتين- وإنما جاءوا في سنوات الرخاء. لعلّي قد علمت الآن من أين كانت تأتيني هذه الموجات العارمة من الحزن، إلى الحد الذي يدفعني كثيراً إلى البكاء بدون سبب واضح... وحدي أنا والليل.

٣- السلك والفيشة

كنت فرحاً بالعام الدراسي الجديد، سعيداً بالكتب المدرسية التي لم ألبث أن تفحصتها بسعادة بالغة، ثم تركتها في مكتبي بالبيت وخرجت لأبتاع خبزاً من المخبز.

كان الطابور طويلاً مُملاً، ولكنني في النهاية ظفرت بعدة أرغفة تكفيها لطعام اليوم.. أحضرت الخبز وعدت إلى البيت لتصدمني المفاجأة، حيث وجدت كل الكتب الجديدة ممزقة، وما تبقى منها ملطخ بالألوان.. كدت أجن عندما علمت بأن الفاعل هو طارق أخي الأصغر.

الذي وشى به هو أخي التالي أحمد، حتى ينفي عن نفسه تلك التهمة، وكي لا تطوله يدي بالعقاب.

عندما هممت بملاحقة طارق انطلق هارباً إلى داخل إحدى غرف المنزل وأغلق الباب عليه بشدة كادت تُسقط شراعته الزجاجية. أغاظتني فعلته كثيراً..

حاولت أن أخرجه، إلا أنه أحكم إغلاق الغرفة بالمفتاح.. هدأت قليلاً ثم صحت به:

- ممتاز.. أنت الذي عاقبت نفسك بنفسك، فلتظل محبوباً هكذا. تملك الملل من طارق، فهو لا يستطيع استكمال لعبه أو حتى مشاهدة الفيلم العربي (مستر إكس) الذي يعشقه، وهو كان قد بدأ لتوه منذ لحظات قصار.. أدرك طارق بالفعل أنه يعاقب نفسه، ولكن ماذا

يفعل؟! وكيف يتفادى مصيره المؤلم؟! (علقة ساخنة).
وبينما كانت نتعالى ضحكاتنا على الفيلم الكوميدي، كان هو يتميز
غيظاً، وهنا تفتق ذهنه عن فكرة جهنمية! أخرج طارق من جيبه
سلماً كهربائياً صغيراً، لا أدري لماذا كان يحتفظ به، ثم وضعه في
فيشة الكهرباء محدثاً (قفلة) في البيت كله، ليعم الظلام علينا
جميعاً..

انطلقت ضحكات طارق تدوي في المكان، وهنا تدخل أحمد كي ينقذ
الموقف، وجعل يفاوضني:

- الآن نحن قاعدين في الظلام، وأبوك أوشك على المجيء، وإذا
حضر والوضع هكذا كلنا سنضرب علقه موت، الأفضل نلحق
أنفسنا. قلت له: اجعله ينزع السلك من الفيشة ويخرج ولن أضربه.
وهنا صاح طارق من الداخل:

- قبل أي شيء أقسم على المصحف إنك لن تضربني، وإلا فلن
أنزعه أبداً.

٤- سيارة أبي

بلغ ولع أبي بسيارته حداً كبيراً حتى أننا كنا نظنه يفضلها علينا نحن فلذات كبده.

وكان أخي أحمد يعشق أبي، فهو يراه كائناً عظيماً، لا ينبس إلا بحكم، وكأنه نبي مرسل لا ينطق عن الهوى، ولا يخطئ أبداً. أبي، المدير الكبير، وأستاذ التشريعات بالمعهد الفندقى، وكلية السياحة، يمتاز بأناقة ووسامة ملفتة، الأمر الذي جعل صديقه المقرب، المحاسب محمد إسماعيل، والد صديقي مصطفى، يطلق عليه اسم الممثل الشهير جون ترافولتا، وكان أبي يتسم وينظر إليه في سخرية مردداً:

- يا رجل دع عنك هذا الكلام الفارغ.

أبي ذو شخصية قوية، شديد الاعتناء بهيئته، لا يستطيع أحد منا الاقتراب من دولاب ملابسه، المخصص به ركناً لرباطات العنق، هذا بخلاف مجموعة متنوعة من البدل على أحدث طراز، ولم يكن الأمر يخلو حيناً من اختلاسي لرابطة عنق، أو لقميص حريري مبهى، وهذا بعد أن يغادرنا متجهاً إلى عمله، وكذلك بعد رشوة أخي أحمد ببعض المال حتى لا يشي بي عنده.

أما أخي طارق فكان يستولي على بضعة سجائر، من علب السوبر المنتشرة في أرجاء المنزل، والتي كان يتعمد تركها في أماكن خفية، يلجأ إليها حين تنفذ سجائره ليلاً.

سيارة أبي نظيفه لامعة في كل الأوقات، يعرفها جميع قاطني شارع العزب، الذي لم يكن به تقريباً سوى ثلاث سيارات.. ورغم عصبية أبي الشديدة وسرعة غضبه لأتفه الأشياء، إلا أنه كان شديد الطيبة، سريع التأثر، كما أنه لا يخذل أحداً أبداً في طلب أو مساعدة، فهو دائماً مطالب بخطاب توصية أو تزكية لشخص ما، أو حتى مجرد اتصال تليفوني لأحد الكبار، في مساعدة منه لجميع من حوله، الذين تعلقوا به كثيراً، حتى أنهم جعلوا يستشيرونه في أدق تفاصيل حياتهم، وكان له دور كبير في فض الكثير من المنازعات، بل والصلح بين بعض الأزواج المتخاصمين، خاصة وهو الدارس لعلم النفس، المتعمق في علم الاجتماع، الباحث في القانون. ظل أحمد مأخوذاً بشخصيته، فجعل يلازمه طيلة وجوده بالبيت، يكاد يليه له كل طلباته، قبل أن ينطق بها، وكان شديد الاعتناء بسيارته تقريباً وزلفى، حيث يقوم يومياً بتنظيفها، حتى في برد الشتاء القارص.

أبى كان يجتمع بنا ليلاً، ودائماً ما يحكي عن عمه الذي يشغل منصباً رفيعاً في المخابرات الحربية، كما يذكرنا بأبن عمه الوزير السابق، وكيف أنه لا يثق في أحدٍ سواه، كان يحكي لنا عن جمال عبدالناصر، ومجلس قيادة الثورة، ويذكر العديد من التفاصيل الدقيقة لاجتماعاتهم وقراراتهم والتي لا يعرفها أحد ربما غيره.

حكى لنا عن يوم رحيل الملك فاروق وتنازله عن العرش، وكيف اقتحم الضباط الأحرار قصره، ليتنازعوا فيما بينهم على اقتناء أحذيته

الثمينة، كما روى لنا تفاصيل كثيرة عن حياة المطربة أم كلثوم، صديقة عمته، التي كثيراً ما كانت تزورها في بيتها، الكائن بحي العجوزة، والذي كان يعد ملتقى ثقافياً وفكرياً للعديد من كبار وفنانين الدولة.

ولم ينس أن يحكي لنا عن كيفية انقلاب أعضاء مجلس قيادة الثورة على أنفسهم، وخلافاتهم العديدة، وخاصة في مسألة استمرارهم في حكم البلاد، حيث كان يرى البعض ضرورة الالتزام بما تعهدوا به في بدء الأمر، من تسليمهم سلطة الحكم إلى واحد مدني منتخب من أبناء الشعب، وعودتهم هم إلى ثكتهم العسكرية، وكان ابن عمته واحداً من أولئك المتزعمين لهذا الاتجاه.

الأمر الذي دفعهم إلى تلفيق التهم إليه، ومحاكمته محاكمة عسكرية، أجبر فيها الجندي المرافق له (عسكري المراسلة) على شهادة الزور، إلا أن هذا الجندي البسيط، بكى في المحكمة وتراجع عن كل كلمة قالها، بل وروى للقاضي أنه أجبر على شهادة الزور في حق رجل عسكري مخلص لم ير منه إلا كل خير..

روى للقاضي كيف أن القادة هددوه بالقتل رمياً بالرصاص، إذا لم يلتزم بفعل وقول ما أرادوا من بهتان، والعجيب أن القاضي بعد أن استمع إليه، في جدية شديدة، حكم على ابن عمه أبي بالإعدام، مدعيًا ثبوت تهمة الخيانة العظمى.

ذهبت عمتي باكية إلى ناصر في بيته وذكرته بما بينه وبينها من صداقة وأخوة، وكيف كانا ينامان معاً في جرة واحدة في بيتها، الذي كان

مسرّحاً للعديد من اجتماعاتهم السرية قبل قيام الثورة، وكيف كانت هي تقوم برعايتهم واستضافتهم. ناصر طمأنها بأنه لن يعدم، وسيقضي فترة حبس وجيزة، وأنه فقط يشد أذنيه.

أما العسكري المسكين (جندى المراسلة) فقد أعدم رمياً بالرصاص، جزاءً لصدقه ومخالفته الامتثال لما أملي عليه من القيادة. وكان أحمد ينصت إلى أبيه في انبهار شديد، مصدقاً بكل جوارحه لكل كلمة ينبس بها، حتى أنه سأله يوماً:
- سعد زغلول يقرب لك إيه؟

نظر أبي إلى أحمد في غضب، ظنا منه أنه يسخر منه، إلا أنني عاجلته قائلاً:

أحمد لا يقصد السخرية، هو فقط يسألك سؤالاً بريئاً، ومن حَقك أن لا تجيب عليه، بدون أي غضب أو عقاب، وما كان من أبي سوى أن صاح بنا: اغربوا عن وجهي يا ولاد ال..... وانطلقنا إلى جرتنا مهرولين، والضحكات المكتومة تكاد تفضحنا، أما أحمد فظل حزيناً، متعجباً من رد فعل أبيه الغاضب.

كنت عائداً من الكلية جائعاً، مجهداً، بعد يوم دراسي طويل، وكان اليوم عاصفاً شديد البرودة. عند وصولي إلى الشارع، لمحت أخي طارق يلعب بالكرة مع بعض

أصدقاء الشارع، نهزته بشدة، وطلبت منه العودة إلى البيت، إلا أنه ما لبث أن أطلق ساقيه للريح مبتعداً عني حتى لا أمسك به عنوة، وهو يردد: لا شأن لك بي. في نهاية الشارع لمحت أحمد وأبي، كانا منهماكين في تنظيف السيارة القابعة أمام فيلا العزب. أشرت إليهما بيدي، ثم غادرتهما بسرعة، بينما كان أحمد يتميز غيظاً لعدم مشاركتي لهما في التنظيف. حين دلفت إلى حجرتي، سألتني أمي عنهما، فأخبرتها: - إنهما بالأسفل.

٥- الجوافة

توقف طارق طويلاً أمام فيلا اللواء شوقي العزب، زوج خالته، كان يتأمل أشجار الجوافة التي امتلأت فروعها بالثمار الناضجة، شرد طارق، وسبح بعيداً مع خياله الجامح، غير عابئ بعواقب ما يفكر به، ألقى بحقيبتة المدرسية جانباً، ثم جعل يحوم حول المكان، دارساً كل نقاط ضعفه وقوته، وكأنه يتأهب لتنفيذ مخطط ما.

في الحديقة مجموعة من أشجار الزينة والزهور النادرة، وشجرة واحدة للفل وأخرى للياسمين، إلا أن كل هذا لا يعنيه البتة، كل ما كان يشغل عقله الجهنمي هو ثمار الجوافة.

شبق مرسي صديقه المقرب، ثم صاح به وكأنه قد قرأ كل أفكاره:
- أرجوك اصرف نظراً عما تفكر به، إلا أن طارق التفت إلى صديقه الآخر، شيكو، والذي يعدّ ذراعه الأيمن، ثم همس له ببضع كلمات.
مرسي كان يعارضه، ويجادله كثيراً، بخلاف شيكو الذي كان لا يتأخر عنه في تلبية كل مخططاته، بلا أدنى تفكير أو مراجعة.

غضب مرسي، وانفعل في حدة صائحاً:

- هذا زوج خالتك؟!

لم يفكر طارق في كلمة مما قاله مرسي، في الحقيقة لم يكن يشغله إلا الثمار التي تساقطت حتى ملأت أرضية الحديقة.

يمكنه الدخول بسهولة إلى منزل خالته، ولكن كيف يمكن له مغافلة الجميع وتحقيق مخططه؟!

الفيلا تمتلئ بالعسكر، من ضباط، وجنود متواجدين دائماً لخدمة سيادة اللواء.

أحدهم لإحضار كافة الطلبات المنزلية، والنظافة، وآخر للطهو، وواحد متخصص في الأعمال الكهربائية، وأيضاً من يجيد النجارة، وأعمال السباكة، والنظافة، وسائق للسيارة الميري، بخلاف سائق السيارة الخاصة، والحرس الشخصي، وذلك القائم بأعمال صيانة السيارة والميكانيكا.

معظمهم جنود يؤدون فترة تجنيدهم، وقد كانوا سعداء الحظ بشرف خدمتهم سيادة اللواء، مع كل ما يتمتعون به من مزايا الحياة المدنية، وإجازات طويلة، والإقامة طوال النهار في هذه الفيلا التي هي بالتأكيد أفضل كثيراً من الحياة العسكرية القاسية، فهم مع ما كلفوا به من مهام، إلا أنهم ينعمون بطعام جيد، وراحة نسبية يحسدهم عليها باقي العسكر، بعد تفكير عميق أدرك طارق أن خطته هي كيفية تحويل كل نقاط القوة في هذه القلعة الحصينة إلى نقاط ضعف يستغلها لصالحه، وليس لعرقته.

جمع ثلاثة من أصدقائه، على رأسهم شيكو، وبدأ في رسم خطته الاستراتيجية.

المطلوب أن يتم كل هذا في أسرع وقت ممكن، وقبل أن ينتبه أحد من سكان الفيلا لما يفعل هو وعصابته الصغيرة.

بينما كان مرسي يتسم ابتسامة بلهاء، متوعداً إياهم بالسقوط في شر أعمالهم، وجعل يحذر شيكو من مصير مظلم، أقله التعليق في فلقة

العسكر، والحصول على علقه ساخنة، ثم الزج بهم بين المجرمين في
مراحض قسم المنتزه، ليقوموا بتنظيفه، بعد أن يتم حلق شعر
رؤسهم تماماً.

الفيلا أشبه بالقلعة الحصينة، بأسوارها الحديدية العالية، وأسلاكها
الشائكة الحادة الأطراف والمسنة كسكاكين جزار محترف.
وهي مكونة من دورين، ولكن روادها غالباً في الدور الثاني،
الموجود به حجرة معيشة كبرى يجتمعون بها، وفي الداخل بخلاف
أفراد أسرة خالته، زوار الباشا من أفراد العائلة أو الأصدقاء، والذين
عادة ما يمتلئ بهم البيت صباحاً ومساءً، من خالات وأبناء خالات
وأحياناً الجد والجددة، فهذه الفيلا تعد المقر الثاني للعائلة ومركزاً آخر
لتجمعهم.

حاول كثيراً اللواء شوقي العزب جعله المقر الرئيسي، إلا أن فيلا
العزب المواجهة له، والتي هي فيلا حميه وعمه، وقفت له بالمرصاد
دائماً، لتؤكد له أنها الأولى في قلوب جميع أفراد العائلة، بل وسكان
الشارع كله.

اختار طارق الوقت المناسب تماماً لبدء تحقيق خطته، ولأنه يعلم أن
زوج خالته من كبار مشجعي النادي الأهلي، فقد استغل انشغال
الباشا في مشاهدة مباراة لكرة القدم بين ناديي الأهلي والزمالك،
حيث اجتمع معظم أفراد عائلة العزب في الدور الثاني، أمام التلفاز
لمتابعة اللقاء الساخن.

دخل طارق إلى الحديقة، بمنتهى الهدوء والثقة، بعدما فتح له بابها

أحد العسكر.

ترك طارق زملاءه على مقربة من باب الفيلا الحديدي، الذي تعتمد عدم غلقه خلفه من الداخل.
ولأن طارق يعلم أن معظم هؤلاء الجنود بسطاء، متواضعو الذكاء، كما أنهم يخشونه، ويعلمون أنه قريب الباشا، فقد توجه إلى أحد عساكر المراسلة وأمره أن يقوم هو وزملاؤه بتخليص نباتات الحديقة من الحشائش الضارة، وبينما أخذهم طارق إلى الجزء الخلفي من الحديقة، كان شيكو ورفاقه قد تسللوا بسرعة إلى شجر الجوافة لجمع ثمارها، ووضعها في عدة كراتين.

كانوا يعملون في هدوء شديد، ولكن بسرعة خاطفة، وهم يدركون حتمية أن يفرغوا من مهمتهم قبل انتهاء الشوط الأول من المباراة، ولبت طارق في إلهاء العسكر، وتكليفهم بمهام عجيبة في الجزء الآخر من الحديقة، خلف مبنى الفيلا، وبعيداً عن شجر الجوافة، حتى انتهت مهمته بنجاح، دون أن يلفت انتباه أي شخص.

كل هذه الكمية من ثمار الجوافة، لم تدخل واحدة منها بيتنا!

ولا أحد يعرف حتى الآن ماذا قد فعل بها طارق!

ولما انتهت المباراة بفوز الأهلي، خرج زوج خالته إلى الشرفة العلوية، سعيداً فرحاً، منتظراً مرور أبي بالشارع حتى يشمت به، ويعيره بهزيمة الزمالك.

إلا أنه ما لبث أن اكتشف حجم ما تعرض له من خديعة، وكيف أن شجر الجوافة صار عارياً من ثماره.

كان باقي أفراد العائلة ينظرون إلى بعضهم البعض في خبث، محاولين إخفاء ضحكاتهم المكتومة، مما جعل اللواء شوقي يزداد حنقا. وفي ثورة عارمة من الغضب، أنزل بجنوده أشد أنواع العقاب، من بطش وضرب وتعليق في الفلكة.

الجنود البسطاء كانوا يصيحون بأن طارق هو من ألهاهم في تنفيذ مجموعة من الأوامر المتتالية، جعلتهم لا ينتبهون إلى شجر الجوافة، وما إن سمع اللواء شوقي باسم طارق حتى زادت ثورته، وانهاالت صفعته وركلاته لهم.

فكر الباشا كثيراً، ثم أدرك أنه لو شكاه لأبيه، سيكون مثاراً لسخرية الجميع، خاصة وأن طارق لا زال طفلاً صغيراً، ولكنه ذكي جداً، إلا أنه بالتأكيد مجنون.

جعل الباشا يفكر طويلاً في هذا المشاغب الذي أفسد عليه فرحته بفوز الأهل.

إلا أنه في النهاية فضّل أن يكون الحوار بينهما أولاً كرجل لرجل، ولما حانت له فرصة مواجهته منفرداً، في فيلا العزب، تحداه طارق بأن يثبت عليه شيئاً مما يقول، ثم هددته في الوقت نفسه، بأنه يمتلك العديد من الحيل الجهنمية الأخرى.

العجيب أنه، أمام جرأة طارق غير المتوقعة بل وحماقته الممزوجة بذكاء شديد، لم يجد الباشا بداً من ملاطفته ومحاولة احتوائه، حرصاً على شكله العام في العائلة، بل الشارع كله، وهو في النهاية لا يمكن أن يسلم نفسه لمأزق آخر يصنعه له طارق.

منذ ذلك اليوم، وقد بدأ يوطد أواصر الود والصداقة معه، حتى صار طارق بالفعل أقرب واحد منا إليه، بل إنه أضخى يدعوه لمشاهدة مباريات كرة القدم معه، وهو الأهلاوي المتعصب الذي لا يسمح بمجرد تواجد مشجع زملكاوى في بيته أثناء أية مباراة في كرة القدم. فيما عدا طارق الذي كسر كل هذه الحواجز، وصار يجلس إلى جانبه على أريكة واحدة أمام التلفاز الملون الكبير. وجعل مرسي يضرب كفا على كف مندهشاً من رد فعل اللواء شوقي، الرجل القوي الجبار، الذي يهابه الجميع ويخشاه، إلى حد أنهم كانوا يتجنبون المرور حتى في الشارع وهو متواجد به. إلى يومنا هذا، ونحن لا نعلم، هل اللواء شوقي كان يحب طارق فعلاً، كل هذا الحب؟! أم أنه كان يداهنه ويتقي شيطانه الرجيم؟! *

٦- أبناء الخالات

في إحدى حجرات فيلا العزب، انفردت جدتي بأبي في اجتماع شبه مغلق..

وبعد أن طردتنا أنا وأمي من الغرفة، التفت إلى جدي في دهشة متسائلة:

- ماذا تريد جدتي من أبي؟!

إلا أن جدي نظر إليّ بغير اكتراث، ثم أمرني بأن أحضر له بعض الديدان الحية من طين الحديقة؛ كي يستخدمها كطعم لصيد السمك، فرحت كثيراً لعلمي بأنني سأكون مرافقه الوحيد في رحلة صيده الممتعة، ونسيت أمر أبي وجدتي، عندما انتهى أبي من اجتماعه بجدتي، أخبر أمي في جدية مبالغ فيها أن جدي طلبت منه إنقاذ شباب العائلة من الضياع، وتأمين مستقبلهم بشهادة مرموقة، أبناء خالاتي.. مدحت ابن الخالة مي، وفصل ابن الخالة صفاء، وإيهاب ابن خالتي الكبرى ليلي العزب.

كانوا جميعاً قد فرغوا من امتحان الثانوية العامة ولم يوفقوا بالحصول على مجموع درجات يؤهلهم لدخول أية كلية من كليات القمة، ولم يكن أمام جدي لإنقاذ أحفادها من بد إلا اللجوء لزواج ابنتها، وهي تعلم جيداً أنه لا يستطيع أن يرفض لها طلباً، والحقيقة أنه كان يحبها ويحلمها، إلى حد مبالغ فيه، بل إنه كان كثيراً ما يستشاط غيرة من ابنها الذكر الوحيد، خالي نصر العزب، وبلغ به الشطط يوماً أن تشاجر

مع أمي بحجة أن أمها غير عادلة وتفضل ابنها عليهم جميعاً، وما كان من أمي سوى أن ابتسمت في دهشة قائلة:

- وهل تحسبها حقاً تحب أزواج بناتها بمثل قدر حبها لابنها؟!
أما أبي فجعل يؤكد لها أنها دائماً ما تكرر: أتم جميعاً أبنائي، وفي منزلة واحدة، ولا تمييز لأحد على أحد، ابتسمت أمي حينها وانصرفت عنه وهي متعجبة.

ولم يكن أمام أبي سوى أن يلي طلب جدتي، ويقوم بما له من نفوذ وسلطة بإلحاق أبناء خالاتي الثلاثة بالمعهد الفندقية، الذي كان وقتها لا يشترط مجموع درجات عاليًا، وإنما واسطة مهمة، كما أنه لم يكن يقبل غير أبناء العائلات الكبرى مدعومين بتوصية نافذة من أحد كبار الدولة.

وظن جميع أفراد العائلة أن مهمة أبي ثقيلة، فهو مطالب بإلحاق ثلاثة من الطلبة دفعة واحدة، أهمهم مدحت، غير المهتم بالدراسة، عاشق الرحلات والدراجات النارية الذي ما فتئ يطوف بدراجته النارية (الهوندا) ليلاً على شارع كورنيش البحر (الجيش) حتى الصباح ومعه مجموعة من أصحاب الدراجات.

هذا الموتوسيكل الفاخر، والذي حصل عليه من والده كمكافأة على نجاحه في الثانوية العامة، كان مسار إعجاب كل سكان شارع العزب، بحجمه الضخم وشياكة ألوانه ونخامة طرازه، كان مدحت شديد الاعتزاز به، وعلى الرغم من كل ما لحق به من إصابات وسحجات متنوعة، مع اتساخ يديه وملابسه شبه الدائم بالزيوت

والشحومات، إلا أنه رفض بقوة عرض أبيه باستبداله بسيارة على أحدث طراز!

كان مدحت في الصباح الباكر من يوم الجمعة عادة ما يذهب مع إيهاب ابن خالته في رحلة لصيد الأسماك، حيث يجد إيهاب ضالته في جمع واصطياد الأنواع المختلفة مثل الدنيس والشراغيش والبطاطا. أما ليلا فلم يكن إيهاب مهتماً سوى بسماع الموسيقى الغربية، الأمر الذي كان يستغرقه ربما لساعات طويلة، حيث يلقي بنفسه ممدداً على سريره النحاسي في غرفته الواسعة، واضعاً سماعات الكاسيت الحديدية في أذنيه، مستغرقاً في نغمات الموسيقى، وإيقاعاتها المتدرجة بين الانخفاض إلى حد الجنون، والعلو إلى حد الصخب، ممدداً ظهره وناظراً إلى سقف الحجرة اللبني، وكأنه سماء ليلية صافية خالية من الغيوم والسحب، والتي تلمع بضوء القمر وثلاًلاً بنجومها المبهرة، مستغرقاً بكل كيانه في ملكوت الله، متأملاً شيئاً ما غامضاً ربما لا يراه أحد سواه، بينما كل من في البيت يحسبونه غارقاً في كتبه ومذاكرته، مثله مثل أي طالب مجتهد. أما فيصل فكان منفرداً دائماً مع كتبه، التي عادة هي روايات أو قصص لإحسان عبد القدوس، بخيطة الرفيع، ونجيب محفوظ بثلاثيته، وحرافيشه، وأولاد حارته.

كان يجلس فيصل حتى مع أنيس منصور بأرواحه، وأشباهه، ولعناته الفرعونية، بل ورحلاته حول العالم.. فيصل السارح دوماً في أحلامه الرومانسية، وطموحاته النبيلة، في صناعة عالم أكثر بساطة وأيضاً أكثر دفئاً وعمقا، حيناً يرافق مدحت في رحلاته الموتوسيكلية،

وحينا آخر يحل ضيفاً على إيهاب في حجرته الموسيقية مشاركاً له في بعض عشقه للموسيقى وفرقة البوني أم.
ولربما اجتمعوا جميعاً ليلاً للعب الورق وخاصة (الإستيميشن والترنيب) أو توجهوا مع شلة من الأصدقاء إلى المعمورة الشاطئ حيث البحر والحدائق والممشى الطويل الممتلئ بالفاتنات.
نجح أبي في إلحاقهم كلهم بالمعهد الفندقي، ووسط دهشة الجميع، وفرحتهم، كان هو سعيداً نخوراً بنظرة إعجاب جدتي وزهوها به، إلا أن مهمته الأقسى، والتي ألقيت على كاهله فجأة، كانت هي متابعتهم دراسياً، والتكفل بنجاحهم وحصولهم على شهادة التخرج، ولربما طالبته خالاتي بتفوقهم أيضاً.

٧- مَشْمَش

أطلقت جارتنا صرخاتها، ملتاعة غاضبة، حتى أفزعت كل سكان العمارة!

كانت تصيح نائرة:

- كيف يتجرأ ابنكم ويفعل هذا بي؟! كيف يقوم بالتبرز في حجرتي، بل فوق سريري الخاص؟!

نظرت إلى طارق في ذهول، هل يمكن أن يفعلها؟! إنه حقا غريب الأطوار، شديد الشقاوة، وله العديد من الأفعال الشيطانية... ولكن هل وصل به الأمر إلى اقتحام شقة جارتنا والتبرز فوق سريرها؟!

جارتنا هذه سيدة دميمة الخلقة، طاعنة في السن، مريضة عقلياً ونفسياً، تتردد على مستشفى المعمورة مرات عدة في السنة الواحدة؛ لتمكث عدة أسابيع مع أخذ جرعات مكثفة من العلاج، ثم لا تلبث أن تعود ثانية إلى شقتها، في عمارتنا المكوّنة من ٦ أدوار.

كانت تقطن سطح العمارة، المكوّن من شقة واحدة بنيت على نصف مساحته، بينما النصف الثاني جعلت تستغله في تربية القطط. قطط من كل لون ونوع، بلدي وسيامي ورومي وشيرازي وأنواع أخرى لا أعرفها.

لم تكن جارتنا تثق في أي شخص من جنس البشر، فقط تصادق تلك المخلوقات الجميلة.

زوجها رجل طيب، يعمل عملاً بسيطاً، يدرّ عليه دخلاً يكفي

بالكاد، وزوجته التي تنفق معظم ماله في إطعام قططها، فهما للأسف لم يرزقا بالأبناء، وكان لا بُد من أخذها لدواء يومي لا يتوقف حفاظًا على حالتها العقلية، بيد أن زوجها أحيانًا كان يغفل عن علاجها، ساهياً أو عامداً؛ لضيق ذات يده.

والحق أنها كانت تبدو في أحسن حال طوال فترة مواظبتها على العلاج، حتى أنها كانت تخجل من نفسها، حين يذكرها زوجها بما فعلته من بعض الأمور المشينة، مع الجيران أو حتى الغرباء.

وكان لدينا قط أبيض، رومي ضخّم الحجم، اسمه مشمش.
هكذا أسماه أبي الذي كان يعدّه قطه الخاص، بل واحداً أساسياً من أفراد الأسرة.

مشمش لم يكن ليتورع يوماً عن أن يصعد إلى سطح عمارتنا، ليلعب ويغازل قطط جارتنا الجميلة، ولا يكتفي بهذا فحسب، بل يفعل أشياء أخرى.

في هذا اليوم تحديداً، كانت هي تصرخ وتضرب باب شقتنا بعنف وهي تردد:

- حرام عليكم.. كل يوم ابنكم يصعد إلى بناقي المساكين ويسلبهن طعامهن، لماذا تتركونه يفعل هذا وهو غني وابن ناس ولا يحتاج إلى أي شيء؟ ويصل به الأمر أخيراً، إلى أن يدخل عندي في الشقة ويتبرز! أنا لن أترككم تنجون بفعلتكم هذه أبداً.

جميعاً كنا في البيت، أنا وإخوتي وأمي، ولم يستطع أي واحد منا أن ينبس ببنت شفة، بل أصابنا الرعب وتملكنا خوف شديد جراء

صرخاتها، وضرباتها العنيفة على باب شقتنا الذي كاد يتهشم.
سألت أمي في رعب: - أين زوجها؟
وأخبرتني: إنه حتماً في عمله.

أسقط في أيدينا جميعاً، بينما قطنا السمين مشمش، يتوارى في صمت، خلف إحدى ستائر البيت وكأنه يفهم أويحي مقدار جرمه، ولم ينقذنا من هذا الموقف العصيب سوى والدي، الذي كان راجعاً من عمله، فلم يلبث أن طفق يحادثها بثقة شديدة.

حوار طويل دار بينهما، حيناً صوته يعلو على صوتها وحيناً آخر يداعبها بكلمات لطيفة، ثم ما لبث أن استشاط غضباً وأمرها بالرجوع إلى شقتها فوراً، الأمر العجيب أنها رضخت له، وعادت على عجل وهي مرعوبة منه!

أبي كان هو الشخص الوحيد في العمارة الذي يستطيع أن يتعامل معها، وهي كانت تخافه وتخشاه بطريقة بالغة الغرابة، ولا زلت حتى الآن لا أعرف سر قدرة أبي وأثره الذي يفوق قدراً حتى أثر زوجها عليها.

وما إن بادر أبي بدخول شقتنا حتى انطلق إلى مشمس، الذي حسبنا جميعاً أنه سيعاقبه، إلا أنه رفعه إليه في رفق، وبدأ في الترييت على رأسه والحنو عليه وتهديته، ثم أخرج من حقيبتة سمكة كبيرة وأعطاهها له، ليشرع في التهامها بشراهة وسعادة شديدة، ونحن ننظر إليه وإلى بعضنا البعض في دهشة بالغة!

٨ - المعلمة

وأنا طفل صغير كنت تلميذاً في نفس المدرسة التي تعمل بها أمي كمعلمة، إلا أن أمي كانت تعتمد أن تجعلني في فصل آخر غير الذي ترعاه.

ولما سألتها عن السبب أجابت بمنتهى العفوية قائلة:
- كيف لي أن أكون أمك وفي نفس الوقت معلمتك في المدرسة؟! وقتها تملكني الاستياء، ولم أفهم منطقها لصغر سني، وقلت لها في غضب:

- أحسن، أنا الذي لا أريد.
حتى مرضت معلمتي ذات يوم، ولم يكن هناك من بدّ سوى الاستعانة بمعلمة أخرى لتحل محلها طيلة فترة مرضها.
وكانت تلك المعلمة هي والدتي!

٩- الخالة صفاء

وقفت الخالة صفاء طويلاً أمام سور بيت أختها، فيلا اللواء شوقي العزب، كانت تعلم أن الفيلا خالية لمدة أسبوع وأنهم جميعاً في مرسى مطروح، شأنهم شأن معظم قاطني الإسكندرية الذين يفضلون شاطئ بحر مطروح بعيداً عن ضجيج الوافدين من شتى المحافظات صيفاً، فيما عدا أحمد شوقي العزب، الذي رفض السفر معهم لانشغاله بتجميع وتصنيع سيارة فولكس قديمة، أتى بها هو ومجموعة من أصدقائه من مستودع للخردة، أحمد مشروع عبقرى صغير، يهوى إصلاح الأجهزة الإلكترونية، وأحياناً منحها بعض الإضافات أو التحسينات، غرفته تقع في الطابق السفلي للفيلا، ولها باب مستقل على الحديقة، وأمامها باحة كبيرة، تعد هي ورشته ومعمله، يجتمع فيها مع مجموعة من أصدقائه، وبالقرب من حجرته يجلس دائماً رعد، ذلك الكلب الأسود، الشرس، وكأنه يحرسه وحده.

جعلت الخالة صفاء تفكر في كل هذه الكمية من ثمار الرمان الناضجة، وحينما عادت إلى شرفة فيلا جدي، كنت أنا وأبنائوها (فيصل ومنى ومنار) مستغرقين في لعب بنك السعادة، بينما كان جدي يتصفح جريدته اليومية، وجدتي تتابع بعض الإصلاحات في الدور العلوي مع عم السيد الجنائني. صاحبت الخالة صفاء فينا:

- تلعبون هكذا طوال النهار!

همست منار:

- لماذا أنت غاضبة؟

- كل هذه الثمار ستلتف قبل عودتهم.

صاح فيصل:

- وما شأننا نحن، دعينا نكمل لعبنا.

إلا أن صفاء نهضت فجأة وأحضرت حلة كبيرة وتوجهت إلى حديقة أختها، وجعلت تجمع كل حبات الرمان، حتى غير الناضج منها.

وقبل أن تخرج من باب الحديقة، فوجئت برعد يأتي مرزجراً كوحش ثائر.

تجمدت صفاء في مكانها رعباً، ولم تنبس بكلمة.

صفاء، خالتي العزيزة، صاحبة أجمل ضحكة، وأخف ظل في عائلة العزب كلها، فهي تمتلك مقدرة رهيبة على تحويل أصعب المواقف إلى حالة كوميدية ساخرة.

نعشقها جميعاً، وننتظر الإجازة الصيفية على أحر من جمر اشتياقاً لها وأبنائها.

بعد أن توفي زوجها، رفضت أن تغادر سمند وتزح إلى الإسكندرية لتكون برفقة والديها وأخواتها، وفضلت البقاء كمدرسة للغة الفرنسية، مع أسرتها الصغيرة، في تلك المدينة القريبة من المحلة الكبرى، بالقرب من مسقط رأس أبي، وهي منطقة شبه ريفية

تابعة لمحافظة الغربية.

إنها مدينة تتمتع بصفات القرية، حيث يمكنك أن ترى الأرض الطينية الخصبة، ومساحات الخضرة ومحاصيل متنوعة، تمتد أمامك في مساحات واسعة لا يحدها سوى تقاطعات المصارف والترع المتشعبة من وإلى نهر النيل، ذلك العملاق الأسمر، الصبي دائماً رغم امتداد سنوات عمره بطول الزمن.

كانت ترى في هذه الحياة بساطة وسهولة كبيرة عن حياة المدن الكبرى مثل الإسكندرية.

هناك لا زال الناس يتمتعون بالبساطة والصدق، وكل شيء أرخص كثيراً من المدينة، بدءاً من الطعام، والملابس، وحتى الدروس الخصوصية، شبه مجانية.

كما أنها لم تستطع التخلي عن جيرانها وأصدقائها، عشرة عمرها، طفلة، وصبية، وأخيراً ربة أسرة ومدرسة يعرفها كل أبناء البلدة ويقدرونها، الأمر الذي جعلهم جميعاً يتبارون في مساعدتها وتقديم خدماتهم إليها حباً واحتراماً، الأمر الذي جعلها تفضل المعيشة بينهم بعيداً عن عائلتها الكبيرة في الإسكندرية، وبالرغم من تملكها بمساعدة جدتي لبيت كبير في نهاية شارعنا، إلا أنها جعلت منه مجرد مقر صيفي لقضاء الإجازة المدرسية.

وظلت كل عام تقنعنا بأنها في العام القادم ستقوم بنقل أبنائها وتأتي معهم لتستقر بيننا، إلا أن السنوات مرت سراعاً ولم تغير من حياتها أو عاداتها ولم تتخل يوماً عن أصدقائها وجيرانها وحياتها المشبعة

بذكرياتها في سمود تلك العاصمة الفرعونية العتيقة، الضاربة في التاريخ
والسحر والغموض.

وتأتي صيفا، ونحن ننتظرها على محطة قطار المندرة، فنحتفل بها
ونسعد بأبنائها، ونبدأ على الفور في الترتيب معها لترتيبات التنزه
وليالي السمر وحفلاتنا وتجمعاتنا الليلية الممتعة.

ونحشد لها كل أفراد العائلة مع ترتيبات الولائم والعزومات
المشتركة، وخاصة الفسيخ والرنجة والتي كانت عادة ما تأتي معها
بكميات كبيرة منهما.

وفي الصباح نستيقظ جميعاً استعداداً للذهاب إلى شاطئ بحر المندرة،
وفي الظهيرة نأخذ راحة قصيرة ريثما تشارك هي أمي في إعداد طعام
الغداء، وفي الأمامي كنا نجتمع جميعاً في حديقة الفيلا مع الخالات
وأبنائهن، ونلتف جميعاً حول شواية الفحم والتي برع في التعامل معها
اللواء شوقي، فصار دوماً هو المسؤول عن شي لحوم و فراخ العائلة
بمساعدتنا جميعاً.

صاحت أمي بمنى وهي مشغولة في بنك السعادة:

- أين أمك؟

- في حديقة طنط ليلي تجمع الرمان.

نهض جدي من على كرسيه فزعا ثم صاح بنا:

- اذهبوا إليها، لقد تأخرت كثيراً!

وعندما وصلنا إلى باب الفيلا كانت هي واقفة مدعورة في ركن
قصي من الحديقة، بينما رعد واقف على قدميه الخلفيتين مانعا إياها

من المرور، محاولاً عقرها ولكن السلسلة الحديدية الطويلة المنعقدة حول رقبته كانت تمنعه من الوصول إليها، وبينما العرق الغزير يتفصد من وجهها الضارب في الحمرة، كنا نحن غارقين في الضحك، همست الخالة صفاء في هلع:

- اعملوا حاجة؟

مدت منى يديها من فوق السور، وأخذت الحلقة الممتلئة بثمار الرمان وانطلقت إلى فيلا جدي، ونحن جميعاً نركض خلفها، لعلنا نظفر بثمرة منها، وما إن رأنا جدي حتى صاح بنا:

- أين صفاء؟

أخذت أمي مقعداً حديدياً، وناولته لخالتي التي أقعت جالسة عليه، في مواجهة رعد الذي كان هو الآخر قد أصابه الملل، إلا أنه ظل على حاله واقفاً أمامها فاتحاً فاه، والسلسلة المربوطة في عنقه مشدودة على آخرها تكاد تنفلت من العمود الحديدي المعقود آخرها به.

صاح جدي في غضب:

- ابجثوا عن أحمد شوقي.

ونحن نتصارع على تناول الرمان، حتى أنه سبنا جميعاً، إلا أن أمي ما لبثت أن قالت:

- أحمد مع زوجي يريه مدى قوة ومثانة السيارة الفولكس التي جددها.

تساءلت جدتي في دهشة:

- وما شأن محي بسيارة أحمد وهو لديه سيارته؟

قلت لها: - إنه يريه مدى قوتها وسرعتها علّه يأتي له بمشتر لها.
وبينما كنا نتجاذب أطراف الحديث، كانت صفاء تقفز من فوق سور
الحديقة بعد أن وقفت على الكرسي الحديدي الذي ناولته لها أمي،
ولم تكن تردد سوى جملة واحدة:
- أكلتم الرمان كله يا أنزال.

١٠- بوني

ثلاثة كلاب صغيرة، أحضرها أحمد شوقي، هي نصيبه من نتاج التزاوج بين الكلب رعد وأنثى من النوع الإلزاسي النادر، وعندما شاهدها جدي، أمره أن يترك له أحدها، وهو جرو ذكر جميل، تبدو عليه علامات الصحة والعافية، والتي تبشر بأنه سيصبح كلباً ضخماً قوياً، ليقوم بتربيته، عله ينفعه في حراسة الفيلا... ولأن جدي لم يعط أحمد أي مقابل مادي، فقد راوغه كثيراً، ووعدته بأنه سيلبي طلبه حال القيام بفطامه، ولما طالت المدة، استاء جدي منه كثيراً، وقرر إعلان غضبه عليه، ووصل الأمر إلى طرده من فيلا العزب وحظر دخوله أو تواجده فيها، لم نكن نعلم سر ثورة جدي عليه، حتى جدتي نفسها كانت مندهشة من سلوكه وهو الهادئ المتسامح دائماً، أحمد كان يعد نفسه لبيع تلك الكلاب بمبلغ مادي ضخم، وخاصة أنها من سلالة نادرة نقية، فالأب بلاك جاكيت عريق، والأم إلزاسي أصلية.

بارع، أحمد في عملية تهجين الكلاب، وهو عليم بكل أنواعها ومواصفاتها التي ترفع من قيمتها، مثل الأذنين الكبيرتين المنتصبتين، والذيل الطويل المفرد، والكفوف الضخمة، وأشياء أخرى تؤكد على عراقة الكلب ونقاء سلالته أباً عن جد.. وقد كان في بعض الأحيان يقوم بعملية تزاوج لكلبه الأصلي رعد وأنثى بلدي لا قيمة ولا أصل لها، فتنج مجموعة من الكلاب المخلطة التي هي مزيج بين

سلالة ذات حسب ونسب وأخرى عديمة الأصل.. وفي تلك الحالة كان ينتقي أفضلها، ثم يجري عليها بعض العمليات التجميلية، لتحسين مواصفاتها الشكلية، فإذا صادفته مشكلة مع الذيل -الذي قد يبدو معقوفاً، نافراً لأعلى- فإنه يقوم بتجبيره وربطه على عصا طويلة مفرودة لعدة أسابيع حتى يأخذ شكل ذيل الأب الضخم المنسدل، ولو كان هناك بقعة لونية بيضاء أو صفراء في شعر الكلب فإنه يقوم باستخدام أنواع معينة من الصبغة القوية. وهكذا يتحول الكلب المخلط الجنس بقدرة قادر إلى كلب أصلي فاخر باهظ الثمن.

ولما علمت خالتي ليلي بالمشكلة الحادثة بين ابنها وأبيها، قررت على الفور التدخل، حتى أنها أجبرت أحمد على صلح جده وأن يعطيه الكلب الذي يريده، ولم يجد أحمد من بدّ أمام ضغط والدته عليه، سوى أن يذهب إلى جده حاملاً معه جرواً صغيراً، ألقى به إليه ثم مضى، دون أن ينبس بكلمة واحدة! كنت أنا متواجداً ساعتها لأكتشف أنها أنثى هزيلة شاحبة، قد أوشكت على الهلاك. صاح جدي غاضباً:

- هذا ليس الكلب الذي أريده، كما أنها أنثى. وأردفت أنا في براءة: هذا بخلاف شحوبها ومرضها الذي ينبئ بأنها ستقضي نحبها اليوم، أو بعد بضعة أيام قلائل. ألقى جدي الكلبة في الحديقة باستياء، وهو يسب ويلعن، ثم قال

وهو يتميز غيظاً:

- قل له أن يأتي ليأخذ زبائله.

ولما ذهبت إلى أحمد، كان يلتف حوله بعض الناس وهو غارق في مشاجرة حامية مع زبائنه!

تعالى صوت رجل يودّ استعادة ماله، فهو بعد أن حمى الكلب ذابت الصبغة السوداء عن شعره فكشفت له عن لونه الحقيقي الأصفر الفاقع، وثمة شخص آخر غاضب بعد أن عاد ذيل كلبه معقوفاً إلى أعلى مثله مثل أي كلب بلدي حقير النسب، محققاً المقولة الشعبية (ذيل الكلب عمره ما ينعدل ولو علقوا به قلب)، وآخرون بين مؤيد ومعارض لأحمد الذي يعلن -في تحدٍ- أن البضاعة المباعة لا ترد وتستبدل.

ولما رأيت أحمد في تلك الحال من المشاحنات، عدت أدراجي، ولم أخبره بشيء.

كان الجو شديد البرودة، وكانت السحب في السماء تنذر بسقوط المطر، بينما الكلبة في الحديقة ترتجف، وتنظر إليّ في حزن. رغم مظهرها المزري، كان في عينيها ذكاء وجمال أثوي من نوع غريب، وبعد لحظات قصار من التفكير، أدركت أنني وقعت أسيراً لحبها.

راعني حالها وأشفتت عليها فقممت بحملها إلى بيتي، أحضرت صندوقاً خشبياً صغيراً، وفرشت به قطعة موكيت صغيرة ثم قمت بوضعها فيه.

كانت عينا الكلبة تلمعان حباً وسعادة، وجعل ذيلها يهتز فرحاً وشكراً.

كنت أخشى من ردة فعل أمي التي تكره الكلاب، إلا أن أبي سرعان ما أعجب بالأنثى الصغيرة فأخذها مني عنوة، ودلف بها إلى الحمام، وقام بتنظيفها بالماء والصابون، ثم أحضر لها زجاجة كبيرة من اللبن الدافئ، وسألني عن اسمها، وبعد أن فكرت قليلا قلت له:
- بوني.

بوني....

أنثى لعوب، كبغي محترفة أسرت قلوب الجميع، جمالاً وذكاءً ودلالاً. جعلت أبي لا يلقي بالاً لأحد في البيت غيرها، وصرت أنا طيلة اليوم ألاعبها وأشاعبها!

حتى أمي احترمت فيها نظافتها، وقيامها بقضاء حاجتها في الشارع بعد أن تحفر حفرة كبيرة تواري بها فضلاتها، إلا أن جدي كان له رأي آخر، فبعد أن تعافت بوني، واشتد عودها، وصارت كلبة قوية، تمتلك كل مواصفات الكلبة الأصلية - كل هذا بسبب رعايتي واهتمام أبي بها، مع برنامج تغذيته المكثف الذي وضعه لها- أعلن جدي في إصرار عن حاجته لكلبته التي لفتت أنظار الجميع حتى أحمد شوقي، عاد أدراجه محاولاً إعادتها إليه، ولو كلفه الأمر استبدال الذكر الذي كان يرغب فيه جدي بها.
صحت بهما وأنا أبكي:

- الآن تريدانها بعد أن تماثلت للشفاء وصارت كلبة جميلة عفية؟!

ثم سألت جدي: هل نسيت أنك ألقيت بها في الحديقة وقلت عنها زبالة؟

وقلت لأحمد:

- ألم تتركها لجذك بعدما تأكدت أنها مريضة مرضاً لا شفاء منه، وأنها حتماً ستقضي نحبها؟!

أبي أعلن أنّ بوني فرد من أفراد الأسرة ولا يمكن التفریط فيها، وكاد يحتد بكلماته على جدي، إلا أن جدتي أقنعتة بأنها تزداد حجماً يوماً بعد يوم، وهي في حديقة الفيلا ستنعم بالحرية وسيكون هذا خيراً لها.

ولأنّ أبي يحب جدتي، أطرق قليلاً، ثم انصرف في هدوء عائداً إلى البيت، قالت أمي لي:

- انظروا.. هذا بيتها الذي صنعه جدك لها من أخشاب شجر الحديقة. والتفت لأجده بيتاً خشبياً جميلاً يشبه بيت بلوتو (صديق ميكي) وقال جدي:

- يا بني، هي كلبتك وأنت طوال اليوم موجود معنا في الفيلا، فلا بأس من تركها ليلاً في الحديقة حتى تقوم بحراستها. أسقط في يدي، إلا أنني أكّدت على جدي قوله إنها كلبتي ومن حقّي الصعود بها لبيتي في أي وقت.

ولم يتوقف أبي عن رعايتها وإحضاره هياكل الدجاج العظمية لها. بوني كانت مطيعة، وتعامل مع جميع أفراد العائلة بودٍّ واحترام، أما في حالة ولوج أي غريب إلى الفيلا فإنها تتحول إلى وحش كاسر،

ولم يكن يجسر أحد على مجرد العبوس في وجهي أثناء مرافقتها لي في نزهتها اليومية، فهي ما إن تراني متجهاً إلى الدرج الموضوع به طوق رقبته وسلسلتها الذهبية، حتى تطير فرحاً وتلقي بنفسها في أحضاني، وقد يحدث أن تأتي لي بالسلسلة والطوق في فمها، رغبة منها في الخروج والتنزه.

كانت تتمتع بإخلاص ووفاء من نوع نادر، فهي ما إن تسمع صوت سيارة أبي وهو مقبل من عمله، حتى تقفز من فوق سور الفيلا، قفزة ماراثونية رهيبة، رغم ارتفاعه وعلوه، وانتشار الأسلاك الشائكة أعلاه.

وكان أبي لا يكسر خاطرها أبداً، فيصحبها معه إلى منزلنا القريب من الفيلا، دون أن يخبر جدي، الأمر الذي أحدث نوعاً من التوتر بينهما، حتى أنه أعلن لجدي أن أبي سيفسد أخلاق الكلبة. وفي يوم حزين جاءت بوني إليّ وهي تعوي، ثم سقطت على الأرض أمامي وفقدت كل قدرة على الحركة، جريت إلى أبي الذي أحضر أحمد شوقي وجعلنا يحاولان إفاقتها.

سوائل، ونشاء، وماء، وأشياء غريبة ألقتها في فمها، إلا أنها نفقت في الصباح.

علمت بعد ذلك أن أحد الجيران هو من دس لها خفية بعض السم في قطعة لحم، انتقاماً منها بعد أن عقرت ابنه الذي كان كثيراً ما يشاغبها ويتعمد إيذاها.

بوني كانت تعرف جيداً كيف تطرق الباب بيديها، مثلها مثل أي

زائر أو فرد من أفراد الأسرة.
عرّفتني تلك الكلبة أشياء كثيرة، علمتني معنى الحب، والوفاء، وأيضاً
قسوة ألم الموت، وعذاب الفراق.
طيلة حياتي لم أجد مثل حب أو إخلاص هذا الحيوان الأخرس،
ذلك الحب النادر، والإخلاص المجرد، تذكرت يوم مرضت بالحمى،
وكيف أنها لازمت حجرتي، حيث اتخذت من أسفل سريري مقراً
لها، وامتنعت عن تناول الطعام، ولم تقبله من يد والدي، حتى
تحملت على نفسي، وربّت على رأسها وسقيتها الماء، وأطعمتها بضع
لقيمات، دسستها في فمها عنوة، وتذكرت يوم أن شفيت، كيف
قابلتني بمنتهى الحرارة، وهي تكاد تبكي فرحاً حتى أنها ألفت بنفسها
فوقي لتعانقني فأسقطتني على الأرض لضخامة حجمها.
ذكرني نفوق الكلبة بوني المفاجئ، بأيام موت شقيقتي نهي وشيرين،
أعادتني لفترة سوداء، ورغم ضبايتها، لصغر سني وقتها، إلا أنها
كانت من أصعب الفترات في حياتي.
وعرفت وأنا صغير أن هناك دهليزاً طويلاً غامضاً، من يمضي به
يذهب إلى عالم آخر، ولا يعود منه أبداً.
علمتني أن أبي مهما بلغ من قوة فإنه لا يستطيع أن يعيد لي من انتقلوا
إلى ذلك البر الآخر الغامض، وأنه هو نفسه سيرحل في ذات يوم،
بل إننا كلنا يوماً ما سنمضي.
واريت بوني التراب بعدما حفرت لها حفرة كبيرة في أسفل التل
الرملي المجاور للفيلا، وكان جدي يراقبني في صمت والدموع تتلأأ

في عينيه.
جميع أفراد العائلة حزنوا لفراقها.
الأمر العجيب هو ما حدث بعد ذلك!
إذ إنه لم تمض سوى أسابيع قلائل، حتى علمنا بنحبر موت ابن جارتنا
مسموماً!
ولم تستطع الشرطة حتى يومنا هذا اكتشاف الجاني.

١١- الكاتب الكبير

منذ سنوات عديدة، وأنا أمثل حالة إزعاج شديدة لوالدي، فقد كنت عاشقاً للقراءة، ثم الكتابة بعدها بفترة قصيرة. بدأت بقراءة المجلات والقصص المصورة؛ ميكى .. سمير .. سوبرمان .. رجل المستحيل .. المغامرون الخمسة. وكل ما ينتمي إلى عالم القص والحدوتة. ثم انتقلت إلى عالم إحسان عبد القدوس، ويوسف السباعي. ثم نجيب محفوظ، ويوسف إدريس، وتوفيق الحكيم. ثم كافكا وسارتر وتشيكوف وكامي، وتوالى القراءات المتنوعة وكثرت الكتب والمجلات والأوراق في البيت، وصار معظم وقتي في القراءة أو الكتابة أو حتى حضور الندوات والمؤتمرات الأدبية. كنت صغيراً غضاً، وربما رومانسياً بعض الشيء، ولكن أبى كان قد قرر أن يمنعني من إنفاق أغلب وقتي في هذا العبث كما كان يظن، لذا وجدته يوماً يعلمني بأنه رتب لي لقاءً بأحد الكتاب المعروفين؛ لإطلاعه على بعض كتاباتي وتحديد مدى قيمة ما أفعل وهل هناك جدوى أم أن كل ما أفعله عبث لا يستحق مجهودي ووقتي!

كان أبى في تلك الفترة يعمل في القاهرة، حيث يشغل منصباً كبيراً في إحدى شركات القطاع العام، التابعة لوزارة السياحة، وكان له زميل وثيق الصلة بهذا الكاتب المزعوم، وقد رتب معه هذا اللقاء،

حتى أنهما قاما بتوجيه ذلك الكاتب -والذي له العديد من الأعمال الأدبية والسينمائية- على أن يخبرني بأن كل ما أكتبه ليس إلا كلاماً فارغاً وأنه يجب على أن أنتبه لدراستي، وأترك هذا الأمر الذي يتطلب موهبة عظيمة لا تتوفر لديّ، لجأ أبي إلى هذه الحيلة بعد أن حاول منعي بأوامره المباشرة وتهديداته المستمرة، بل وضربه لي وتمزيق معظم كتيبي وأوراقى ومسودات أعمالي الأولى. لم أكن أعلم لماذا كانت تزججه هوايتي تلك كل هذا الإزعاج، وخاصة أنني كنت متفوقاً في معظم سنواتي الدراسية ولم أرسب يوماً في مادة، بل ولم أكلفه يوماً عناء درس خصوصي! ورغم كل محاولاته معي، إلا أنني كنت ماضياً في طريقي متيمّاً بعالمي الخيالي.

لم يكن الأمر لديّ مجرد هواية عادية، فقد كنت أشعر بالحياة فقط وأنا غارق في عالم القصص، معاشاً لتجارب شخوص ونماذج الأعمال الفنية الخاصة بكبار الكتاب، وأيضاً أبطالي وشخوص وعوالم أعمالي الفنية.

ولما فشل أبي في وسائله السابقة من الترهيب والتخويف بل والإيذاء والعنف البدني، قرر أن يلجأ إلى تلك الحيلة القائمة على الإقناع، وهو يعلم أنني شخص لا أفعل إلا ما أنا مقتنع به.

وجاء إلينا في الاسكندرية في نفس موعده الأسبوعي، وعندما حل موعد رحيله إلى القاهرة، أخذني معه في سيارته للقاء هذا الكاتب الكبير في مكتبه، وقبل أن نذهب إليه فور وصولنا إلى القاهرة

عرجنا على مقر عمل أبي، الذي منه رافقنا زميله وصديق الكاتب،
ليقدمني له ومعني بعض أوراق المخطوطة بالقلم الرصاص، استكمالاً
لتنفيذ مخطط أبي.

واعترتني حالة شديدة من الاضطراب والتلعثم، بل والدهشة
المفرطة، حين وجدتني وجهاً لوجه مع العبقري، صاحب نوبل
العالمية.

نجيب محفوظ!

بشحمه ولحمه، إنسان حقيقي من لحم ودم، صاحب الثلاثية،
وميرامار، وأولاد حارتنا.

العظيم نجيب محفوظ!

بكل حرافيشه، وفتواته، وأساطيره.

١٢- المعلم منصور

ما إن قبضت الشرطة على المعلم منصور، حتى وجد نفسه أمام اللواء شوقي العزب الذي سأله:

- هل هذا الحشيش ملكك؟!

تجمد منصور في مكانه، ولم ينبس، إلا أن شوقي أعاد عليه السؤال مكرراً: هل هذه المخدرات تخصك؟!

المعلم منصور، الذي يسكن في نهاية شارعنا، لم يكن تاجراً للمخدرات بالمعنى التقليدي، فعلى الرغم من تشابهه الشديد في الملامح، مع نجم السينما محمود إسماعيل، الذي كان في معظم أدواره رمزاً لقوى الشر، بما يملك من ملامح حادة ونظرات نارية، إلا أن منصور كانت له سمات أخرى.

لمنصور زوجتان؛ الصغرى تدعى أوشا، وهي صبية فتيّة، تتمتع بقدر عالٍ من الجمال وأناقة بنت البلد.

أما الأخرى فكانت فتحة، التي لم يترك الزمن لها من الجمال سوى مسحة بسيطة مع آثار حرق واضح في رقبتها، وهما يقتسمان كل شيء، فأحدهما تنظف، والأخرى تطبخ، واحدة ترعى الأبناء، والثانية تحضر متطلبات البيت، وبعد العشاء يجلسون جميعاً أمام بيتهم يتسامرون ويتناولون أكواب الشاي الساخن وأكواز الذرة المشوية.

تفاهم غريب وعجيب، بين زوجتين لرجل واحد.

حتى أن أوشا كانت تقدّر فتحة كثيراً، وتستشيرها في شتى أمورها

وكانها أختها الكبرى!

صاح اللواء شوقي العزب بمنصور: أجبني بصراحة.. هل الحشيش ملكك؟!

نظر منصور إلى شوقي العزب ومن معه من ضباط وعسكري، في ريبة وحيرة شديدة، إلا أن شوقي أمر رجاله أن ينزعوا عنه القيد، ثم طلب منه أن يقترب ويجلس أمام مكتبه.

كلما أرتاد المسجد، أجد منصور في الصف الأول، وكانت تدهشني صداقته الوطيدة بإمام المسجد الشيخ صالح، وكثرة مداعباته له، وعندما نجلس لقراءة القرآن، في الفترة بين المغرب والعشاء، كنا نجده إلى جوار الشيخ صالح الذي يقوم في نهاية الجلسة، بتوزيع حبات النعناع، تشجيعاً للمواظبة والحضور.

وعادة ما كان منصور يتشاجر معه مدّعياً أنه لم يحصل على نصيبه من النعناع، حتى يعطيه نصيباً آخر، شاهدت صيفاً العديد من نجوم السينما في سياراتهم أمام بيت منصور، الذي سرعان ما يدفع إليهم بلفة صغيرة من خلال نافذة العربة، يعقبها مناوئتهم إياه مبلغاً مالياً، وكثيراً ما كنا نشاهده ليلاً، وقد جلس وحيداً في نهاية شارعنا مفترشاً الرمال، وقد جعل يتطلع إلى السماء.

لا أحد قط يعرف سر جلسته هذه، في تأمل الليل والنجوم لساعات طويلة بلا حراك!

وحدث ذات يوم أن دار شجارٌ عنيف أمام بيت منصور.

كانت زوجته فتحية ثائرة، بينما ضررتها أوشا تكيل السباب لامرأة غريبة، ليست من سكان شارعنا!
وكانت المفاجأة حين علمنا أن المرأة تدّعي أن زهرة ابنة منصور وفتحية الصغرى، هي ابنتها.

واجتمع أفراد الشارع حولهم وهم في حالة ذهول، عدا جدتي ملك هانم التي كانت تعلم أصل الحكاية، والتي قامت على عجل باستدعاء الشيخ صالح.

نظر صالح إلى المرأة الغريبة ثم قال لها في سخرية:

- هل تذكرت الآن أن لك ابنة؟!

- أنا لم أنسها يوماً.

- بأي وجه تطالبين بها؟ بعد أن ألقيت بها أمام المسجد ليلاً وهي قطعة لحم، ولولا أن وجدها منصور ورقّ قلبه لها فجعلها وزوجته فتحية ابنة لهما، لكانت قد تجددت من البرد، أو التهمت الكلاب الضالة.

- لقد مررت بأوقات عصيبة، وقتها لم أكن في عصمة أبيها.

صاحت فتحية:

- وبعد أن استقرت بك الأمور، أتيت هكذا، وبمنتهى البساطة

لتأخذني، الآن، بعد أن أحببتها وتعلقت بها وصارت ابنة لي؟

المرأة: هذا حقي.

فتحية: وأين حقي أنا، وقد ريبتها وعلّمتها؟!

- إذا كنت أنتِ قد ريبتها فهي قطعة مني.

وهنا تدخلت جدتي قائلة:

- القرار الآن ليس لأي منكما.

سادت برهة من الصمت المريب، تطلع فيها جميع أفراد الشارع إلى جدتي في حيرة، إلا أنها أردفت قائلة:

- القرار لزهرة.

زهرة كانت في حزن أوشا تعاني حالة من الاضطراب، والذهول، إلا أنها سرعان ما تشبثت بجسد فتحية، وأبت أن تفارقها، ثم صاحت بالمرأة قائلة لها في حدة:

- أنا لا أعرفك.. من أنت؟!

انفجرت المرأة في البكاء، إلا أن زهرة استطردت قائلة وهي تشير إلى فتحية:

- هذه هي أمي الحقيقية، أما أنت فعودي من حيث أتيت، فلا مكان لك بيننا.

أشعل اللواء شوقي العزب سيجارة لمنصور وطلب له كوباً من الشاي الساخن، ثم همس:

- قل الحقيقة يا منصور ولا تخف.

ازدرد منصور لعابه ثم قال والعرق يتصبب من كل جسده:

- الحق.. هو.. هو لي.. نعم الحشيش ملكي.

عندما اعترف منصور بملكيته للحشيش، وسلم أمره لله، صاح اللواء

شوقي به في قوة جعلته يرتج من الهلع:

- منصور...

انتبه منصور بكل حواسه وهياً نفسه لكل المساوئ القادمة، إلا أن شوقي العزب قال له وعلى غير توقع:

- اخرج من هنا يا منصور.

تطلع منصور إلى اللواء شوقي العزب في ذهول، تجدد في مكانه غير مصدق لأذنيه، إلا أن شوقي صاح به في قوة مكرراً:

- منصور... امضي إلى حال سبيلك، لا أريد أن أراك هنا مرة أخرى.

١٣- طريق النخيل

في ندوة قصر ثقافة الحرية، بالعطارين (مركز الإبداع حالياً)، يُعد يوم الاثنين من كل أسبوع يوماً مقدساً لنا، حيث نجتمع لننصت بعناية لكل من يقرأ قصة أو يعلق عليها.

كما نلتزم بالبرنامج الذي وضعه الناقد الكبير عبد الله هاشم، والذي غالباً ما يكون متنوعاً ويضم في أحد أسابيعه قراءة في قصص الأعضاء.

عبد الله هاشم واحد من أهم النقاد في مصر، بما من له شخصية متميزة، وحضور قوي في جميع الفعاليات الثقافية، ويدين له بالفضل معظم كتاب القصة القصيرة في الثغر، وتعد (ندوة الاثنين) هي أقدم وأعرق ملتقى قصصي، إلى جانب اللقاء الأسبوعي الذي يعقده يوم الجمعة في منزله بمنطقة باكوس.

وكنت دوماً يوم الجمعة أشعر بالخرج، حين يصّر بكرم أولاد البلد، على تناول الجميع -رغم عظم عددهم- لمشروب الضيافة، والذي هو عادة الشاي، بينما يقدم لي الكركديه أو الليمون، وهو يردد: لازم تشرب حاجة.

تربي على يدي عبد الله هاشم عدة أجيال من المبدعين، الذين يقدرونه، ويحترمونه إلى حد الخشية، ويعملون له ألف حساب. فإذا اعترف عبد الله هاشم بموهبة أحدهم وأعلن أنه قاص، فقد حصل هذا المبدع على إجازة غالية، تمكنه من فتح الأبواب

الموصدة على مصراعها، في شتى الفعاليات الثقافية.
أما صاحب الحظ التعس الذي يغضب عليه، فويلٌ ثم ويل، ثم
ألف ويلٍ له، حيث توصل جميع الأبواب في وجهه.
وفي مدرسة عبد الله هاشم، تخرج عشرات المبدعين، الذين آمنوا به
واعتبروه ناظراً لمدرسة القصة في الإسكندرية، وظلت بصماته
واضحة في كل أعمالهم.

من رواد الندوة الأساسيين، الأدباء: سعيد بكر، مصطفى نصر، أحمد
حميدة، كمال عمارة، ومحمد عبد الوارث.

بخلاف العديد من الرواد من محبي السرد والقصة، منهم: حنان
سعيد، بشرى أبو شرار، فؤاد الحلوة، محمد خيرى حلمي، جميل متى،
فاطمة زقروق، مجيدة شاهين، سمير حكيم، عبد الفتاح مرسي، محمد
الفخراني، عبد النبي كراوية، نبيل شاهين، محمد عطية، محمد عباس،
وخالد السروجي، آمال الشاذلي، سهير شكري، محمد حمدي... إلخ.

مع ما يتوافد من كبار كتاب وصحفي القاهرة.
وأحيانا بعض الشعراء مثل: د. محمد زكريا عناني، صبري أبوعلم، جابر
بسيوني، ضياء طمان، أحمد مبارك، ومحمود عبد الصمد زكريا،
وأشرف دسوقي علي، والإعلامي الشاعر عاطف الحداد... إلخ.

اعتكفت على قصة قصيرة، كانت فكرتها تراودني بقوة، وقررت أن
أقدم فيها كل مهاراتي في الكتابة، سرداً ووصفاً وحواراً، واهتممت

بشخصياتها وصناعة حبكتها مع عمق فكرتها، كما اهتمت بطريقة بنائها والشكل الذي يتم طرحها به، استغرقت في كتابتها أكثر من ٦ أشهر.

أخيراً أنهيتها وتوجهت بها إلى ندوة القصة، وكلّ شغف لمعرفة أثرها وتقييم مستواها من أعضاء الندوة. وكانت المفاجأة، حين اتفق معظمهم على أن ما قرأت لا يمثل قصة على الإطلاق، وأن ما قدمته هو واحدة من أسوأ كتاباتي.

حتى أن عبد الله هاشم قال لي: يبدو أن فترة الامتحانات الدراسية التي كنت تخوضها وتوقفك عن الكتابة لفترة قد أثرت على مستواك، كنت وقتها قد فرغت لتوي من امتحانات السنة الأولى في كلية التجارة، تملكني إحباط كبير، وكدت أمزق أوراق القصة التي استهلكت من عمري ٦ شهور.

بعد عدة شهور أخبرني الكاتب عبد الفتاح مرسي: أن هناك مسابقة كبرى تجري في القصة القصيرة، وأن مجلة النصر هي من تنظمها، وهي تابعة للقطاع الثقافي بالقوات المسلحة المصرية.

وقال لي الكاتب عبد النبي كراوية إن هذه المسابقة يشارك بها الآلاف من الكتاب لعظم قيمتها وضخامة الجائزة الكبرى، الممنوحة للفائزين من الأول حتى العاشر في كافة فروع الأدب.

ولا أدري لماذا لم أهتم بكلماته، إلا أن عبد الفتاح مرسي ألح عليّ للاشتراك، وأن نجهز النسخ من القصص، ونرسلها بالبريد معاً.

تربطني بعبد الفتاح مرسي علاقة صداقة تمتد لسنوات طوال.
هو رجل نشيط، غزير الإنتاج، لا يكاد يمر عليه شهر، إلا ويفاجئ
الجميع بإصداره لأحد إبداعاته، مما أثار حفيظة الكثيرين، وهو حكااء
بالفطرة، لا يكاد يستلم زمام الحديث حتى يوشك ألا يتوقف.
رجل محب للحياة، متصالح مع نفسه يتعامل مع العالم كله ببساطة
وعفوية شديدة، يتميز بخفة ظل، ويتمتع بروح الدعابة، إلى حد أن
شبهه البعض بالمثل الكوميدي عبد الفتاح القصري، بجسده
الملتئ، وعينه بما بهما من حَوْل بسيط.
لا تستطيع قط أن تقدر سنّه الحقيقي، إذ يبدو أصغر بكثير من
عمره، فلا تكاد تلهح شيئاً في رأسه ولا يوجد في وجهه إلا البسيط
من التجاعيد.
عبد الفتاح كاتب موهوب، وحكااء بالفطرة، لديه العديد من
الحكايات والحواديت، والمغامرات التي لا تنفد أبداً.
كما نلتجتم بصفة دورية على مقهى بحبح، في سيدي بشر، وكنت
دائماً ما أستمّد منه روح العزيمة والإصرار على مواصلة الإبداع، بل
والقدرة على رؤية الجانب المشرق في أي شيء.
فهو يستطيع أن يبصر بصيص نور في وسط عتمة الدجى، ولا يستسلم
أبداً للأحزان.
هو لا يرى غير النصف الملتئ من الكوب، مهما تعرّض لنقد، أو
تقليل.
إذا مرّت به أيّ من الخطوب والأزمات، فإنك تجده سرعان ما

يتمالك ويستعيد زمام نفسه، مع ابتسامة عريضة لا تفارق شفثيه أبداً.

سافرنا معاً لمعظم محافظات القطر المصري، وحضرنا مؤتمرات، وندوات، تشاركنا في الطعام والمواصلات، وأخرجنا معاً العديد من الإصدارات، فكان هو يشرف على مجلة دفعات، بينما أصدر أنا مجلة ألوان إبداعية، مستغلاً خبراته العظيمة في الطباعة والنشر، مع مشاركة الكاتب عبد النبي كرواية، والشاعر أشرف دسوقي، والقاص محمد حمدي، ومجموعة من كتّاب الإسكندرية المميزين. أتذكر أنني كنت حين ألتقي به في بيته، كنا نتجادل كثيراً، ونحتد على بعضنا، وفي أحد المرات بعد أن تناولنا العشاء قمت بانتقاد رواية له، واتهمته بتقليل الحوار في بعض المناطق التي تستلزم البوح من خلال ضمير المخاطب، وهو في الوقت نفسه هاجمني، وفند لي بعض أعمالي المسرحية، حتى صحت به بغرور ونزق الشباب: أنا أفضل من يكتب الحوار في الثغر.

ولم يجبني وقتها، بل دعاني إلى تناول مشروب بارد، إلا أنني فوجئت بعد عدة أيام، في أحد الندوات وأمام جمع غفير، بمعاقبة الدكتور محمد زكريا عناني لي بعد أن قطع النقاش في الموضوع الأساسي، حين لمحني وسط الحضور قائلاً:
- أهلاً بأفضل من يكتب الحوار في الثغر.

لحظتها شعرت بالحرج الشديد، وتمنيت أن تبتلعني الأرض بعدما أدركت مدى حماقتي وجهلي، إلا أن د. زكريا واصل الحديث في

موضوع الندوة، الرئيس وكأن لم يحدث شيء.
دكتور زكريا هو رئيس اتحاد كتاب الإسكندرية على مدار عدة عقود، إلى حد أن داعبه مرة عبد الفتاح قائلا: أنت يا ريس مثل حسني مبارك، لا تتنازل عن السلطة أبداً، ستظل رئيساً لنا طالما الرئيس مبارك موجود.

ولكن حتى مبارك قد تم عزله من الحكم بثورة كبرى، وبقي د. زكريا، بما يتمتع به من دماثة الخلق، وثقافة موسوعية، متعددة في شتى أنواع الفنون، يندر أن تجتمع في شخصية واحدة، الأمر الذي جعله رمزاً مشرفاً يصعب تكراره.

وأمام إلحاح عبد الفتاح، وضغط عبد النبي كراوية، للاشتراك معهما في المسابقة الكبرى، لم أجد معي نسخاً ورقية جاهزة، سوى تلك القصة اللعينة التي لم تلق أي استحسان من رواد ندوة الاثنين. كنت واثقا من عدم فوزي، لاسيما وأن المتسابقين كان من بينهم كبار كتاب القصة في مصر والوطن العربي.

نسيت أمر المسابقة وسافرت إلى القاهرة مع أبي لقضاء بعض المصالح، وأثناء وجودي هناك اتصل بي الفنان الأديب محمد الفخراي.. قال لي: مبروك.

من المعروف عن الفخراي والشاعر أحمد مبارك خفة الظل، وأنهما يقومان بالكثير من (الدعابات) في كل من حولهما من المقربين.

سألت الفخراني: - لماذا تبارك لي؟!
أجابني: لقد فازت قصتك بالمركز الأول في المسابقة الكبرى.
قلت له وأنا شبه متيقن من أنه مقلب كبير يشاركه فيه الشاعر أحمد مبارك:

- ولكن النتيجة لم تعلن بعد، كفاك هدراً أستاذي الفاضل.
إلا أن الفخراني ضحك ثم قال:

- هل في مثل تلك الأمور يكون الهذر؟! ثم هل يعقل أن أكلف نفسي اتصالاً تليفونياً من الإسكندرية للقاهرة لمجرد الهذر؟! عموماً ستصدر المجلة بعد غد وبها اسمك.. أنت الأول، وعبد الفتاح حصل على المركز الثالث.. مبروك، هذه جائزة كبيرة القيمة مادياً، ومعنوياً، وأنت تستحقها.

ظلت غير مصدق للفخراني، حتى أتاني في اليوم الثاني اتصال من الأستاذ الكاتب المسرحي الكبير/ محمد سلهاوي، رئيس اتحاد كتاب مصر، ورئيس تحرير الأهرام إبدو: مبروك يا صديقي المبدع الجميل، قصتك "طريق النخيل" فازت في المسابقة الكبرى، وأنا بصدد نشر خبر عن فوزك في الأهرام، غداً، وأريد بعض بياناتك.
قصة طريق النخيل، تمت طباعتها ونشرها بعد ذلك في مجموعة قصصية تحمل نفس الاسم.

الأمر الغريب والذي لم أعرفه حتى الآن، هو كيف عرف الفخراني بالنتيجة قبل أن تعلن بعدة أيام!

١٤- الحريف

فنان بالفطرة.. يعشق محمد منير.. يحفظ معظم قصائد نزار.. خياله واسع وله قدرات لغوية وعقلية لم يستثمرها كلها حتى الآن.. كان أبي يوليه عناية خاصة، فهو يتعامل معه بحرص شديد ويخشى منه أو عليه من حماقة تصرفاته.. ولكن حين يصطدم به يحدث انفجار عظيم نخشى جميعاً عواقبه.. قبل انتهاء عامه الدراسي للثانوية العامة بأقل من شهر، أراد أبي أن يطمئن على مستواه الدراسي، وهنا حدث الكارثة. اكتشف أبي أن طارق لم يفتح حتى كتبه المدرسية، فهي نظيفة، جميلة، أوراقها تلتصق ببعضها وكأنها للتو خارجة من المطبعة الحكومية.

تلقى طارق علقه موت، وتمت حلقة شعر رأسه بشفرة موس الحلاقة، ومنعه من الخروج من البيت حتى يوم الامتحان، وحرمانه من جميع الدروس الخصوصية التي كادت تفلس أبي، بعدما أدرك أن طارق يستولي على المال المخصص لها ويدّعي أنه ذاهب لحضور الدرس، بينما هو يمارس هواية كرة القدم. وكانت النتيجة أن طارق نجح في الثانوية العامة بمجموع كبير والتحق بكلية مرموقة.

كل متعلقاتنا الخاصة؛ أنا، وأخي أحمد، وأبي، بل وأختي دينا، كانت حلالا بلالا له، فهي مال عام يحق له استغلاله في أي وقت. زجاجات البرفان وعلب كريم الشعر، والزيوت، والشامبو، بل

والملابس الداخلية، والساعات والكتب والمجلات وكل ما تطوله يده أو تهفو إليه نفسه، حتى مرطب البشرة وزبدة كاكو شفتي أخته كانا ضمن غنائمه.

حاولت يوماً أن أخفي عنه بعض متعلقاتي، والنتيجة أنني تفننت في اختراع مخبأ سري، سرعان ما نسيته واستطاع هو أن يصل إليه، حتى استهلك كل الكميات المخبأة به وحده وبكل أريحية وثقة.

استولى على المسجد القريب من بيتنا بعض الشباب ذوي اللحية الطويلة والجلباب القصير.

كانوا يستوقفون بعض المارة من سكان الشارع، الذين يلتمسون فيهم طيبة وصلاً، يطلبون منهم الانضمام إليهم للحضور في حلقاتهم الدراسية والقراءة الجماعية للقرآن والحديث النبوي الشريف، ومراجعة بعض كتب ابن تيمية، وسيد قطب.

ذهب طارق يوماً ليصلي، فما كان منه سوى أن تقدم جميع الصفوف، وقام بتأدية الأذان والإقامة، وعندما اقترب أحدهم منه نظر إليه شذراً فلم يجرؤ سوى على أن يفسح له مكانه ليقوم أيضاً بإمامة جميع الحضور.

أذن طارق وأقام الصلاة وصلى بالجميع إماماً بدون أن يتوضأ. لما سأله عن ذلك أخبرني أن الوقت لم يسعفه، ولم يكن يسمح لأي من هؤلاء الصبية بأن يصلي أو يؤذن للناس وهو موجود في المسجد.

كان جميع الشباب يخشونه ويتجنبون الصدام به، بل ويطيعونه في

كل ما يطلب دوغما مراجعة! ورغم صغر حجمه إلا أنه كان شجاعاً مغواراً لا يهاب أي فرد مهما كان يفوقه حجماً وقوة.

بياض وجهه الشديد المشرب بالحمرة، وشعره الأصفر الناعم، وزرقه عينيه جعلت جميع من في الشارع يلقبونه بكارتر، لشدة الشبه بينه وبين الرئيس الأمريكي الأسبق جيمي كارتر.

وكثيراً ما لمحت طارق وهو يجمع صبية الشارع في طابور كبير ثم يقوم بمعاقتهم فرداً فرداً، عن بعض الصغائر التي ارتكبوها دون علمه.

طارق يكتب الشعر والقصة، ولاعب عبقرى في كرة القدم وتنس الطاولة، حتى أن مدربي نادى الزمالك، والاتحاد الأولمبي، عرضوا عليه الانضمام إلى فريقهم الأول بعد أن شاهدوه صدفة على شاطئ البحر وهو يلعب الكرة بمهارة فائقة.

حينما يلعب طارق الكرة، كان يصطف الجميع في شرفات منازلهم، ويتجمع معظم أفراد الشارع لمشاهدته وهو يستعرض مهاراته النادرة في التحكم بالكرة، وقدراته على مراوغة فريق بأكمله، ثم إحرازه لأهداف غاية في الروعة.

بل إن جدي أحمد العزب، وجدتي ملك هانم، كانا يتركان ما بيديهما، ويستندان على حافة شرفة الفيلا ليشاهدا مهارات حفيدهما، مستمتعين بتلك الحالة من الإبهار والمتعة التي يصنعها طارق في شارع العزب.

للأسف طارق لم يعبأ بكل العروض التي انهالت عليه من أندية الإسكندرية والقاهرة! وظل مجرد لاعب شوارع حريف!

١٥- عم جمال

لم يكن عم جمال جارنا شخصية عادية، فهو وسيم، جذاب إلى حد كبير.

حتى أنني حسبته نجماً من نجوم السينما، ربما لاعتنائه المفرط بمظهره، فشعره الأسود الفاحم، دائماً لامع، وملابسه شديدة الأناقة، يفوح منها دوماً رائحة العطور الذكية، النفاذة. عادة هو يفتح معظم أزرار قميصه، فتبدو لنا سلسلة ذهبية كبيرة بين شعر صدره الغزير.

العمة نور، زوجة العم جمال، هي الأخرى وكأنها نجمة من نجوم السينما؛ فهي تشبه الفنانة هالة فاخر إلى حد كبير، بروحها المرحية وخفة ظلها وعينيها الخضراوين.

وفي شرفة منزلنا كثيراً ما كنت ألعب أنا، ووحيد ابنهما الذي يكبرني بثلاث سنوات فقط، إلا أنه كان يتعامل معي وكأنني مجرد طفل صغير تابع له، وهو الرجل الكبير العارف ببواطن الأمور.

لعم جمال زوجة أخرى لم أرها قط، إلا أنها استحوذت على العم جمال، فكان في معظم أوقاته عندها.

الأمر بالنسبة لي بات محيراً، خاصة حين ألح نظرات الحزن في عيني ووحيد صديقي، فأنا لا أعرف كيف يمكن للرجل أن يتزوج بامرأتين في وقت واحد!

العم جمال يمتلك سيارة صفراء صغيرة، نسمع صوتها العالي جميعاً

بمجرد ولوجه إلى شارعنا، وسرعان ما نبصر وحيداً وقد اندفع إليه مرتبياً في حضنه، ثم يأخذ منه بعضاً مما يأتي به معه من حلوى أو فاكهة، والتي يشمل بها معظم أطفال الشارع، وخاصة أنا، صديقه المقرب وتابعه الأمين.

في تلك اللحظة كنا نلحح ابتسامة مشرقة، وقد كست وجه العممة نور، التي تطل من شرفتها وعيناها تفضحانها بشوق ولهفة لا يخبوان أبداً، حتى أنني كنت كثيراً ما أتساءل، كيف للعم جمال أن يتزوج بأخرى ولديه امرأة جميلة، تحبه بكل هذا الشغف؟! إنها تكاد تكون عاشقة له، فبجرد طلته عليها تجعلها تنسى كل ما حولها، وتشعر وكأنها قد امتلكت الدنيا.

في إحدى جلسات العم جمال مع أبي في بيتنا، بدا شاردًا حزينا، إلا أنه فجأة ناداني، وعلى غير توقع قال لي: إياك يا بني أن تفعل مثلي. اكتست ملاحي بالدهشة ولم أنبس، إلا أنه استطرد فقال:
- إياك أن تتزوج بائنتين، هذه كارثة كبرى، ستجعلك دوماً حائراً ممزقاً بين بيتين، فلا استقرار، ولا راحة أبداً، بل شقاء وتعب دائم. نظرت إلى العم جمال في دهشة، إلا أنني تجرأت وسألته:
- وما الذي دفعك إلى فعل ذلك؟!

رجع عم جمال بظهره إلى الخلف قليلاً وكأنه يسترجع شريط ذكرياته ثم همس:

- العناد....

نعم يا بني، إنه العناد.

وصمت لبرهة ثم أردف:
تساجرت يوماً مع زوجتي، وحين اشتد بيننا الخلاف، ضربتها، ثم تطورت الأمور بيننا، فأحضرت أهلها الذين تعاملوا معي بعنف شديد، ضربوني ثم ألقوا بي خارج المنزل، ولم يهدأ لي بال حتى تزوجت بزوجتي الأخرى نكاحاً فيها، واعتبرت ذلك صفقة لها، ورداً لكرامتي، والحقيقة أن الصفقة كانت لي أنا، بل كانت أكبر حماقة قد ارتكبتها في حق نفسي! اكتشفت ذلك بعد أن عدت لنور زوجتي الأولى، وصرت زوجاً لاثنتين.
ولم أدري ماذا أقول للعم جمال الذي كادت الدموع تطفر من عينيه هما وحزنا.

إلا أنني همست في تأثر شديد:
- ربنا يعينك.

بعد مضي عدة سنوات، توفيت الزوجة الثانية للعم جمال، وكان قد أنجب منها تامر، الذي أضحي شديد الشبه بصديقي وحيد، أخيه من أبيه.

ولم يجد العم جمال أفضل من زوجته الأولى نور كي ترعاه، ولحق كانت العمة نور شديدة الطيبة والراقي مع تامر، وكأنه ابنها من دمها، فباتت لا تفرق في المعاملة بين وحيد وتامر، الذي سرعان ما اعتبرها أمّاً ثانية له.

هكذا هي العمة نور، كما عودتنا دائماً، طاقة من العطاء، والحنان الذي لا ينضب أبداً.

بعد عدة أسابيع سمعت بكاءً وصراخاً في بيت العم جمال، طرقت الباب، وحين فتحت لي العمة نور الباب، وجدت عابسة، حزينة على غير عادتها، ولما التفت، وجدت وحيد وتامر وقد غرقا في بكاء شديد!

سألت العمة نور: هل تشاجرا؟!
إلا أنها لم تجبني، وانصرفت عائدة إلى حجرتها وهي مشدوهة، حائرة.
سألت وحيد:

- ماذا بكما؟!

فأجابني وهو يحاول أن يكم بكاءه: الفرح اليوم.
سأله في دهشة:

- فرح من؟!

وهنا صرخ تامر في وجهي:

- فرح أبي، ابن ال... على زوجته الثالثة.

١٦- الألم

منذ سنوات بعيدة، قرأت قصة في إحدى الندوات، وكانت عن عادة الثأر في الصعيد بين صديقين أحدهما طبيب.

وأجمع الحاضرون على أنها قصة مسطحة، وأني كسكندري لم أعايش هذه العادات والتقاليد في الصعيد، لذلك جاءت القصة ضعيفة، نصحني الناقد عبد الله هاشم أن أتناول موضوعات حياتية لي فيها تجربة حقيقية، حتى تأتي ككأبائي السردية عميقة وصادقة.

بعد عدة أسابيع أعلنت وزارة الثقافة عن مسابقة في القصة، ولم يكن معي نص جاهز سوى هذا النص.

أخذه مني الكاتب/ محمد الفخراي، وسلّمه إلى مديرية الثقافة، بعد أن قدم الفخراي أيضاً نسخة لقصة له، بعد إلحاح من مديرية الثقافة، رغبة منهم في إثراء المسابقة بأعمال جيدة المستوى.

بعد مضي عدة أسابيع أخبرني الشاعر أحمد فراج، بحصولي على المركز الأول في القصة القصيرة، وكانت مفاجأة كبيرة بالنسبة لي، ولكن الأمر الآخر الذي أثارني بشدة هو ما علمته من الشاعر أحمد مبارك، الذي أخبرني بأن محمد الفخراي تنازل لي عن المركز الأول!

ذهبت إلى الفخراي في بيته، وبعد أن رحّب بي وغمرني بكرمه وروحه الأبوية التي اكتسبها على مدار سنوات عمره الثرية، بصفته كبيراً لعائلته، فبات كبيراً لكل أصدقائه ومحبيه.

الفخراي هو شعلة متوهجة من الفن والإبداع.

سألت الفخراي: لماذا فعلت ذلك؟ فنظر إليّ في جدية ثم قال:
- قصتك وقصتي حصلتا على نفس الدرجات التحكيمية، وأنت
قدمت عملاً جميلاً.
- ولكنك أحق مني بالمركز الأول فأنت أستاذنا، وتتعلم جميعاً منك،
بل إنك من قدّم قصتي في هذه المسابقة!
ابتسم الفخراي وهو يهمس:
- عندما قالوا لي إنهم في حيرة من أمرهم بين القصتين، وأيهما أحق
بالفوز، قلت لهم إن قصتك هي التي تستحق المركز الأول، فقط
امنحوا هذا الشاب تلك الجائزة فهو أولى بها مني، بل إن هذا يبعث
في داخلي كل مظاهر الفخر بصديقي الصغير.
القصة الفائزة كانت بعنوان الألم، وقد تم نشرها بعد ذلك ضمن
مجموعة قصص "طريق النخيل".

١٧- مجنون

إنه لا يفتأ يضعني في مواقف عجيبة بل وحرجة جداً.
هو يعتقد حتى الآن أنني عصاة والده، حتى بعد رحيل أبي
بسنوات، وبعد زواجه، لا زال يكنّ لي مشاعر داخلية سيئة.
طارق الذي ما انفك في صغره يغافلنا ويقفز من فوق جدار شرفة
المنزل لينطلق، غير عابئ بأي شيء.

يجث عن ماذا؟

يطارد ماذا؟

لا أحد يدرك حتى الآن!

حتى هو نفسه لم يكن ليعلم لماذا كان يفعل هذا؟!
أولربما هي نفسه، التي نتوق دوماً إلى التحليق في سماء الحرية.
دوماً يغافل أُمّي ويهرب منها إلى الشارع، وهو لم يتجاوز الثالثة من
عمره.

فعلها كثيراً، حتى أنه في إحدى المرات كان شبه عارٍ، فقط كان
يرتدي فائلة حمالات قصيرة، وجعل يجري في الشارع، بأقصى ما
لديه من سرعة، بجسده الممتلئ -آنذاك- وبشرته البيضاء المشربة
بجمرة، وشعره الأصفر يتطاير في الهواء، بينما تهتز مؤخرته العارية يمنة
ويسرة، وجميع من في الشارع يضحكون، ويتطلعون إليه في دهشة،
يحاولون مداعبته، يصيحون باسمه: كارتر.. كارتر.
وهو في انطلاقه، وغيه، لا يتوقف غير عابئ بهم.

حتى عندما أحكم أبي غلق الباب بالترباس والمفتاح، غافلنا جميعاً وقفز من الشرفة.

ولم يكن أحد مكلفاً بمطاردته وإعادته إلى البيت سوى أخيه الأكبر، الذي هو أنا.

كان عليّ مراقبته دائماً؛ لأصبح في نظره كالشرطي ثقيل الظل، أو المخبر (الفتان) الذي يشي بسوء فعله عند أبي، والذي يمثل في نظره رمزاً للسلطة الغاشمة، المقيدة للحريات.

طارق الذي أشعل لنا النيران يوماً في البيت وهو غير عابئ سوى بمتعة مشاهدة ملابسنا وهي تحترق في دولاب الملابس، وكاد يتسبب في كارثة للعمارة كلها.

طارق الذي كان يغافل جدتي فاطمة -أم أبي- بعد أن تفرغ من إعداد حلة المحشي، يقوم بالتبول لها فيها، وهي تنكر فعله، بل وتقسم أن هذا لم يحدث -رغم مشاهدتي أنا شخصياً له- وتضع حلة المحشي على الموقد لتتمام طهيها، وإطعامنا إياها، وكأن شيئاً لم يحدث، حتى لا يضيع تعبها هباء، عندما كبر طارق قليلاً كان يتشاجر (مع طوب الأرض) وكان لا يقدر عاقبة لفعله، أو حتى يدرك حجم خصمه أو مدى خطورته!

ومن أصعب المواقف التي واجهتها في شارعنا، يوم أتاني البيت مرسي صديق طارق صائحاً:

- أحمد وطارق يتعاركان مع عيال منصور تاجر المخدرات.
عندما وصلت إليهما كانت المفاجأة.

الشارع امتلاً عن بكرة أبيه، ونحميس ابن منصور ملقى على الأرض، وقد شج رأسه والدماء تنزف منه بغزارة، بينما طارق واقف وفي يده شومة كبيرة.

علمت أن ثمة مشادة قد حدثت بين نحميس وأخي أحمد، وكان على أثرها أن دفع نحميس أحمد في صدره دفعة قوية، ولم يرص طارق سوى أن يقتص لأخيه.

كان أخي أحمد طيباً، مسالماً لا يجيد العراك، على الرغم من أنه يفوق طارق قوة وحجماً، ومن المفارقات العجيبة أن طارق الذي لا أحد يقدر عليه في الشارع كله، كان لا يصصره سوى أحمد أخيه، في حين أن أحمد كان لا يجسر على مواجهة الغرباء، وكان طارق هو من يرد له اعتباره.

١٨- سيد قشطة

"صديقي ذلك الفاشل"، مهملًا كان في دراسته، دومًا يتعثّر في معظم المواد الدراسية.

صديقي عمرو هندي..

حياته مضطربة، وعلاقته بأبيه في معظم أحوالها عنيفة، فهو عادة لا يلقي منه إلا الإهانة، وكأنه عالة أو عار عليه.

حتى والدته كانت تقسو عليه كثيرًا، وما فتئت تقارن بينه وبين أخيه، المهندس سامي، الناجح، المحبوب من الجميع.

في شارعنا...

طفق معظمنا يسيء إليه ويسخر منه، بل جعل البعض يتخذة هزواً، ومدعاة للتندر، وخاصة أنه كان ضخم الجثة، لديه مؤخرة وكرش كبير.

حاول عمرو مرارًا أن يقيم علاقة مع الجنس الآخر، وحين أحب زمين جارتنا في الشارع، اكتشف بعد فترة قصيرة أنها قد اتخذته مطية لها ولأغراضها، كما أنها كانت تتسلى به وتعامل معه على أنه مهرج، يضحكها ويملاً وقت فراغها..

أليس هو سيد قشطة كما تسمع هي جميع من في الشارع وهم ينادونه بهذا الاسم العجيب؟ وهو بثرثرته وحكاياته الكثيرة، يعد أفضل وسيلة لها لمعرفة أخبارنا جميعاً، ولا سيما حسين جارنا ابن المقاول الثري، الذي كانت تهيم به شوقاً وهو غير عابئ بها.

عمرو فاشل، حتى في لعب كرة القدم، فكنا نجعله دائماً يقف كحارس مرمى مشترك للفريقين.

وحينما أصيب أحد لاعبي فريقنا، في إحدى المباريات المهمة في دوري الشوارع، واضطررنا للاستعانة به.

كان من نصيبه علة ساخنة، بعد أن تسبب لنا في هزيمة ساحقة. صديقي عمرو، أو سيد قشطة، اتحنى بي جانباً ذات يوم وقال لي وهو يبكي، إنه حزين جداً إلى درجة أنه يفكر في الانتحار، سألي:

- ماذا أفعل؟! وأنا لا أجيد عمل أي شيء، حتى اللعب فشلت فيه؟ ثم همس في حسرة:

- أنا إنسان عاجز، مجرد شخص ضعيف لا قيمة له، متعثر في دراستي، وعلاقتي مشوشة بكل من حولي، حتى أبي وأمي وأخواتي. المشكلة هي أنني أرتبك وأضطرب في فعل أبسط الأشياء، حتى هيتي، كما ترى هي فعلاً أقرب شياً إلى سيد قشطة. الناس معها حق في أن تطلق عليّ هذا اللقب.

نظرت إليه وابتسمت، وتذكرت حسين ابن المقاول، كان أول من أطلق عليه هذا اللقب، الذي سرعان ما ارتبط به، حتى أمه أضحت تناديه به.

وبالكاد أمسكت نفسي عن الضحك، إلا أنه نظر في عيني، وانفجر هو ضاحكاً، ولكن ضحكات مبلة بالدموع، أشفقت عليه، تطلعت إليه في جدية ثم همست: أنت مليونير، ولكنك لا تعلم. نظر إليّ في دهشة ثم ضحك، دون أن ينبس، فأردفت:

- كل واحد منا له حسابات كثيرة مهجورة في بنك الحياة، ولكنه يظل ماضياً في طريقه، لا يكاد يفكر في جدوى كل ما يفعله، وكأنه شيء صعب أو مستحيل، أن يتوقف الإنسان لبرهة ويتأمل كل ما حوله.

الشيء المحزن أن هناك لحظات مهمة في حياتنا، ولكنها تمرّ دون أن نستمتع بها، بل أحياناً حتى دون أن نشعر بها، والكارثة أننا لا ندرك قيمة الكثير من الأشياء والأشخاص إلا بعد فقدانهم، إذا التفتنا إلى بعض الأمور البسيطة في حسابات الحياة سنجد أن ثمة هبات كثيرة، قد أنعم الله بها علينا، وهي متاحة لنا ولكننا لا نستمتع بها! بل إننا نغرق في مساحات كبيرة من الحزن والاكتئاب، لا شيء سوى أننا لا نستخدم هذه الهبات، ولا نستمتع بها، لعل الحياة قد أخذتنا بكل ما بها من تناقضات.

أخذتنا بالصراع، والتنافس للوصول لأعلى المناصب وأعلى الدرجات، وأعلى الشهادات. قاطعني عمرو قائلاً:

- أنت تعلم أنني متوسط الذكاء، فليكن كلامك أكثر وضوحاً، قل لي ماذا تريد مني أن أفعل؟ قلت له:

- الحياة أكثر بساطة مما نظن، كن إيجابياً، تعرّف على نفسك، حدد أهدافك، اعرف ماذا تحب، ولا تعمل ما تكره، لا تلتفت إلى الناس ولا إلى آرائهم، فقط كن أنت.

كان هذا منذ عدة عقود، الآن هو رجل أعمال ناجح في بلاد العم سام.

عمرؤ أتى منذ عدة سنوات، ومعه زوجة جميلة، لبحث عني، وحين وجدني، شملته غاشية كبرى من سعادة.

لبرهة تداخل الأمر، وأرتج علي، وخاصة أن ملاحظة تغيرت كثيراً، ولم يعد سيد قشطة الذي أعرفه، بل صار شاباً وسيماً، أنيق الملابس، بهي الطلعة، حتى أنه بدا أصغر كثيراً من عمره الحقيقي.

فقط صوته هو الشيء الوحيد الذي لم يتغير. طلب مني أن أركب سيارته الفارهة، وأن أنصحه ماذا يفعل بعد أن عاد، فهو قد جاء ومعه ثروة كبيرة، وهو محمل بآمال، وأفكار ومشروعات كبرى يودّ تنفيذها على أرض الوطن.

تحدث معي، ورأى حالي وجادلني كثيراً مثلاً كان معتاداً أن يفعل، سألني عن أهلي، سألني عن الأصحاب والجيران، وزملاء المدرسة وأصدقاء الطفولة، سألني عن نزمين حبيبته القديمة وزميلنا حسين الذي فضله عليه، ولم ينسَ اليوم الذي ضربه فيه حسين علقه ساخنة يوم تسبب لنا في هزيمة ساحقة في مباراة لكرة القدم. كان يود أن يرى الجميع، فهو مشتاق إلى الناس والشوارع، مشتاق حتى لرمل وبحر الإسكندرية.

مشتاق للبيوت العتيقة الدافئة، وجلساتنا الصيفية القديمة، ولعبنا للكرة على رمال الشاطئ، ومباريات تنس الطاولة التي كانت تأخذنا أحياناً للصباح الباكر.

أعلمته أن حسين قد تزوج من نرمين، ولكنه طلقها بعد عدة سنوات، بعدما خسر جل أمواله ولم يتبق له من مصدر دخل سوى المتحصل من إيجار زهيد من سكان أحد العقارات القديمة التي كان قد ورثها عن أبيه.

وحين انتهت من إخباره عن حال كل واحد منا، نظر إليّ في ذهول!

شرد طويلا ولم ينبس، وبدا وكأنه قد أصيب بحالة غريبة. علمت بعد عدة أيام أنه عاد إلى أمريكا، رجع إليها بعد أن تنازل لأخيه المهندس سامي عن نصيبه في الشقة التي ورثاها عن والدهما، وتخلص من كل شيء يربطه بهذا الوطن.

صديقي...

سيد قشطة، سافر، ولم يعد ثانية قط إلى يومنا هذا.

١٩- بنت عمتي

ارتسمت علامات الغضب على وجه أبي، وهو يصيح في ثورة عارمة:
كيف يجرو هذا الأحمق على ضرب ابنة أختي؟!
وقبل أن يجلس على أريكته المفضلة، عاود الاتصال ثانية بعمتي، ثم
قال لها في حدة: ابنتك لا تغادر بيتك، لا شأن لها بهذا السفه ولا
بأبنائه، قولي لها أن تتركهم له، وعليه هو أن يتولى أمر رعايتهم
وخدمتهم، هي منذ الساعة ليست بزوجة له، وعليه أن يستعد
لإجراءات الطلاق.

وبعد مضي عدة أسابيع، اشتاقت ابنة عمتي إلى بيتها وعيالها، وكان
زوجها قد جاءها عدة مرات معذراً، ينشد الصلح، وفي آخر مرة،
تحلق جميع أبنائها حولها وهم يرجونها الصلح عن أبيهم، وقد تعلق
صغيرهم في رقبتها وهو يبكي، إلا أنها كانت لا تجرو على أي فعل
بدون إذن أبي.

أبي الذي صاح بعمتي في الهاتف، حين اتصلت به:

- لو عادت معه، سوف أقطع رقبتك ورقبتها، ورقبة أبيها.

جاءت أمي إليه على عجل، حاولت تهدئته:

- دع البنت تعود إلى بيتها، أطفالها سيكون، إنهم في حالة يرثى لها.

- محال أن يحدث هذا، لقد أهان كرامتنا جميعاً، إنه ولد قليل
الأدب.

- بعد زواج دام أكثر من عشر سنوات، تقول هذا الكلام!

- كنا نحسبه محترماً، فهو سليل عائلة عريقة.
وفي حمية غضب أبي قرر أن يتوجه فوراً إلى (المحلة) مسقط رأسه
ومقر عائلته الكبيرة.

طلب من أحمد أن يجهز له -على عجل- السيارة، وأن يتأكد من
سلامة الإطارات وقدرتها على تحمل مشاق الطريق الزراعي ومطباته
العديدة، وبناء على طلب أمي ذهبت أنا وشقيقي أحمد معه، على
أمل أن نتمكن من تهدئته.

إلا أن أبي رفض أن يتخلى عن قيادة السيارة لأي منا، تحت ادعاء
أنه لا يثق في قدراتنا على القيادة، والحقيقة هي تعلقه الشديد
بسيارته، فقد كنت ألمحه خلسة في بعض الأحيان وهو يخاطبها، فمرة
يزجر غاضباً من سوء فعلها معه، ومرات كثيرة يشكرها على مجهودها
معه، الأمر الذي بلغ به أن يربت بحنو بالغ فوق صاج رفرفها،
وكأنها أنثى رقيقة.

الأمر الغريب أنني كنت أشعر بالسيارة تتجاوب معه فعلاً، في
فرحه أو غضبه!

حين وصلنا إلى مشارف المحلة، تجمع حولنا العديد من أبناء البلد،
يرحبون بأبي ويلتفون حوله، وكأنه أحد قيادات البلد الكبرى،
وأحمد يمضي خلفه، حاملاً شنطته، التي سرعان ما امتلأت بأوراق
ومستندات كل العاطلين عن العمل، والذين جاؤوا لأبي ثقة في
مركزه الكبير، وبأنه حتماً سيزكيهم للالتحاق بأية وظيفة مناسبة.
وفي طريقنا إلى بيت عمتي، كانت الأعداد تتزايد، وأبي يتسم للجميع

ويقدم لنا كل من حوله.
الأمر المدهش أنه على الرغم من مضي عدة سنوات على آخر زيارة
لبلدته، إلا أنه لا زال يعرف جميع عائلاتها، بل ويتذكر أسماء
أفرادها، وخاصة بكاراتها.

التف أصدقاء أبي القدامى حولنا، ليقبلوا من حدة تدافع الناس
نحونا.

كان كل واحد منهم يصرّ على دعوتنا إلى بيته، والقيام بواجب
الضيافة، مما أوقع أبي في حيرة شديدة، ولكنه كان سعيداً فرحاً، كما
لم أره منذ سنوات طويلة.

أخيراً جلسنا جميعاً في أحد المقاهي القريبة من منزل عمتي.
ولم تمض فترة طويلة حتى أقبل علينا مجموعة من لاعبي كرة القدم
لفريق بلدية المحلة، ليعلنوا ترحيبهم بأبي نجم الفريق القديم.
واقترحوا عليه إقامة مباراة استعراضية بينهم، وقدامى الفريق، أمام
هذا الطوفان من البشر، سحبت نفسي، وأحمد، وتركاه بين أصدقائه،
وتوجهنا إلى بيت عمتي.

كانت ابنة عمتي شديدة التوتر، وأبناؤها حولها ييكون، ويستعطفونها
كي تعود معهم.

جعل زوج عمتي يدخن سجائره، في عصبية بالغة، بينما عمتي لا
زالت غاضبة من موقف أبي وإصراره على تصعيد الأمور.
قالت:

- أين محي؟

- في المقهى.
- هل هذا وقته؟
- حاولي بنفسك أن تحضره.
- وهنا همس زوج ابنة عمتي الذي ظهر فجأة وكأنه كان محتبئاً في إحدى الحجرات:
- لا داعي، سنذهب نحن إليه.
- كان شكل زوج ابنة عمتي عجيباً! وجهه متورم يمتلئ بالجروح، بينما لفائف الشاش الطبي الغارق في الميكروكروم الأحمر حول رأسه وكف يده.
- على الرغم من جدية الموقف، إلا أن أحمد لم يستطع أن يتمالك نفسه من الضحك، الأمر الذي جعلني أنخرط أنا الآخر في نوبة ضحك هستيرية، جعلت الجميع ينظرون إلينا في استياء، إلا أنهم سرعان ما شاركونا ضحكائنا.
- ابنة عمتي، بعد أن احتد بينها وزوجها النقاش واختلافها معه بسبب تذييره الشديد، وضياح ماله على توافه الأمور، نشبت بينهما مشاجرة عنيفة، ولأنها تتصف بالعصبية المفرطة، فهي لم تدرِ بنفسها إلا بعد أن قذفت بوابور الجاز في وجهه وهو مشتعل، حتى كادت النيران تفتك به، لولا تدخل الجيران.
- بمجرد أن لمح أبي زوج ابنة أخته مقبلاً عليه، وهو مرتبط بالشاش والميكروكروم، حتى هب من مكانه واقفاً، أسرع أحمد إليه هامساً ببضعة كلمات، وبعد أن بهت للحظات، همس في أذن زوج ابنة

عمتي:

- خذ مراتك وروح.

ثم احتضنه بقوة قائلا بصوت مرتفع: إياك أن تفعل ذلك ثانية.
الآن أضحت مشكلتنا الكبرى، هي كيفية إخراج أبي من هذا
التجمع الصاخب وإقناعه بالعودة إلى الإسكندرية.

٢٠- الموظف

داخل المربع المرسوم بعناية، كان لحجرة المكتب أربعة حوائط، لونها باهت وطبقات طلاؤها متسلخة من فعل الرطوبة، والمطر المنهمر الذي لا يتوقف عادة في شتاء الثغر، وخاصة في المنطقة الموجود بها مكنتي الجديد في المنطقة الحرة، الكائنة بالطريق الصحراوي، ثمة مكتب حديدي قديم قد علاه الصدأ، ومقعد خشبي قد تأكلت أطرافه من فرط القدم، كنت أنا جالساً عليه، بينما الأوراق والملفات متناثرة بغير عناية في أرجاء المكان، وفي مواجهتي حائط زجاجي، يفصلني عن باقي الشركات التي اتخذت بعض الحجرات كمقرات وفروع صغيرة لها تمثلها في هذا المكان النائي، بعد أن شغلتها بمجموعة من المكاتب، المتهالكة التي يقبع عليها بعض الموظفين.

ربما كانوا هم أيضاً من المغضوب عليهم، أو في بدايات حياتهم الوظيفية، مما جعلهم يقبلون هذا العزل شبه الإجباري.

في منتصف سقف حجرتي، مروحة ضخمة، معقود نهايتها في سيخ صدئ مدلى من السقف، وبينما كانت أجزاءها المعدنية، تلف في حركة دائرية لا تتوقف أبداً، جعلت أفكر.

بين عشية وضحاها صرت وحيداً معزولاً عن العالم كله، يفصلني عن وسط البلد عشرات الكيلو مترات، تذكرت زملائي في فرع الشركة في المنشية، عادة هم يعملون منذ الصباح الباكر، حتى وقت متأخر من الليل، ربما لا ينهضون من على مكاتبهم إلا لدخول دورة المياه

أولتناول بعض الطعام.
كنت أحس ألماً شديداً، وتغمر نفسي حالة رهيبة من الوحشة والضياء، خائف وحزين، وأشعر بظلم شديد، رغم أنني لم أفعل سوى الصواب، فأنا كنت نموذجاً للموظف النشط، المتفاني في عمله.

أحسست، بمرارة في حلقي حين أدركت أن لا أحد من كل الذين كانوا حولي يشعر بي، رغم مناصرتي الدائمة لهم، ورفع الكثير من المظالم عنهم، ووقوفني أمام كبار موظفي الشركة لأجلهم مما عرضني للكثير من المتاعب.

تداعت في ذهني أحداث الأمس، وهم جميعاً ينظرون إليّ في خسة وتشقّ، حتى أصدقائي منهم، كنت ألح في عيونهم نظرة غريبة تحمل بقايا غيرة قديمة، لما وصلت إليه بسرعة من تقدم في عملي، مما منحني نفوذاً وسلطة عليهم جميعاً، كنت أشبه بضابط عظيم، قد نزعوا عنه رتبته فجأة، ليصبح مجرد واحد من صغار الجنود، حتى ريم زميلتي، تلك التي ظننت أنني يجمعني بها، علاقة خاصة، لم تكلف نفسها حتى عناء مواساتي.

هل نسيت ريم، اليوم الذي كادت فيه أن تفقد وظيفتها، حين أضاعت أحد ملفات الشركة المهمة؟! وكيف أنني تعرضت وقتها لمواقف شديدة الحرج، لولا حسن تصرفي، وسرعة استكمالي لكل ما فقد منها من أوراق مهمة؟

عندما جاء مجدي إلى مكنتي، وكان يتبعه السيد/ سامي عسكر مدير

عام الفرع، كنت قد فرغت من جمع كل متعلقاتي الشخصية ووضعتها في صندوق صغير، إلا أن سامي عسكر صاح بي في قسوة:
- طالما جمعت كل أشياءك، لماذا لا زلت تجلس على هذا المكتب؟! ثم دفعني في ظهري دفعة قوية، كدت على إثرها أن أسقط على الأرض.

التفت إليه، وأنا مشدوه حائر، تمالكت أعصابي بصعوبة شديدة، ورفعت صندوقي في هدوء، مغادرا المكتب الذي شغلته لمدة تتجاوز الأربع سنوات.

كانت نظرات الجميع تحاصرني، وكنت كمن يتم جلده علنا في ميدان عام، أشعر بالخلج والألم، ولا أكاد حتى أرفع وجهي أمام أي أحد من موظفي الشركة، الذين تجددوا في مكانهم، كانوا يريدون التخلص مني في أسرع وقت ممكن، التخلص من وجودي الذي أصبح يشكل كابوساً وخطراً داهماً لا أستطيع تحديداً أن أعرف مدى درجته!
كل زملاء العمل جاؤوا لينهثوا مرؤوسي الذي أصبح رئيساً مباشراً لي ولهم، أخرج مجدي سيجارته الأمريكية الفاخرة، ثم أشعلها ببطء وهو ينظر إليّ في لا مبالاة، ثم ألقى إليّ ببعض الأوراق التي كنت قد نسيتها على مكتبه، ثم صاح بي:
- ألزمت واقفاً؟!

انطلقت إلى خارج الشركة لا ألوي على شيء، كنت كمن يتأرجح على حافة الهاوية، ولم أدر بنفسني إلا وأنا ملقى على سريري.
عندما استيقظت، وجدت أبي جالساً في مواجهتي، قال لي:

- تجاوزت الثلاثين من العمر، ولم تدّخر أي مال، وحالك الآن في العمل أسوأ مما كنت، ماذا تنتظر؟! أليس من المفروض أن يكون لك زوجة ومنزل، إنك لا تساهم في نفقات البيت من طعام وإيجار، حتى ملابسك أنا الذي أدفع ثمنها.

همست في ألم :

وماذا في يدي أن أفعل؟ إنني لم أقصر يوماً في أي شيء..
صاح أبي:

- لتعلم أنني غير مسئول عنك، من الآن فصاعد، عليك أن تدبر كل نفقاتك بنفسك.

لم تلتفت ريم إلي حتى لتلقي تحية الصباح، كانت مستغرقة مع مجدي في حديث طويل من الضحك والدعابات.

ريم أضحت تنكشف أمامي بطريقة مذهلة، كمن يسقط من علو شاهق إلى قاع بئر سخيفة، وبّت أراها وكأنها امرأة أخرى غير تلك التي كنت أعرفها من قبل، كنت دائماً أقوم بتأجيل قرار الارتباط بها، ريثما أنتهي من دراستي العليا، تلك الدراسة التي تعادل الماجستير، والتي حسبت أنها سترفعي إلى منصب أفضل.

طفق كل موظفي الشركة ينكشفون أمامي وكأنني أراهم لأول مرة عرايا كما ولدتهم أمهاتهم، حتى حمدي الساعي، رفض أن يحضر لي فنجان القهوة، متعللاً بأن تعليمات السيد مدير الفرع: أن يتناول

الموظفون مشروباتهم في ميعاد محدد لذلك، وفي حجرة البوفيه.
تلك التعليمات التي لم تكن تطبق عليّ من قبل، أضحي حمدي فجأة
لا يطبقها سوى علي وحدي.
حتى صديقي أحمد موسى الذي يشغل منصباً كبيراً في جهاز
التسويق، أغلق محموله وكأنه لا يريد أن يكلف نفسه عناء محادثتي.

رن جرس الهاتف فجأة، وأنا غارق في ذكرياتي، وأتاني على غير توقع
صوت مجدي الذي كان أشبه بالهمس وكأنه يخشى أن يستمع إليه
أحد، وقبل أن أصبح في وجهه عاجلني قائلاً:
- سأنتظرك بالمقهى بعد انتهاء مواعيد العمل.
ولم ينتظر إجابتي بل أغلق هاتفه بسرعة!
ترى ماذا يريد مني؟!

ولماذا هو يطلب مقابلي؟!
هل نسي ما فعله بي اليوم وأمس؟ هل نسي غطرسته وغروره
المفاجئ، وتعمده أن يتعالى عليّ أمام الجميع؟!
لم تكن بي رغبة للقاءه أو حتى مجرد رؤية وجهه، ولكن الفضول
الشديد هو ما كان يعتمل بداخلي، لمعرفة ما سوف يقوله لي.

—ماذا تريد؟!
—أرجو منك أن تتفهم موقعي، ولا تغضب مني.

- لقد أخذت مكثي ووظيفتي وترقيتي.
- هذه ليست إلا أوامر أقوم بتنفيذها.
- وماذا تريد مني الآن؟!
- أريدك أن تدرك حساسية موقعي، فأنا لا شأن لي بكل ما حدث لك.
- كان يمكنك أن ترفض.
- أنت تعلم أن هذا لن يغير في موقفك أي شيء، بل كانوا سيأتون بشخص آخر، ليشغل نفس المنصب، وكانوا سيقومون بتوقيع أشد الجزاء عليّ، فكل ما أفعله الآن لأجل فقط تجنب أذاهم.
- هل هذا هو سبب دعوتك لي؟!
- أرجوك لا تغضب مني، أنا أظهار أمام الجميع بكرهي لك، ومعاملتك بقسوة حتى لا يسيئوا الظن بي، وأنت أدري الناس بمقدار شرهم وبطشهم، أيرضيك أن يكون مصيري هو الشارع؟!

٢١- الجبن سيد الأخلاق

موقف مجدي، محير، ويبعث على التساؤل! هل هو فعلاً يريد إظهار نفسه أمام الجميع بأنه من أنصار سامي عسكري؟! بخلاف ما قد فعلته أنا، الذي أظهرته في أسوأ حال. ولكن هل يصل الجبن بإنسان إلى هذا المنحى الخطير؟! أنا أدرك أن مجدي يستطيع أن يستمر في سلوكه معي، دون أن يخبرني أو يسوق لي أي أسباب. فأنا الآن ليس بوسعي أن أقف أمامه، وأرد له إهاناته. هل من الممكن أن يكون صادقاً، وأن هذه فعلاً مجرد تمثيلية يقوم بها، حتى يضمن لنفسه مكاناً مستقراً وراثياً يسد به جوع زوجته وابنه؟! و

تطلعت إلى مجدي طويلاً، ثم نهضت فجأة، دون أن أوضح أي موقف محدد تجاهه، نظر إليّ مجدي في انتباه، كنت قد شرعت بالمغادرة، دون حتى أن ألفت إليه، وهو يصيح منادياً عليّ عدة مرات، ولكنني واصلت انصرافي، بينما كان هو قد تجدد في مكانه.

كنت في المنطقة الحرة شبه معزول عن العالم، وكان من ضمن البروتوكولات التي تتبع إمعاناً في تعذيبي هو قيامي أولاً بالتوجه إلى المنشية للتوقيع في دفاتر الحضور، ثم التحرك من المنشية إلى المنطقة

الحرّة، وعند انتهاء اليوم في الساعة الثانية ظهراً، كان عليّ أن أتصل أولاً بمدير الشؤون الإدارية قبل تحركي، من التليفون الأرضي الذي لا يجمع الحرارة بسهولة، إذ إنه قد يستغرق عدة محاولات قد تستنفد أكثر من ساعة، ولو قُت بالاتصال مبكراً قبل الثانية ظهراً كان عليّ أن أعيد المحاولة حتى لو كان الفارق بضع دقائق، ثم أعود إلى المنشية للتوقيع مرة أخرى، وعادة ما كنت أتحرك للمغادرة بعد أن تكون المنطقة قد فرغت من كل الموظفين، ولم يكن أمامي فاصل كي أخرج إلى الطريق الرئيسي إلا قطعاً كبيراً من الكلاب الضالة، مختلفة الأحجام، كنت أمر مخترقاً تجمعها وأنا في غاية الهلع، وهي كانت قد تعودت على اللجوء إلى المبنى الرئيسي، لتحتمي به من الأمطار الغزيرة، والبرد القارص خاصة في فصل الشتاء.

قال لي صديقي مدير التسويق، أحمد موسى :

- ربنا معك، لا أحد يستطيع أن ينتصر على سامي عسكر أبداً.
نظرت إليه في ضيق، ثم قلت له:

- هكذا هو حال الدنيا، الآن تتخلى عني، ولا تكلف نفسك حتى عناء الدفاع عني، وأنت بمكانتك الكبرى في الشركة.
وانصرفت غاضباً من أمامه، عازماً على ألا أحدثه مرة أخرى في أي شيء.

حتى عادل يوسف رئيس الحسابات، قال لي بعد أن قابلني صدفة في بوفيه الشركة:

- لا أحد يناطح الكبار.

نظرت إلى عادل في دهشة، ولم أنبس، وقتها لم تكن تجمعني بعادل
صلة صداقة حقيقية، بل مجرد زمالة عادية، وربما اعتبرته أيضاً أحد
رجال سامي عسكر المقربين، لذا كنت أتعامل معه دائماً بحرص
شديد، إلا أنني نظرت إليه في هدوء ثم قلت له:
- أنا لم أناطح أحداً، أنا كنت أقوم فقط بوظيفتي.
ابتسم عادل ابتسامة خفيفة، ثم ربت على كتفي وانصرف في هدوء.

٢٢- أشياء لا تباع ولا تشتري

إذا جلست مع نفسك، ربما لا يمكنك أن تحاكم سوى أشباح، ربما قد تظن أنك تعمل المنطق، والعقل.
قد تحسب نفسك مخلوقاً مثالياً، خالياً من العيوب والنقائص، وأن الآخر هو الشيطان.

مجرد مجموعات تتحرك حولك من التركيبات النفسية والخلقية المعقدة، فهل واجهت نفسك يوماً بحقيقتها؟! هل وقفت يوماً أمام مرآة الحقيقة، وسألت نفسك: من يكون هذا الشخص؟!

هل تحسب نفسك حقاً ستري ملاكاً، أو بطلاً أسطورياً؟! أم أنك هنا لن تحاكم سوى وهم قد صنعته نفسك، ولكن من منظور آخر، وربما كان كل هذا طرْحاً خيالياً؟!
تقف في موقف المشاهد، أو المشارك، أو حتى المنسحب.

تارة بين الخير والشر، الحق والباطل، وتارة أخرى لا تعرف حتى أن تحدد، أن تبصر.. أن ترى! قد تضع منك الاتجاهات، وقد تفسد بوصلتك!

فهل أدركت يوماً أن كل شيء نسبي، وأن الحق والعدل والخير، هي أشياء لم تكن أبداً مطلقة؟!

لم يكن يلح على فكري طيلة عملي في المنطقة الحرة، سوى كل من تخلى، كل من باع، كل من غدر وخان!

صرت في وضع غاية في الصعوبة، وكنت أتمسك بكل ما تبقى لدي من بقايا صبر، أو تحمل، على أن أثبت للجميع أنني على حق.

أُنني قد ظُلمت ظلماً جائراً.
فهل ينتصر الظلم وينهزم العدل؟!
هل يدوم الباطل ويموت الحق؟!
أم أنها كلمات، لا تُباع ولا تُشترى، مجرد أشياء لا قيمة لها؟!
ويبقى فقط شيء وحيد، ألا وهو منطق البقاء للأقوى.

قابليني أحمد موسى مدير التسويق، أثناء عودتي من المنطقة الحرة،
كنت في قمة التعب واليأس، قال لي: يجب أن تترك الشركة وتقدم
استقالتك.

نظرت إليه في ضيق، ثم قلت:
- أنت يا صديقي الذي تقول هذا؟!
- ما تتعرض له من تعب ومضايقات وإهانات، يفوق أي احتمال،
وأنا يعز علي رؤيتك هكذا.
- إذا مشيت الآن، أكون بهذا قد حققت رغبة سامي عسكر،
ويكون هو قد انتصر عليّ، أترضى لي بهذه الهزيمة النكراء؟! أنا لن
أنسحب أبداً من أرض المعركة.
- نحن لسنا في حرب يا صديقي.
- بل هي حرب حقيقية بكل ما تحمله الكلمة من معنى.
- وإذا قلت لك إن سامي عسكر قد انتصر عليك فعلياً وقُضي الأمر.
- أرجوك اصمت.

- المشكلة أنك ترفض الأمر الواقع، وتخيّل أنك ستسحب من الميدان، ولا تود أن تعترف أنك قد هزمت، يا عزيزي سامي عسكر لا يستطيع أحد أن يقف أمامه.
- أتريدني أن أقبّل فكرة أن ينتصر الخطأ على الصواب؟
- لن أقول لك عن أي شيء تتحدّث، ولكنني سأقولها لك، نعم يحدث كثيراً، قد تكون مرحلة، وربما يوماً ما يظهر الصواب .
- وإذا لم يظهر؟!
- كلنا في النهاية سنحاسب على أفعالنا.
- بالتأكيد.
- أنا أريدك أن تتعامل مع الأمر بمنطقية، الآن أنت تتفق على المواصلات والبنزين أكثر من راتبك الذي انخفض ربما لأقل من النصف، تبذل مجهوداً مضاعفاً، وتمارس عملاً لا يتناسب مع خبرتك أو مؤهلاتك، وتعرض لمضايقات، بل وربما إهانات متعمدة من الصغير قبل الكبير، فما الجدوى من بقائك هكذا، قل لي أي ميزة، أو حتى أمل يبقيك في هذا العذاب، يا صديقي غادر الشركة بكرامتك، وابحث عن فرصة عمل أخرى، مهما كانت ظروفها أعتقد ستكون أكرم لك.

فكرة الانسحاب!!

هل هي الحل؟!

أن أغلق هذه الصفحة وأفتح صفحة جديدة.

هكذا وبمتهى البساطة؟!

تذكرت الكثير من الزملاء والزميلات الذين غادروا الشركة بفرمان من سامي عسكر.

منهم من أُجبر على الاستقالة، ومنهم من أُقيل.

بل إن بعضهم كاد يُزج به في السجن.. وقد كانوا جميعاً على غير هوى سامي عسكر، الذي كان يتحكم في فرع الشركة وكأنه ملك خاص له، فهو الأمر الحاكم الذي لا تُرد له كلمة.. الأمر الذي بلغ به من القوة أن يخشاه مدير عام الشركة، بل وحتى العضو المنتدب، وأعضاء مجلس إدارة الشركة، وملاكها.

لم يكن أي واحد فيهم يمتلك قوة ونفوذ سامي عسكر، الذي سخر الجميع لتحقيق مصالحه الشخصية، بل ونزواته، ورغباته حتى الخاصة.. الخاصة جداً جداً.

ترى أي قوة تلك التي لديه؟ وأي جبروت هذا الذي يمتلكه؟ ومن أي مصدر شيطاني يستمد كل هذه القدرات الجهنمية؟!

٢٣- طواحين الهواء

وانزويت على نفسي، انحنيت ثم تقوقعت، جالساً في سيارتي الحمراء الصغيرة، لأول مرة في المقعد المجاور للسائق، الذي هو أخي طارق. تحرك أخي بي صوب مقر عملي، ورغم يقيني بأنه سائق متهور، إلا أنني لم أجد بداً من الاستعانة به، وخاصة أنني لا أستطيع التحكم في أعصابي، بل إنني لا أكاد أقوى على الوقوف على قدمي.

حالة غريبة من الإحباط والعجز تملكني فور استيقاظي من النوم، حرب رهيبية اكتشفت أنني في أتونها، حرب في مواجهة طواغيت الفساد والنفاق والمال.

مجرد موظف صغير، في بدء حياته العملية، في مواجهة مجموعة من الديناصورات المتوحشة.

صرت منفياً في ضواحي الإسكندرية، وكانت المعركة غير المتكافئة قد أوشكت على الانتهاء بالقضاء عليّ أنا، وكأني أناضل في حرب عبثية أو أناطح طواحين الهواء.

العجيب أنني لم أكن أنشد سوى البقاء حياً مع بعض الستر. حياً في هدوء، دون الوقوع في أي أخطاء أو التورط في أية تجاوزات، كان هذا غاية مطلبي، إلا أنني وجدتهم بغتة قد طرحوني أرضاً، ثم وضعوا عليّ ثوب المحارب، تاركين في يدي سيفاً ورمحاً، كما أعطوني درعاً من خشب.

التفت أخي طارق إليّ هامساً: - ها نحن قد وصلنا إلى مقر عملك.

٢٤- إناء مكسور

وستمضي بين ضروب، وضروب بين نار، ونور، وقلب مكسور،
سيلاحقك ذئاب الطريق بعواء طويل، وستعبر فوق أجساد من
رماد وتراب وصلصال مهين، ولن ترى على البعد سوى وحوشٍ
ضارية وضباع وبقايا أسود تنادي أياماً كنت فيها.. وكانت هي
فيك.

تلفعك الطرقات بضجيج، وبرد، وريح عاتية.
ستتركك أشياءك، وتبعثر وأنت في طريقك، تتعثر وتحاول أن تلم
شظايا نفسك.

تعبث بأصابعك في زجاج مكسور، ويسيل دمك المهدور، وتمد يدك
مجروحة لكل من ولّوا، لكل من ضاعوا في تيه الزمن المسحور،
وتصرخ ولا يسمعك أحد، تجوع وتظماً ولا تجد إلا بقايا عظم في
إناء لكلب مكسور.

تنحني لترفع الإناء، يكسر لك الكلب عن أنيابه.

ترتد، وترتجف منك روحك، يهتز الكلب.

يرنو إليك، بعين الدهشة، يسألك:

- أين قومك؟!

أين ناسك؟!

وفي أسى تقول: - رحلوا جميعاً، ولم يعد في مدينتي سوى ذئاب،
وضباع، وبقايا أسود.

يتراجع القلب، ريثما تهدأ منك الدموع.
يترك لك الماء، والعظم، وبقايا من نفسك في إثناء مكسور.

٢٥- سامي عسكر

رغم جل ما فعله بي، وتعرضي على يديه لإهانة بالغة، ولظلم كبير كاد يفقدني الثقة في كل من حولي، وجعل جميع الأشياء تهتز وتتأرجح أمامي بشدة، حتى كاد يعصف بنفسي ذاتها ويفقدني إيماني بالثواب التي ألقت نفسي عليها.

رغمًا عن كل هذا، إلا أنني لم أستطع أبدًا أن أكرهه! بل ربما - وللغربة الشديدة- كنت معجبًا مأخوذًا به!

شخصيته تكاد تكون أسطورية، فأنا لم أقابل مثله قط طيلة حياتي كلها، ذلك الرجل يجمع عددًا من الصفات التي يستحيل تواجدها في شخص واحد.

ذو كاريزما جبارة، حلو الكلام، عذب الحديث، يمتلك هيبة وقوة شخصية تجعلك لا تقدر إلا على الإصغاء والانقياد فورًا لأي إيماء أو حركة من عينيه، وتجذ نفسك في حضوره مسلوب العقل واللب، تحاول في كل الأحوال أن ترضيه وتقرب منه، علّك تحوز في النهاية سعادة كبرى برضائه عنك.

أنيق دائمًا، يرتدي بدلة على أحدث طراز، ويضع العطور الباريسية النفاذة، ملامحه حادة، تعبيرات وجهه قوية، كأنه أحد مديعي التلفاز المحنكين، جاهز دائمًا بردود أفعال سريعة تبدو غاية في الالتقائية، ولكنها مدروسة ومحسوبة بعناية وحرفية نادرة، وكأنه درّب نفسه عليها في كبرى معاهد التمثيل العالمية.

ذكاء حاد وقدرة على قراءة ما في أعماق محدثه، بينما أنت لا تستطيع أبداً أن تعرف إلا القدر الذي يسمح لك بمعرفته.

يملك مهارات إدارية وحسابية متعددة، وفائقة السرعة، تناطح أعظم أجهزة الكمبيوتر.

لم يكن يشغله سوى تحقيق أغراضه، مستخدماً كل الوسائل، الشريفة منها وغير الشريفة، مما جعله يحقق بإدارته للفرع أعلى الأرقام متجاوزاً كل الأهداف المحددة له (بجادجت) ومتفوقاً عليها. الأمر الذي أجبر إدارة الشركة على أن تمنحه عدة مرات جائزة أفضل مدير فرع، مع مكافأة مالية ضخمة.

وإلى جانب ذلك كانت مكاسبه المستترة بعناية فائقة، له هو وحده، تكاد تتجاوز أرباح الفرع كله.

طرقه جهنمية، وكيده يتفوق على كيد الشيطان نفسه، مع حرص يدرس في أعظم أجهزة المخابرات، فإذا أراد أن يقتل أحد خصومه، فإنه يستطيع، وبدون أن يريق قطرة دم، أو يترك أي مستند، أو أثر يدينه.

فلا تدهش إذا شاهدته ليلاً وهو يبكي بحرارة بينما يتقبل العزاء في ضحيته بمنتهى الجدية والالتزام، عجيب هذا الرجل! فلا يمكن لأحد أن يراه، إلا وينهر به، ويرتبط به بعلاقة جاذبة غريبة.

وهو رغم قوة شخصيته، وثقافته العالية المتنوعة، إلا أنه يتمتع بخفة ظل وقدرات دبلوماسية تجعله أول المجاملين، فلا يمكن لأحد أبداً أن يتهمه بالتقصير في عزاء أو تهنئة لصديق، أو زميل.

تواريخ ميلاد معارفه، وأقاربه، هو يعرفها ويحفظها ظهراً عن قلب.
يعشق ثلاثة أشياء إلى حد الجنون؛ النساء، والمال، والسلطة، ولا
يمل أبداً من محاولة تحقيق معجزة الجمع بينها.
ليس هناك حد لعلاقاته الغرامية، وحبّه للنساء، ومعرفته بأدق
تفاصيلهن، وأسرارهن، وغرامياتهن السابقة والحالية، وحالهن مع
أزواجهن، ربما يعرف حتى مواعيدهن الحميمة، ومن تمر بظروفها
الشهرية الدورية وعدد أيام كل واحدة منهن، حتى تنضبط، وتعود
إلى طبيعتها.

مهارة أخرى، مذهلة، تضاف إلى مهاراته.
فلا أكاد أجد واحدة من جميلات الشركة إلا وأبغت بكونه على
صلة ما بها، تلك الصلة التي تدرج تحت أي شكل من أنواع
العلاقات.

فهو يعشق شتى العلاقات مع النساء الفاتنات، حتى شبه العذرية
منها.

لديه شبكة عنكبوتية، تحيطه علماً بأدق تفاصيل الفرع، حتى ما دار
من حديث بين سعاة الفرع، قد يفاجئك يوماً ويحببك على سؤال
ربما سألته لنفسك وأنت وحدك في دورة مياه الشركة، وتجاوز الأمر
ذلك إلى خارج نطاق الفرع، لحد أنه بات عليماً بتفاصيل حياة كل
واحد من موظفيه، وهل هو الآن في بيته أم في الخارج في نزهة أو
لقاء عائلي أو حتى عاطفي.

وعلى الرغم من كل ذلك، فهو لا يترك السبحة من يده، فحين

تدخل له كي يراجع أي مستند تجده يوقع على الورقة بيد ويسبح باليد الأخرى.

لا يفوته فرض من فروض الصلاة، ويصوم الاثنين والخميس من كل أسبوع، ويتصدق دائماً بأموال كثيرة، فهو كما ألفناه أول المجاملين، يكون أيضاً أول المبادرين بفعل الخيرات والمساعدة. فهل أخذ سامي عسكر كل نصيبه من الدنيا وما فيها من شهوات ومغريات، فأراد أيضاً أن يمتلك نصيبه من الآخرة؟!

٢٦- كريم

كريم أنسي، شاب صغير، طموح، حديث التخرج، عُيِّن بالشركة كمسئول عن التسويق لمكتبنا بالعامرية ولترويج حركة البيع، وبخاصة مع الشركات والمنشآت الكائنة بالمنطقة الحرة، وقد ساعده في مهمته والده، أنسي بك، بحكم منصبه وعلاقاته المتعددة، فهو واحد من رجال الأعمال الكبار، ويمتلك عدداً من المشروعات الصناعية والتجارية، ولم تمض بضعة أيام إلا وتوطدت صلتى به، حيث إنني لم أبخل عليه قط، كعادتي دائماً مع كل المحيطين بي من زملاء، بمشورة أو دعم فني، وخاصة عند لقائه بأحد العملاء الكبار، الأمر الذي جعله يتمسك بحضورى معه في معظم اجتماعاته أو حتى مقابلاته الشخصية.

مما أثمر عن تفوق كبير له، ونجاح باهر لفرع المنطقة الذي ارتفعت أسهمه كثيراً، وصار محل ثقة العديد من العملاء.

كان كريم ولداً طيباً، خفيف الظل، يتمتع بخلق وذوق راق، يجيد عدة لغات بحكم تخرجه من مدارس سان مارك، ودراسته الجامعية في إحدى الدول الأوروبية.

وهو رغم نشأته المرفهة، وعائلته الأرستقراطية التي ينتمي إليها، إلا أنه كان يتعامل بدبلوماسية شديدة، وتواضع جم حتى مع سعاة الشركة، وبحكم تحركاته المتعددة بين القاهرة والإسكندرية بفرعيها، استطاع بسرعة تكوين شبكة علاقات بمعظم الموظفين، فكانت تصل

إليه أخبار الشركة أحيانا كثيرة، قبل سامي عسكر نفسه، وما له من نفوذ.

حتى جاء كريم يوماً وأخبرني أنه قد تواتر إليه أن قيادات الشركة قد عزمت على إجراء حركة ترقية كبرى لمعظم موظفيها، وعندما سألته عن أصل معلوماته، أخبرني أن مصدر الخبر هو القاهرة، ولكن لا أحد يعلم تفاصيل دقيقة عن هذا الموضوع، وكأنه سر حربي خطير.

بعد أن انصرف كريم، استبد بي الفضول، تذكرت صديقي بكر الدميري، الذي يعمل بالمركز الرئيسي بالقاهرة، كمساعد لمدير عام المراجعة، السيدة: سلوى محرز.

اتصلت به ضاحكاً، وعلى سبيل المداعبة، قلت له ساخراً: طبعاً أنا اسمي أول واحد في حركة الترقية تلك؟! وجاءت كلماته سريعة، صادمة:

- كشف ترقية!!

يا صاحبي، إنت اسمك مكتوب وحده في مذكرة أخرى، على مكتب رئيس مجلس الإدارة.

زميلي بكر الدميري...

هو مثال للشخص الجاد، صعيدي النشأة، حاد الطباع، سريع الانفعال، لا يعرف الهزر، ولا الدعابة.

سألته بعد برهة من الصمت، وقد تسربت الريبة إلى نفسي:

- ماذا تقول؟! اسمي أنا في مذكرة ووحدي؟!!

سحب بكر نفساً عميقاً، ثم قال في أسي: قرار فصلك تم إعداده،
وينتظر فقط تصديق وتوقيع رئيس مجلس الإدارة عليه.
دارت الدنيا بي، وسقطت سماعة الهاتف من يدي.
كانت بالنسبة لي مفاجأة غير متوقعة على الإطلاق.
وجعلت أفكر، وأتساءل في جنون: ماذا حدث؟! وما الذي قد فعلته
أنا حتى يتم فصلي؟

إنني قابع في مكتبي، لا أقوم سوى بمهام عملي، على أكل وجهه،
ويشهد على هذا ما تحقق من أرقام مبيعات لم يحققها أحد غيري من
قبل، أعمل في صمت وهدوء كما الراهب في المحراب، دونما أي
احتكاك بأحد، حتى أصدقائي في فرع المنشية، جميعهم، قد قطعت
صلتي بهم، أو بمعنى أكثر صدقاً، هم الذين كانوا يتجاهلونني، خوفاً
على لقمة عيشهم، وبطش عسكر بهم، وكأني كما الكلب الأجرب
الذي يفرون من أمامه بمجرد ظهوره بينهم، صرخت بلا صوت:
- ألا يكفي سامي عسكر ما أنا فيه من مهانة وظلم؟!

ما هذا الرجل؟!

أليس هناك حد لجبروته وظلمه؟!

حتى ريم نفسها كانت قد اتخذت مني موقفاً غريباً، فهي لم تعد
تجيب على هاتفي، ووصل الأمر بها إلى حد تجاهلي التام، فهي كلما
صادفتني في فناء الشركة بالمنشية، جعلت تظاهر بعدم رؤيتها لي.
ولأنني حينئذ كنت متعباً، ومجهداً، وحزيناً، ولأنني صرت وحيداً،
ضائعاً، كما الغريق الذي يتعلق بقشة لنجاته في بحر عاصف دجي

الظلمات... ولأنني لم أتقبل فكرة أن تأتيني الطعنة حتى من أقرب الناس إلى قلبي الغض الصغير، الذي لم يعد يتحمل المزيد من الطعنات...

لأنني كل هذا...

التمست لها ألف عذر، وقلت لنفسي أخادعها وأنا في الحقيقة، أرفق بفؤادي:

- بالتأكيد هي مضطرة على سلوكها معي، مثلها مثل باقي الموظفين، حرصاً منها على سمعتها، وعدم إثارة أي مشكلة مع عسكر وعصابته، فهي مجرد موظفة صغيرة لا قبل لها بهم.

وتعلقت بجبل الود الواهي، حتى عصر اليوم، وبينما كنت متجهاً إلى دورة المياه بفرع المنشية كي أعدل من هندامي وأزيل ما علق بي من تراب الطريق الصحراوي، قبل مغادرتي الشركة، وصادف خروج ريم من دورة مياه السيدات، ولما لم يكن أحد سوانا، أوقفها بيدي المرتعشة، وقلبي يخفق بشدة، وهي تحاول أن تمرق جانبي، وكأنها لم ترني.

- ريم.. لماذا لا تجيبين على هاتفي؟ نظرت إليّ في قلق ثم قالت:

- أعتقد أنه ليس ثمة داعٍ لقيام أي حوار بيننا.

ثم دفعت يدي بقوة، وهمت بالانصراف.

شعرت بانقباض شديد في صدري، إلا أنني تماكنت نفسي

بصعوبة، وقلت: تحادثيني وكأنني شخص غريب عنك!!

- هذه هي الحقيقة، منذ متى كنت قريباً؟

بصعوبة بالغة، حبست دمعة ساخنة في عيني، إلا أنها أحرقت أنفي،
وأشعلت قلبي، همست:

- وكل الذي كان.....؟!!

- لا يوجد أي شيء بيني وبينك، أكثر من علاقة الزمالة، وحتى
هذه قد انتهت بذهابك إلى فرع آخر، فأنت في الواقع، لم تعد زميلا
لي.

- ماذا تقولين؟! ما كل هذه القسوة؟!... انا أعرف أنك تخشين
سامي، ولكن لا يوجد أحد معنا الآن.

- ومن قال لك إنني أخاف من عسكر أو غيره؟!
ثم أردفت في حدة:

- أرجوك دعني أنصرف.

لعت الدنيا، والناس، وكل من فيها، بعد أن تأكدت أن لا أمان
ولا عهد لأحد.

هل الآخر هو المجيم؟!!

الكل تخلي... الكل باع.

الكل خان وقبض الثمن.

٢٧- بقايا دخان

وستبصر أنك يوماً كنت تطرق كل الأبواب تهفو لرائحة عطري،
وبقايا دخان، وستفتح كل الأدراج وكل خزائن الإنس والجان،
تبحث في قصاصات من ورق وحروف، من كلمات صدق أو بهتان،
وستفتش حتى في طعامي أو بقايا لقهوة في فنجان، وستسأل أين
الإنسان، حتى يأتيك عراف الأزمان، سيحدثك عني، سيمنحك
صورة لن تعرفها وحقيقة لم تبصرها.

سيعطيك زهرة وقلماً، ومداداً من بحر الأيام، وسيخبرك أنك ما
كنت يوماً وحدك، ولكنك كنت تصارع وحشا وتفجر بركاناً،
وسيمنحك كتاباً مكتوب فيه أنني كنت يوماً في كل مكان.

٢٨ - مجدي

مجدي الذي كنت أعتبره بمثابة أخي الأصغر، يقف في مواجهتي
ويمنعني من دخول فرع المنشية.

نظرت إليه في دهشة ثم قلت له: - أنت يا مجدي!

تطلع مجدي إليّ باستعلاء شديد ثم قال:

- إذا لم تغادر الفرع الآن سأضربك.

قلت في ألم:

- بسرعة هكذا تنقل الأخبار، يبدو أنك قد علمت بقرار فصلي

الموضوع على مكتب رئيس مجلس الإدارة؟! عموماً أنا لا زلت

موظفا وزميلا لكم حتى هذه اللحظة.

إلا أن مجدي نظر إليّ بمنتهى العدائية ثم صاح بي:

- امشي من هنا يا....

وعلى حين غرة أمسك بقميصي من ناحية الصدر، محاولاً أن

يضريني. كنت مدهوشاً مذهولاً، نظرت إليه في عينيه بقوة، وشملتني

حالة رهيبة من الأسى، لم أنبس بكلمة، ولكن كانت عيناى تنطقان

بآلاف الكلمات:

- أنا من تقول له يا...!

أنا يا مجدي من تمسك بقيصه بهذه الطريقة المهينة، وتحاول ضربه؟!!

عُين مجدي أول الأمر في قسم الحسابات تحت رئاسة عادل يوسف، الذي سرعان ما أعلن استيائه منه، وأنه لا يصلح للعمل، بكثرة أخطائه، وضعف معلوماته، وصعوبة استيعابه للتعليم.

يومها، تدخلت في الحديث الذي سمعته صدفة، وأنا أمرّ أمام مكتب مدير الإدارة الفنية، سمير غطاس، قلت لعادل يوسف:

- إذا نقلت هذا الكلام إلى سامي عسكر فسيقوم بالاستغناء عنه فوراً، وستكون سبباً في قطع عيشه.

نظر إليّ عادل في دهشة واضطراب، حين أدرك أنني قد سمعت كلماته وهو يتحدث مع سمير، فالتفت إليّ مخرجاً، إلا أنه أردف:

- لا تحلني ما لا طاقة لي به، أنا لا أحب أبداً أن أكون سبباً في قطع عيش أي إنسان، ولكن ما العمل مع شخصية بليدة مثل مجدي؟! أنت تعلم أن طبيعة شغلنا في الحسابات لا تحمل الخطأ، وفي النهاية أنا الذي أتحمل المسؤولية فوق رأسي.

قلت: - حاول معه ثانية.

قال: - صدقني حاولت كثيراً، ولكن أخطأه كارثية، ومتعددة، وليس من الصواب أن يكون معي موظف بهذه العقلية المتواضعة، حتى مظهره وطريقة كلامه، كل شيء فيه خطأ.

قلت: - تقصد أنه مهمل؟!!

قال: - في الحقيقة أنا لم اصادف موظفاً بكل هذه الصفات السيئة من قبل.

صمت عادل يوسف قليلاً، ثم صاح بي:

- لو أنت في مكاني كنت ستبلغ سامي عسكر فوراً.
عادل رئيس الحسابات، شديد الاعتداد بنفسه يهتم بمظهره كثيراً، يتحدث بحساب ويتكلم بحساب، حتى أن الموظفين كن يتحدث كثيراً عن تناسق ملابسه وأحذيته مرتفعة الثمن اللامعة، والتي تنفق في ألوانها مع لون الجوارب، والحزام، وكرافته السنويه دائماً.
عادل نظيف أنيق طوال الوقت وكأنه أحد نجوم السينما، ولم لا؟ وقد تعلم في فيكتوريا كوليدج، وهي نفس المدرسة التي تخرج فيها الممثل العالمي عمر الشريف، والمملك حسين ملك الأردن، فأنت حين تتحدث معه تشعر وكأنك تتحدث مع مسئول كبير في وزارة الخارجية، على عكس مجدي تماماً ذلك الشاب الطويل مفتول العضلات ابن غيط العنب أحد الأحياء الشعبية بالإسكندرية، والذي تأثر كثيراً بكل ما حوله من عادات وتقاليد، حتى طريقته في الحديث، ومفرداته العامية، في الحقيقة هي صادمة لشخص مثل عادل الذي تربى ونشأ في حي لوران، حيث جاور قصور وفيلات عائلات الإسكندرية العريقة.

قلت لعادل:

- امنحني فقط عدة أيام، وسأحل لك هذه المشكلة دونما أن تكون سبباً في قطع عيشه.
نظر عادل إليّ في تعجب ثم انصرف على وعد منه بعدم شكوى مجدي لسامي عسكر.
بعد أن عاد عادل لمكتبه، قلت لسمير غطاس مدير الإدارة الفنية:

- حضرتك قلت لي إننا يلزمنا موظف إضافي نظراً لزيادة حجم العمل؟!

صاح بي سمير:

- إياك أن تكون تقصد الاستعانة بمجدي!

قلت: - ولم لا؟!

قال في إحراج:

- ألم تسمع عادل رئيس الحسابات، وما قاله عنه؟! إنه موظف مهمل غبي، هل تريد أن تجلب لنا بلوة؟! كفانا من البلاوي التي تمتلئ بها الإدارة.

قلت في رفق:

- هذا رجاء، ألا تريد أن تعززني في هذا الطلب؟!

نظر سمير غطاس إليّ في ضيق ثم قال:

- أوافقك ولكن بشرط.

قلت: - أي شرط؟!

قال: - ستكون أنت المسؤول عن متابعته وتعليمه، ومراجعة كل عمله، وأي خطأ يقع فيه ستتحمل أنت وزره، بل ستوقع على أي مستند يأتيه به.

توقع سمير أنه هكذا قد أوقعني في حرج، وأنني سأرفض حماية نفسي من أي مسؤولية، أو تجنباً لأي مشكلات قد يحدثها مجدي، نكون جميعاً في غنى عنها، إلا أنني على غير توقعه، وافقت، وأكدت لسمير غطاس أنني مسئول أمام الجميع عن هذا القرار.

ومن هذه اللحظة، أصبح مجدي تحت رعايتي بالكامل. علمته أصول العمل، وأصول الحديث مع الآخرين، حتى زميلاتنا من الجنس الآخر، حذرتهن من مغبة افتعال أي مشكلة معه، ووصل الأمر أنني كنت أخرج معه لشراء ملابسه، وحين أتى بسيارة، كان قد ورثها عن والده، لم أتركه حتى أتقن قيادتها. مجدي بات لا يفعل أي شيء، دون أن يرجع إليّ ويستشيرني فيه، أضحي ملازماً لي طوال الوقت حتى بعد انصرافنا من العمل، فكان يذهب معي إلى فيلا العزب.

تعرفّ على أهلي وأصدقائي، وصار لا يتركني إلا في ساعة متأخرة من الليل، وهو نفسه قد أعلن للجميع أنني لست رئيسه في العمل بل أخاه الأكبر.

يوماً دعاني لزيارته في بيته، والتعرف على زوجته وابنه، ووالدته التي تسكن معه، وهي سيدة بسيطة طيبة، رحبت بي وقدمت لي طعاماً شهيماً، بعدما أبدت شكرها وامتنانها على كل ما فعلته مع ابنها، وذكرت لي أنها دائماً ما تدعو لي في صلاتها، بعدما أنقذت ابنها الذي كان مهدداً بضياغ مستقبله.

وانتحت زوجته صباح بي جانباً بينما كان هو في دورة المياه، وطلبت مني أن أجعله يترقب بها قليلاً، بخاصة أنه لا يستمع لكلام أي أحد سواي، فهي قد تعبت كثيراً من إهماله لابنه، ومشاجراته، ومشاحاناته وانتقاداته التي لا تنتهي.

استطاع مجدي أن يغير من نفسه كثيراً، أتقن عمله بسرعة وعدل من

سلوكياته ومظهره، وطريقة حديثه، حتى بات مثالا للموظف النموذجي، بل صار يجيد الحديث بلباقة ورفق أبناء الطبقة العليا، الأمر الذي أثار دهشة عادل يوسف نفسه، بعدما شاهد هذا التحول الكبير الذي حدث لمروسته السابق.

حينما لمح مجدي صديقي أحمد موسى وهو قادم، ترك قيصي من يده، ثم انصرف من أمامي بسرعة، نظر أحمد إليّ في ضيق، ولم ينبس، قلت له بعد أن انحدرت دمعة صغيرة من عيني:

- مجدي كان يودّ أن يضربني حتى يثبت ولاءه لسامي عسكرو، وخاصة بعدما علم أنني قد انتهيت.

قال لي أحمد في أسي:

- اذهب الآن يا صديقي، غادر المكان.

قلت: - هل علمت أن سامي عسكرو يريد فصلي؟

قال في هدوء: - كلنا كنا نعلم، منذ عدة أيام.

صحت في دهشة:

- كلكم تعلمون، وأنا آخر من يعلم، لماذا لم تخبرني إذن؟

- قلت لك من قبل ارحل وقدم استقالتك بكرامتك، ولكنك لم تنصت إليّ!

٢٩- عادل يوسف

خرجت إلى الشارع، ولم أستطع أن أتحرك بسيارتي الصغيرة.
أدرت مفتاح المحرك، وشعرت فجأة بأن عظامي كلها قد تكسرت،
وأن مفاصلي تفككت، أحسست باختناق شديد، فغادرت العربة.
وقفت في الهواء الطلق، وقبل أن تخور مني قواي جلست على
الرصيف المواجه للبحر، ومددت قدمي أمامي، وجعلت أفكر.
ظلمتني حيرة كثيفة.

ثمة أشياء كثيرة قد ضاعت مني.

أين ذهب العالم الوردي الجميل؟

أين راح هذا الفجر الآتي دائماً بمسحة أمل، ويوم مشرق جديد؟!
هل مات بغتة كل الناس الطيبين الذين يظهرون لنا فجأة ويربتون على
قلوبنا، ويزيحون عنا وعشاء الطريق؟! ذلك البحر الممتد أمامي دوماً،
كان هو الباعث لأهازيج الأمل ووهج الحياة، ماذا حدث له؟!
وتلك الشمس كيف أضحت باردة، وقد كانت تسطع دوماً في
نهارات الشتاء القارص فتحيله إلى دفء لذيذ؟!

ترى هل مات ذلك الطفل البريء الذي كان يضحك ويلعب
لاهيأً، وهو يشاهد الساحر الطيب الذي يظهر فجأة ويصلح كل ما
فعله الأشرار؟!

الطفل الذي كان يرافق أبا زيد الهلالي، والزيني بركات، وعلي
الزبيق، وكل أبطال الحكايات القديمة، في رحلة دفاعهم عن الحق،

ومواجهة الباطل؟
 تلك الأشياء أين ذهبت؟!
 هؤلاء الناس الذين كنت أحسب أنني أعرفهم، أين هم؟!
 كيف ضاعوا؟!
 كيف تخلوا عني، وتركوني أحمل كل هذه الآلام والأحزان،
 وأمضي وحدي؟!
 حتماً سأجلس هناك وحيداً، في هذا الركن القصي البعيد.
 لعل أنزوي، وأموت رويداً رويداً، مثل هذه الزهرة الذابلة، التي
 تمزقت على الأسفلت، تحت عجلات عربات الطريق المارقة أمامي،
 في سرعة هائلة.
 طيلة عمري أستمد طاقتي من قوى خفية عظيمة تعينني على مسيرتي
 وبقائي.
 لماذا تخلت عني الآن؟! هل خانتني هي الأخرى؟!
 هل آن لي أن أنزع عن نفسي هذا الوجه الذي لفظني، وأرتدي
 قناعاً آخر؟!
 ولكنه ربما يكون هو أيضاً غريباً عني! كم حاولت أن أتقن اللعبة،
 أن أبقى، أن أستمرو. أن أحياء.. فقط أحياء!
 بلا خوف.. بلا قلق.. بلا ألم.. بلا مرارة في الحلق تمتص رحيق
 الروح، وتعصر جنبات القلب عصراً.
 للشرة قوة، وهيبة وجلال، فهل للخير نفس الأثر في نفوس البشر؟ أم
 أنه مجرد مخلوق ضعيف واهٍ، لا يحيا إلا في عقول الواهمين؟!

- لا زلت تبحث عن الحقيقة، حتى وأنت في عمق المأساة؟! ولا تكاد تبرز نفس مبادئك.

شعرت بيد تربت على ظهري برفق، رفعت وجهي، وجدت عادل يوسف أمامي وقد أوقف سيارته على جانب الطريق. أمسك بذراعي ورفعني لأعلى كي أنهض.

- قم معي الآن، الناس كلها تشاهدك وأنت جالس على الأسفلت، لا يصح هذا.

- لا يهمني أحد.

جذبني صوب سيارته، أقعدني إلى جواره، ثم تحرك. سألته: - إلى أين؟

- سأعيدك إلى بيتك، لا تقلق على سيارتك.

- لماذا تهتم بأمرى؟!

- للزمالة حقوق وواجبات.

- ومن منكم قد رعى هذه الحقوق؟!

- أرجوك، لا تغضب مني، أنا ليس بيني وبينك أي ضغينة، أو خلاف شخصي، ولكن أنت الذي فعلت هذا بنفسك.

- وماذا قد فعلت؟! ما هو الخطأ الذي قد اقترفته حتى يحدث لي كل هذا؟!

- لقد عادت الكبار، ونحن يا صديقي أصغر بكثير منهم.

- أتوقع منك أكثر من هذا الكلام فأنت.....

ولم أكل كلماتي، إلا أنه واصل:

- تقصد أنني واحد من رجال سامي عسكري، وأحد المقربين منه؟
نظرت إليه في دهشة، ولم أنبس، إلا أنه استطرد فقال:
- إذا قلت لك إنني أكثر شخص يكره سامي عسكري، هل ستصدقني؟!
- بالتأكيد لا طبعاً، كيف لي أن أصدقك وأنت بمثابة ذراع
الأيمن؟!

- يا عزيزي كلنا نكره سامي عسكري، ولكننا نتجنب الصدام به.
- تنافقون، وتخطئون، وتفعلون كل ما يأمركم به، وتخالفون كل
الأعراف والقواعد السوية، حتى تتجنبوا معاداتكم له، لمجرد تحقيق
رغباته، يا لها من حجة واهية.

- اهدأ قليلاً، ولا تتسرع فتهمني ظلماً بأنني قد خالفت ضميري أو
أخلاقي، أنا لم أشارك عسكري في عمل مشين، ولم أساعده في أي شيء
خطأً، وأتحدى أن تجد في عملي ما يؤخذ علي.
- لأنك تعلمت من عسكري جيداً، كيف لا توقع على أي مستند
يمكن أن يدينك، لقد اكتسبت من أستاذك الحرص الشديد،
فصرت مثله داهية، ماكراً، واسع الحيلة.

نظر عادل يوسف إلي، ولم يغضب من كلماتي بل ضحك، ثم قال لي:
سأحك الله، أنا أعرف عن عسكري أكثر مما تعرفه أنت بكثير.
- بالتأكيد، ولكنك من المستحيل أن تفشي أسرار.
- هذه ليست أخلاقي.

- على الأقل قل لي لماذا يريد عسكري فضلي؟!
صمت عادل لبرهة، بعد أن تجهمت ملاحه، ثم قال:

- أنت تقوم بالإساءة إلينا جميعاً، ونعتمد تعطيل العمل في فرع المنطقة الحرة، بل وتدعي أن الشركة فاشلة وتنقل للعملاء صورة مشينة عن العاملين، وتقنعهم أن الإدارة تمارس النصب عليهم، مما يجعلهم يتجهون إلى فروع الشركات الأخرى التي حولك ولدى أصدقائك من الموظفين في الكيانات المنافسة، وهذا قد حدث بمجرد أن صدر قرار بنقلك للمنطقة، فجعلت تسب وتلعن الجميع حتى رئيس مجلس الإدارة وكل كبار الشركة أمام العملاء والموظفين والناس جميعاً.

نظرت إلى عادل في دهشة، ثم قلت له: ما هذا الكلام الذي تقوله؟ هل أنت مصدق أنني قد فعلت هذا؟ ألم تر بنفسك وأنت رئيس الحسابات حجم الأرقام والنجاح الذي تحقق في فرع المنطقة؟! - هذا ليس كلامي، بل كلام عسكرك، وهو ما نقله إلى رئيس مجلس الإدارة بنفسه.

- وهل صدقه رئيس مجلس الإدارة؟! - يقولون إنه سأل سمير غطاس مدير الإدارة الفنية، وقال له نفس الكلام.

- سمير غطاس عديم الشخصية، وأكبر منافق في الشركة. - وصديقك المقرب، أحمد موسى؟! - نظرت إليه في دهشة، ولم أستطع أن أنبس، إلا أنه استطرد فقال: - شهد على صدق هذا الكلام صاحبك وحبيبك أحمد موسى، مدير إدارة التسويق، وكل زملائك أقروا صحة ما ذكر.

- كلهم!
- تقريباً.
- أنا لا أستوعب ما تقوله!
- هل تريد أن يصدقك أحد، أنت وحدك، ويكذب جميع الموظفين؟!
- كما قد وصلنا إلى جوار فيلا العزب في شارعنا، فأوقف عادل سيارته، وقبل أن أهمّ بالانصراف والدنيا تدور، استوقفني قائلاً:
- انتظر.
- ماذا تريد مني بعد كل ما قلت؟
- هناك شيء أريد أن أحدثك عنه.
- تكلم.
- لا شأن لك بريم.
- ماذا؟!
- إنها على علاقة بأحمد موسى.
- صحت به:
- إنه متزوج، ولديه أطفال، أنا أعرف زوجته، إنها امرأة رائعة،
- فماذا يريد هو منها؟!
- أعتقد أنك أولى بهذا السؤال، اسأل نفسك ماذا تريد أنت من فتاة لا تريدك؟!
- الآن هي التي لا تريدني؟!

٣٠ - خائف

خائف...

من الزوايا والأركان...

من الريبة المتعطفة في ثنايا الفلق.. خائف...

من الناس... من الجماد.. من الحيوان، من الماء، والشجر، من
الهواء المشحون بأنفاس القلق.

خائف من الحظ وسوء الحظ، من جبن يلاطف الخوف، وشبح
يحلّم، يضحك ويسخر في صمت.

خائف من موج يتلاطم، في صخب يرقص على إيقاع القدر.
خائف من دعي يرغي ويزبد نهراً وفي الليل ينث حقدًا وحسدًا.
خائف من وحش رابض في المرأة يتشاءب...
يتحرك.

خائف من امرأة جميلة شاردة... هادئة...
أو حتى متزنة.

خائف من حب مثل الماء الرائق، أو كلمات مثل الحرائق، من ريبة
تلازمني.. تعاودني...

خائف من شعرة بيضاء، وشمعة عمر يحترق.

٣١- السعادة

أن تكون سعيداً فهذا أمر يتوقف على طبيعتك أنت! الأمر غير مرتبط بمعايير محددة، ولكنه يتعلق بالسمات الشخصية. فهناك من يمتلكون الكثير من مفاتيح الحياة، ولكنهم في النهاية لا يشعرون بما في أيديهم من نعم، ولا يبصرون إلا ما في أيدي غيرهم، حتى وإن كان ضئيلاً هزئياً.

قد تسعدك أشياء بسيطة جداً، وقد تكون في عمق المشكلات والاضطرابات، محاصراً بالكثير من الضغوط، وتجند نفسك رغم كل هذا فرحاً سعيداً، ربما لأن صباح يوم آخر قد جاء، وأنت بين أهلك، في صحة طيبة يغمرك ضوء النهار الجديد، تتمتع بحريتك وانطلاقك تحت أشعة الشمس الدافئة، تتناول طبقك الشهي، من على عربة فول متواضعة، مستمتعاً بقرون الفلفل الحار، وقطع البصل الأخضر.

تجلس في نهاية يومك تحتسي أكواب الشاي والقهوة التركية، على مقهاك البلدي المتواضعة، مع مجموعة من اصدقائك، أو جيرانك أو حتى أناس لا تعرفهم.

قد ترى أنك راضٍ بما حققت، ولكن عندما تأتي عليك تلك اللحظة، التي تستيقظ فيها بغتة في عمق الليل، والناس نيام، لتكتشف أن كل ما حققته ليس إلا فتات الموائد، صدقني وقتها لن تكون سعيداً أبداً.

حين تدرك أنك رضىت بالأدنى، ربما كنت قد أفنعت نفسك بأن أول الغيث قطرة، وربما كنت قد اكتفيت بما معك زاهداً أو غير عابئ.

ربما.. وربما.. وألف ربما.

ولكن صدقني، ساعتها ستفقد كل إيمانك وقناعاتك وسلامك الداخلي، ولن يكون شعورك إلا مزيجاً من التعاسة ومنتهى الأسى، ولا سيما حين تكتشف أن الآخر قد طمع حتى في هذا الفتات الذي كنت راضياً به، ولم يرض بكل ما معه من أرصدة مالية ضخمة، وفيلا كبيرة، ومصيف في الساحل الشمالي، وسيارة فاخرة، وصحة جيدة، وزوجة طيبة، وبنين وبنات، ومركز ذي سلطة، ووجاهة اجتماعية.

ورغم كل هذا يطمع حتى في ذلك الفتات الذي هو كبقايا شحم على قطعة عظم، ربما لا يرضى بها كلب من كلاب حراسته. بل إنه قد يسلبك ما معك، لمجرد أن يمنعه عنك ويلقي به في عرض الطريق، ليس إلا بغرض الإطاحة بسلامك النفسي، الذي ربما كان هو السبب الحقيقي لإزعاجه، وحيروته المستمرة. أجلسني جدتي ملك هانم أمامها، وقالت لي في حدة: - ماذا بك؟

حاولت أن أتهرب منها، إلا أنها لم تتركني حتى رويت لها كل شيء، وما إن فرغت حتى ثارت عليها كل عروقها التركية، فاستشاطت غضباً، صائحة في أبي:

- كيف تترك ابنك هكذا؟!
 - نظر أبي إليها في ضيق ثم همس:
 - وماذا يمكنني أن أفعل؟!
 - يمكنك أن تفعل الكثير، ماذا دهاك؟! إنك تساعد الغرباء وتقف إلى جانبهم، ثم تتخلي الآن عن مساعدة فلذة كبذك، كيف تقول هذا، وأنت في هذا المنصب؟!
 - الزمن تغير، وليس معنى أنني وكيل لإحدى الوزارات المهمة، فيكون بإمكانني فعل كل شيء..
 - أنا لن أسمح أبداً لأي شخص أن يظلم أحد أبنائي.. إذا كنت ترى نفسك غير قادر على مساعدته، فيمكن لشوقي أن يتدخل.
 - نظرت لجدتي وضحكت في أعماقي، هي تود مساعدتي بأي طريقة حتى لو استعانت بزوج خالتي اللواء شوقي العزب، الذي كان يشغل وقتها منصباً كمدير لأمن محافظة البحيرة، وقبل أن أعترض على أسلوب جدتي، وأسخر من طريقتها في التفكير، لاحظت أن أبي قد تملكه الغضب، فهي قد وضعت به ذكائها الحاد في موقف حرج جداً مع عديله، وأزكت في داخله روح الغيرة، ولعبت جيداً على وتر حالة المنافسة المستعرة دائماً بينهما.
 - لم يتمالك أبي نفسه، فثار في وجه جدتي صائحاً:
 - وهل مت أنا حتى تطلبين مساعدة شوقي؟
 - ليس هناك فرق بينك وبين شوقي، كلاهما عندي في منزلة واحدة.
 - اتركي لي هذا الموضوع.

- ماذا ستفعل؟
- سأتصل بابنة عمي.
- نظرت جدتي إليه في دهشة ثم قالت له:
- وما علاقة ابنة عمك بهذا الموضوع؟!
- لم تكن جدتي تعلم أن مدام أفكار عبد العظيم، ابنة عم أبي، هي واحدة من ملاك الشركة التي أعمل بها، فهي شريكة بنسبة كبيرة في رأس المال، وقد كان أبي على خلاف وقطيعه شديدة معها، لا أعرف سببها.
- مدام أفكار هي واحدة من كبريات سيدات أعمال البلد، وتمتلك هي وأبنائها العديد من المشروعات والشركات الكبرى، فهي تنتمي إلى ذلك الفرع من العائلة، شديد الثراء، الذي ربما شاهدت بعض أفرادها صدفة.
- ولربما تسألت كثيراً: لماذا لا يقوم أبي بتوطيد أواصر الودّ معهم، وهو الودود الاجتماعي المحب للجميع؟!
- تنازل أبي أخيراً، وقبل أن يلجأ إليها، ضاغطاً على كرامته التي يعتز بها كثيراً، حزناً على حالي، وكذلك نظراً للضغط الشديد الذي تعرض له من حماته.
- قالت جدتي، بعد أن عرفت مكانة مدام أفكار:
- كيف تكون ابنة عمك شريكة في الشركة التي يعمل بها ابنك وتركه يتعرض لهذا الظلم الكبير؟!
- صدقيني هي لن تفعل له أي شيء... أنا أدرى الناس بها.

- مهما كانت حقيقة الخلاف بينكما، ولكن علينا الآن أن ننظر إلى مصلحة ابننا.

ذهب أبي وحده إلى ابنة عمه، وقد رحبت به كثيراً، وعابته على مقاطعته الطويلة لها، ولكنه ما إن روي لها ما حدث لي، حتى تغيرت نبرة صوتها، قائلة له في حدة:

- أنا لا شأن لي بمثل هذه الأمور، ولا يمكنني أن أدني نفسي بالتدخل مع شخصية بمثل مواصفات سامي عسكر، لا بد أن يعتمد ابنك على نفسه، إنه موظف مثله مثل أي موظف في الشركة، وعليه أن يتحمل تبعات كل المشكلات التي أحدثها.
في نهاية حديثها قالت لأبي:

- يبدو أنك قد أفسدت ابنك، ودلته كثيراً، ولم تحسن تربيته.

٣٢- أحمد موسى

اتصلت جدتي ملك هانم بصديقي أحمد موسى، وطلبت منه أن يأتي إليها على الفور..

كان أحمد على علاقة أسرية وطيدة بعائتي، فهو كثيراً ما شاركنا في تجمعاتنا، أثناء احتفالاتنا المتعددة، سواء في ليلة رأس السنة، أو شم النسيم، أو حتى في سهراتنا الرمضانية، واحتفالاتنا بعيد الأضحي وحفلات الشواء التي كان يترجمها زوج خالتي شوقي، الذي يأتي محملاً باللحوم والدجاج المتبل، ثم يطلب مني أن أجهز المشواة وقطع الفحم، وقد كنت في العادة أظل مرافقاً له في حديقة الفيلا، كي أساعده في ضبط النيران، وتقليب اللحم.

ورغم الجهد الذي يبذله، وكمية العرق الغزير الذي كان يتصبب منه، وخاصة أن كمية اللحوم دوماً كبيرة؛ كي تكفي كل أفراد العائلة، إلا أنها هوايته المفضلة والتي لم يسمح لأحد قط أن يمارسها في وجوده. ذلك المناخ العائلي الذي يجتمع فيه معظم أفراد الأسرة، كان يشعل حماسنا، ويبعث البهجة في نفوسنا، وقد راق لأحمد موسى حميمية هذا التجمع الأسري، وصار وزوجته صديقين للعديد من أفراد أسرتي، حتى جدتي ارتبط بها كثيراً وأعجب بشخصيتها القوية، وقدرتها العجيبة على جمع كل هذا العدد من أبنائها وأحفادها.

أدهشه تعلقهم الشديد بها، وأضحى يعتبرها بمثابة جدة وأم له، وبات وكأنه واحد من أحفادها، حتى صار يناديها مثلنا:

- تيتة ملك.
- قالت جدتي في غضب لموسى بمجرد أن دلف من باب الفيلا الحديدي:
- هل سامي عسكر هذا شيطان؟!
- أطرق موسى برأسه، وقد أدرك أنه مقبل على موقف لا يحسد عليه، أخذتني جدتي، وموسى، وصعدت بنا إلى الدور العلوي.
- قلت لأحمد موسى:
- لم أتوقع أبداً أن تشهد زوراً علي!
- قال في عصبية:
- من قال لك هذا الكلام الفارغ؟!
- صاحت جدتي به:
- ليس مهما من قاله، الأهم أنك قتلته.
- قال:
- لا.. لم يحدث، هذا كذب واقتراء.
- قلت له:
- ولماذا يكذب عادل يوسف إذن؟!
- ارتبك أحمد موسى، ثم ازدرد ريقه بصعوبة وقال:
- هل قال عادل إنني شهدت عليك زوراً؟!
- نظرت جدتي إليه في جدية شديدة، ثم قالت:
- إذا كنت تراه كاذباً، فارفع سماعة الهاتف واتصل به الآن وأخبره بكذبه واقترائه عليك.

اضطرب أحمد موسى وتلعثم، وتفصّد العرق الغزير من جبهته، فهو لم يكن على علاقة حسنة بعادل، كما أنه كان يخشى دوماً الصدام به، أو حتى مواجهته.

بعد برهة، قال أحمد بصعوبة:

- أنت لا تفهم.. الموقف ليس هكذا.

تطلعت جدتي إليه شزراً، ثم نهضت فجأة غاضبة، وتركنا وحدنا وانصرفت، دون حتى أن تنبس بكلمة واحدة.

قلت:

- أمر مؤلم جداً يا صديقي، أن تشعر أنك ساذج، أن تحب شخصاً ما وثق فيه وتعتبره أخصاً أكبر لك، ثم تكتشف بعد مدة أنه كان يخدعك، بل وأنه كان يدبر لك من خلف ظهرك العديد من الأمور التي تكاد تعصف بك، وبينما كنت تزداد إيماناً به وبخلقه، وتعتبره مثلاً أعلى، كان هو يحيك المؤامرات والدسائس للقضاء عليك، لتكتشف بغتة أنك مخدوع بوداعته، ومسالته الكاذبة، وأنه يستخدمك كسلاح خفي لمواجهة أعدائه، مجرد أداة يتخفي خلفها بدون أن يظهر هو في الصورة أو يتعرض لمواجهة قد تصيبه بأي ضرر، أنت يا صديقي، تستخدمني كوسيلة خفية لضرب سامي عسكر، بينما تظهر له الودّ والمحبة، وربما كنت شريكاً له في الكثير من أفعاله، لم أكن أعنيك في أي شيء، مجرد أداة رخيصة في نظرك، حين تنكشف أو تستهلك فلا يسعك سوى التخلص منها، في أقرب سلة قمامة، وهذا بدون أي خسارة أو عداوة تنشأ بينك وبين

عسكر.

حقاً إنني أحييك كثيراً يا صديقي الممثل الموهوب، فلقد بلغت القمة.

قمة المكر والدهاء.

قال موسى في حرج:

- عيب ما تقوله، فأنت لست مجرد أداة، أنت بالفعل صديقي المقرب.

إلا أنني استطردت منفعلاً:

- ألم أقف إلى جوارك؟! ألم أكن معينا لك ولل كثير من زملائك، ومرؤوسيك، وكنت سبباً أساسياً في الحفاظ على لقمة عيشكم، وعملائكم، وعمولاتكم التي كان يشارككم فيها عسكر، برضاكم وبغير رضاكم؟! هل نسيت كل ما كنت أفعله لكم جميعاً؟! لقد كنت أناطح الصخر وحدي، وأنا أحاول أن أرفع بعض الظلم عن الجميع من وكلاء، وموظفين، وعملاء، وأنا في الحقيقة أحارب وحدي شبكة جهنمية، لأجل أناس جبناء لا يستحقون.

قال موسى في حدة:

- لا تنس أنك كنت تؤدي عملك كرئيس لقسم المراجعة، أنت لم تكن تفعل إلا واجبك، وما يمليه عليك ضميرك.

قلت في أسي:

- وأين ضميرك أنت؟!

قال في عصبية:

- أرجوك أعطني الفرصة كي أشرح لك، بعد أن تم نقلك لفرع المنطقة بعدة أسابيع، كنت أنا جالساً في حجرة مكثي، في فرع المنشية، ثم أتى إلي كريم أنسي، مسئول التسويق لديك في الفرع، وجعل يرغبني ويزبد، كان حانقاً غاضباً منك.

نظرت إليه في دهشة وسألته:

- غاضباً مني أنا؟!

قال:

- نعم، لقد اشتكاك، قائلاً إنك تتحدث معه، ومع العملاء بصوت مرتفع وعصبية شديدة، وأنه يخشى بسببك أن يفقد مصدر رزقه، ويخسر عملاءه الذين تعب كثيراً حتى يدخلهم محفظته، عندئذ حاولت تهدئته، وقلت له أنت موظف جديد لدينا، ولم تعرف بعد زملاءك جيداً، وحدثته عنك بالخير، وبأنك من أنزه وأكثر الناس خلقاً وخبرة في الشركة كلها، وأنه عليه أن يستثمر فرصة وجوده معك، فيستفيد من خبراتك ومعلوماتك المتنوعة، ولكن المدير الفني أستاذ/ سمير غطاس، كان يسترق السمع ساعتها، فقام بنقل هذا الحديث كله إلى سامي عسكر، وما كان من سامي إلا أن استدعاني إلى مكتبه، وحين سألتني: هل ما قاله سمير غطاس صحيح؟! لم يكن بإمكانني أن أنكر.

نظرت إلى أحمد موسى غير مصدق لكلماته، ثم قلت له:

- سأواجه كريم بكل ما قلته.

إلا أن موسى قال في منتهى الثقة: اتصل به الآن وواجهني به.

على عجل، أخرجت المحمول من جيبي، وقت بالاتصال بكريم الذي أتاني صوته ضاحكًا، وبعد أن ألقيت عليه بالتحية، سألته بمنتهى البساطة: كريم، هل قت بشكوتي لسامي عسكر؟!

ولم يجب كريم علي، بل غرق في لجة من صمت غريب وكأنه بُهت، أو سقط على رأسه الطير.. كررت قولي:

- ألو... كريم... أسمعني؟!

حتى انقطع الاتصال بغتة، أمسكت بالمحمول، وحاولت أن أعيد الاتصال، إلا أن أحمد موسى قال لي في ثقة:

- لا تحاول ثانية، لقد أغلق هاتفه.

لم أعبأ بكلمات موسى، وجعلت أكرر المحاولة، وفي كل مرة تأتيني عبارة: عفواً الرقم غير متاح الآن، حاول الاتصال في وقت لاحق!

٣٣- طارق ومنصور

لم أكد أخرج إلى حديقة الفيلا، حتى وجدت أخي طارق، وقد ألقى جالساً فوق نجيلة الحديقة ومعه عم منصور، تاجر المخدرات، جارنا القاطن في نهاية الشارع.

ناداني طارق، فأقبلت ناحيته، وأنا أتوجس خيفة، رحبت بمنصور، الذي بادرنى قائلاً:

- بلغني يا أستاذ أنك قد تعرضت للإهانة من بعض السفلة. نظرت إلى أخي طارق معاتباً، بعدما أدركت أنه من أبلغ منصور بما أمر به، إلا أن طارق عاجلني قائلاً:

- اسمعني جيداً، عم منصور ليس غريباً عنا، فهو وعائلته جيران لنا منذ زمن طويل.

التفت منصور إلي، ثم قال:

- أنتم نعم الجيرة وأحسن عشرة، وأفضلكم علينا لا تعد ولا تحصى، وخاصة اللواء شوقي العزب.

همست:

- أشكرك، ونحن كذلك لم نر منكم إلا كل خير، ولكن الموضوع لا يستحق.

أردف منصور: - أنا وكل رجالي تحت أمرك، ونستطيع بعون الله أن نحضر إليك هنا تحت قدميك أي مخلوق.

قبل أن ينصرف منصور، قمت إليه واحتضنته، وهو يردد:

- لا تستهن بقوتي، اعتبرني واحداً من رجالكم، أنا تحت أمرك في أي وقت أنت والأستاذ طارق.

تراجع طارق خطوتين إلى الخلف متوجساً مني خيفة، بعد أن أدرك أنه قد فعل شيئاً خطأ، كان خائفاً من رد فعلي معه، فعاجلني قائلاً:
- هناك أشياء لا ينصلح حالها إلا بالقوة، دعك من شعاراتك الفارغة.

ثم صمت لبرهة وأردف في حزن:

- قد أكون قد تصرفت خطأ، ولكنني أريد أن أساعدك بأي طريقة.

نظرت إلى طارق، ثم قلت له:

- ربما تكون على حق، عموماً منصور تاجر المخدرات هذا، في جوهره طباع ابن البلد الأصيلة، فهو على الأقل يعترف بالمعروف، وغير ناكِر للجميل.

صاح طارق في حماس:

- منصور لديه أخلاق ومبادئ أكثر من أناس كثيرين يدعون الشرف والفضيلة.

كانت مشيرة ابنة خالتي قد جاءت من الخليج هي وزوجها، في إجازتها الصيفية، فأقبلت علي متلهة فرحة ثم قالت:

- دعك من هذا الكلام الفارغ، وجهز كل أوراقك، تنتظر في الإمارات وظيفة مهمة.

هتف مدحت شقيقها صائحاً: هذه فرصة عمرك.

وبعد أن أبعد من أمامه سمكة كبيرة كان قد شرع في تناولها، أردف:
- هذه الوظيفة ستمنحك راتباً ضخماً.

قلت لها:

- اشكري لي زوجك كثيراً، فأنت وهو نعم الأخوان بحق.

نظرت إلي بجدية مشوبة بعطف كبير، ثم قالت:

- لا تهتم بأي شيء، زوجي سيخلص لك كل الإجراءات،
وستمكث معنا في بيتنا هناك معزراً مكرماً حتى يتم توفير مسكن
خاص يليق بك.

ابتسمت ولم أنبس، إلا أنها أردفت: لعلك تعلم أنني وأسرتي، نسكن
في فيلا كبيرة، وهي مجهزة بأحدث الأجهزة، والأثاث الفاخرة،
حتى لو أنك أردت أن تمكث معنا طيلة فترة تواجدك في الإمارات
فإن هذا يشرفنا كثيراً.

ضحك أخي طارق، ثم قال: - هل ستعطونه غرفة الكلب؟
إلا أن أخي أحمد سارع بقوله:

- لقد أحضرت لك دعوة لمدة أسبوع كي تقيم في فندق مارينا،
لتكن فترة استجمام لك.

شكرت أحمد، الذي كان في تلك الفترة يعمل مديراً لفندق مارينا في
الساحل الشمالي، إلا أنه أردف:

- على فكرة إذا أعجبك الجو هناك، فإن وظيفة مدير الإدارة المالية
للفندق تنتظرك.

صاحت مشيرة به غاضبة: ألا زلت تريده أن يمكث في مصر؟

- يا أخني (بلاش قرف)، قل لي كم سيعطونه من راتب؟
أثناء ذلك أقبل علينا أبي مصطحباً معه زوج خالتي شوقي وعم جمال
جارنا المزواج، وما إن رأني زوج خالتي حتى صاح بي:
- من الذي أتى بمنصور إلى داخل الفيلا؟ انسل طارق من بيننا
هارباً، ولم أنبس بكلمة، إلا أن عم جمال قال لي:
- أتعرف يا ولدي؟ إنني بإمكانني مساعدتك وحل جميع مشكلاتك.
نظرت إليه في دهشة إلا أنه استطرد فقال:
- سامي عسكر هذا صديق قديم لي، لقد كان زميلي في المدرسة
الثانوية وأعرف كل عائلته، على فكرة هم ناس محترمون جداً، وهو
نفسه إنسان مجامل لطيف، يبدو أنك لم تفهم شخصيته جيداً.
نهضت بعد أن حييتهم جميعاً، وقبل أن انصرف، صدح جرس
المحمول، وحين رفعته إلى أذني أتاني صوت عادل يوسف متسائلاً:
- عرفت وتأكدت أنني صادق فيما قلته لك؟!
قلت له في دهشة:
- كيف علمت بلقائي بأحمد موسى؟!
صمت عادل قليلاً ثم أردف:
- أرجوك لا تستهن بقدراتي!
قلت له في ضيق:
- كريم أنسي أغلق محموله ولا يمكنني الاتصال به.
قال في هدوء شديد: - بسيطة، سأعطيك رقم تليفون بيته الأرضي.

٣٤- أنسي بك

هل من المعقول أن يكون كريم أنسي هو سبب كل ما حدث لي؟! رفعت سماعة التليفون الأرضي، واتصلت بالرقم الذي أخذته من عادل يوسف، أجابتي أخت كريم، وقالت لي: - إنه لم يأت إلى البيت بعد.

بعد برهة أعدت المحاولة، فأجابتي والدته بنفس العبارة، كررت المحاولة عدة مرات، وفي كل مرة يقولون لي غير موجود. طلبت منهم أن يهاتفني بمجرد أن يصل، ولكن لا حياة لمن تنادي! انتظرت مكالمته طويلاً، وأنا أتحرق قلقاً حتى تجاوزت الساعة الثانية عشرة صباحاً، قلت لنفسي فلتكن آخر محاولة، ورفعت الهاتف، فأجابني في هذه المرة والده الأستاذ أنسي قائلاً: ماذا تريد من ابني؟!

رويت له في عجلة كل شيء، أعلمته أنني مهدد بالفصل بسبب ابنه، إلا أن الرجل، قال لي في هدوء شديد: أنا أعرف أنك إنسان محترم، وأسمع كثيراً عن كفاءتك، هل تدري أن كريم يعتبرك أخاً له، ولا يذكرك أبداً إلا بكل نخر وإعزاز؟! قلت له:

- وأنا أيضاً كنت أعتبره بمثابة أخي الأصغر، ولكن للأسف... وقبل أن أكل كلماتي قاطعني قائلاً: المشكلة أنك وقعت مع رجل داهية.

- قلت: - كل هذا بسبب ابنك.
صاح الأستاذ أنسي:
- أنا قد ربيت كريم أحسن تربية، ولا أَرْضى أبداً أن يكون شريكاً
في مثل هذه الأمور.
قلت في انفعال:
- لماذا يتهرب إذن مني، فهو قد أغلق محموله، ولا يجب حتى على
التليفون الأرضي؟!
قال الأستاذ أنسي في اضطراب:
- ممكن تعطيني برهة من الوقت، وسأُتصل بك بعد قليل؟!
بعد مدة من الزمن، شعرت بها طويلة جداً، فاتتابني اليأس، حتى
فقدت الأمل في أي اتصال من كريم...
فجأة رن جرس الهاتف، وكان المتحدث هو.
- أخيراً.
- أرجوك لا تغضب مني.
- ماذا قلت عني؟
- أنا لم أقل شيئاً، لسامي عسكراً، الأمر ليس كما تظن.
- إذن فما هي الحقيقة، أخبرني.
صمت كريم وأرتج عليه، ولم يستطع أن ينطق بكلمة، فعاجلته قائلاً:
- لا بدّ أن أقابلك الآن.
- الساعة قد تجاوزت الثانية صباحاً!
- غداً الثلاثاء اجتماع مجلس إدارة الشركة، وهو اليوم الوحيد الذي

يأتي فيه الفرنواني بك رئيس مجلس الإدارة إلى الشركة لتوقيع كل الأوراق والمستندات، بما فيها قرار فصلي.. كريم.. ليس هناك وقت.

اضطرب كريم كثيراً، وتلعثم، ثم همس في صعوبة مشوبة بقلق شديد:

- أنا تحت أمرك.

- ليكن إذن لقاءنا بعد قليل، في مقهى ستانلي.

٣٥- مقهى ستانلي

بعد أن جلست وكريم على مقهى ستانلي، أمام شاطئ البحر، جعل كريم يتطلع إليّ في خوف مشوب بالاضطراب، دون أن ينبس بكلمة، وكأنه ينتظر أن يأخذ مني الإذن ليتحدث، بعد برهة من الصمت قلت له:

- تكلم.. كلّي آذان صاغية.

- في بدء تعرفي بك، كنت أخاف منك، وأخشى حتى الحديث معك، كنت أراقب في حرص سلوكك وتصرفاتك، وأرى بها غرابة شديدة، حتى حسبتك شخصية عجيبة، ولا أكذبك القول في وقت ما ظننت فيك سوءاً، وخاصة أن بعض الزملاء كانوا قد حذروني منك كثيراً، ونصحوني ألا أقرب منك أبداً، قالوا لي إنك بالغ الذكاء، شديد المكر كما الثعلب، وأن لدغتك مثل لدغة العقرب. ابتسمت بصعوبة، ثم قلت:

- وماذا أيضاً؟!

- بعد فترة قصيرة من تعرفي بك وتعاملي معك عن قرب، ورؤيتي لسلوكياتك، ولمهارتك في عملك، ومساعدتك الدائمة لي، بل ولكل من حولك حتى من دون أن يطلب منك، أدركت مدى نبيل أخلاقك، وتيقنت أنك إنسان محترم.

- لماذا إذن وشيت بي تلك الوشاية الكاذبة؟!

- في أول يوم عمل لي معك في المنطقة، حضرت إليك، وقد كان

برفقتي أحد العملاء المهمين، وقد كنت أنت يومها ثائراً، غاضباً، تتشاجر تليفونياً مع الأستاذ حسونة مدير الشؤون الإدارية، بصوت عالٍ، وبحدة شديدة، فشعرت بالخرج أمام عميلي، وتذكرت كل ما قالوه لي عنك، وكل المخاوف التي حملتها ناحيتك، فاتتابني الضيق، والخوف من فقداني لعملائي بسببك، وعندما عدت إلى فرع الشركة بالمنشية نقلت هذه المخاوف للأستاذ أحمد موسى مدير التسويق في الفرع، إلا أنه طمأنني، وقال عنك كلاماً طيباً، ثم نسيت هذا الموضوع تماماً، وخاصة بعدما تأكدت بعد برهة قصيرة أنني كنت مخطئاً في انطباعي الأول عنك.

اعتدلت في جلستي، ثم قلت له بجدية:

- ألم تقل إنني قد قمت بسباب الشركة، ورئيس مجلس الإدارة، وإنني أشيع للجميع بأن إدارة الشركة فاشلة وأن جميع العاملين فيها نصابون؟!

نظر كريم إليّ في دهشة ثم قال:

- لا طبعاً، لم يحدث هذا مني.

- ألم تقل إنني أقوم بأخذ العملاء، وأذهب بهم إلى الشركات المنافسة؟!

وهنا صاح كريم في غضب:

- مستحيل، من قال هذا الكلام الفارغ نقلاً عني؟! على العكس، كل ما قلته عنك بعد ذلك كان على سبيل الإشادة.

- أتعرف أن سامي عسكر قام بتحرير كلامك كله، ثم نقله

للفرنواني بك رئيس مجلس الإدارة؟!
وحين سأله عن مصدر كلامه ليتحرى مدى صدقه، ذكر عسكر اسمك، على اعتبار أنها شكوى مقدمة منك إليه، وعندها قال الفرنواني بك: أنا أعرف كريم شخصياً، وتربطني بوالده علاقة طيبة، وهم من العائلات الكريمة، وهو لا يمكن أن يكذب أبداً، أو يدعي على أحد بالباطل.
صاح كريم:

- الرجل فعلاً يثق فيّ، وهذا شيء حسن، ولكنني لم أقل هذا الكلام الفارغ أبداً، لا حول ولا قوة إلا بالله، بالتأكيد الفرنواني بك غضب كثيراً، ويعتبرك الآن خائناً للقمة عيشك.
- بالتأكيد.. فما العمل إذن؟!
- قل لي أنت، ماذا تريدني أن أفعل؟
- أملك خياران، إما أن تصمت أو تقول الحق!
- ولكن....

- لعلك تخشى سامي عسكر! ومعك حق، من هم أقوى وأكبر منك يصابون بالهلع بمجرد ذكر اسمه.
- إذا قلت الحق سيكون جزائي أن يعاديني، وربما أفسد عليّ كل عملي، وأضاع مني كل عملائي، بل ربما قام بفصلي أنا شخصياً.
- يا صديقي... أنا لن أخدعك، الحقيقة، هو يستطيع فعلاً أن يفعل كل هذا وأكثر، وعليك أن تختار أن تقول الحق، لتنقذ إنساناً بريئاً، مستقبلاً مهدد بالضياع بسبب وشاية كاذبة، مع تقبل المخاطرة بعبادة

عسكر، وهي ليست بالأمر الهين، أو أن تصمت حفاظاً على نفسك،
وتؤثر السلامة لمحفظتك وعملك.

- نحن نواجه شخصاً في غاية الخطورة، أتعرف أنه يغادر الشركة كل
يوم وفي شنطته ما لا يقل عن عشرة آلاف جنيه؟!
- أعرف أكثر من هذا.

- أتعرف أنه على علاقة بأكثر من نصف بنات وسيدات الشركة؟!
- قلت لك إنني أعرف عنه أشياء كثيرة جداً، بل ربما كان لقائي
بك الآن هو يسمعه ويراه، صوتاً وصورة.
انتفض كريم فرعاً من مكانه، وطفق يتلفت يمنة ويسرة، ثم قال:
- لا لا.. ليس لهذه الدرجة.

- قلت لك إنه شديد الخطورة، وعليك أن تختار، وصدقي سوف
أتمس لك العذر، ولن أغضب منك، يكفيني يا صديقي أنني قد
عرفت الحقيقة، وأنت لم تقل هذا الكلام عني، أنا فعلاً أرفق بك
من مواجهة وحش مثل عسكر.

- ولكنك أنت ماذا ستفعل؟
- أنا قد تعبت كثيراً، ولم يعد الأمر يعنيني، فلا جدوى من أي
شيء، لا تقلق ودعها على الله.

تطلع كريم إليّ طويلاً، ثم صاح بقوة: لا يا صديقي، أنا لن أتخلي
عنك وسأقول الحقيقة، وليكن ما يكون.

٣٦- لحظات صعبة

لحظات صعبة!

بل ربما لا أكون كاذباً إذا قلت إنها من أدق وأحرج الأوقات التي مرت عليّ في حياتي كلها.
كنت غضاً، فتياً، في مستقبل حياتي.
شاباً لا زال عوده أخضر، مفعماً بالأمال والطموحات يحلم بالحياة الوردية، التي تكافئ دائماً المجتهد، وتعاقب الشرير على سوء أفعاله.
هكذا تعلمنا في الجامع؟!

في البيت؟

في المدرسة؟!

ألم نقرأ هكذا في المراجع والكتب؟! ولكن دائماً يحدث على أرض الواقع ما يبدو مغيراً ومخالفاً للكثير من معتقداتنا ورؤيتنا للحياة على حقيقتها، على وجوهها المتعددة، التي تتغير دائماً وبسرعة مذهلة.
الحياة التي تبدو دائماً بسيطة، وهي في الحقيقة، عميقة جداً.
متغيرة، وملغزة ومحيرة.

وعلينا أن نتعامل معها، شئنا أم أبينا، علينا أن نتعلم ونواجه ونتغير.
فهي مع كل يوم جديد تفاجئنا، وتفضح جهلنا، وتبين لنا أننا مهما بلغنا من عقل، وعلم، وخبرة، مجرد دمي لاهثة، دمي ترقص رقصات رتيبة، أو حتى سريعة، على إيقاع موسيقي لكل مستوياتها وتقبلاتها، وجنونها أيضاً.

كنت منكباً على تليفون مكتبي، وأمامي كريم نحاول الاتصال بمكتب الفرنواني بك، وكان كريم يتأمل ملاحي في شغف غريب، وكأنه يراني لأول مرة، وأنا أكاد أكون قابضاً عليه، فهو دليل براءتي من تهمة بدت لي وقتها وكأنها الخيانة العظمى، الحقيقة هو معي الآن ويود تبرئة ساحتي، ولكن ما جدوى وجوده، مع عدم استطاعتي الوصول إلى رئيس مجلس الإدارة؟!

الوقت كالسيف الحاد، يكاد يقطعني، بل يكاد يشطرنني نصفين، فهو يمر بسرعة مذهلة، وهو ليس في صالحني على الإطلاق. قلبي يدق بسرعة، أسمع صوت ضرباته المتتالية كما دقائق الساعة الميقاتية للحكم، الذي كاد أن يطلق صافرة نهاية مباراة حامية الوطيس.

مباراة أوشك أن ينتهي حتى وقتها بدل الضائع. المفروض أن الفرنواني سيجتمع بمجلس إدارة الشركة ويوقع على قرار فصلي بعد لحظات.

نظر كريم إليّ ثم صاح:

- ماذا نفعل؟

كيف نصل إلى الفرنواني قبل أن يوقع على قرار فصلك؟! نحن جميعاً نعلم أنه إذا اتخذ أي قرار فلا يرجع فيه أبداً، حتى لو كان خطأ؟!

أثناء حديث كريم المشحون بالقلق، انطلق صوت رنين هاتفه. أعلمني أن المتحدث سامي عسكر.

قلت له:

- أجب عليه، ولكن أسمعني صوته، ضعه على Speaker

سامي عسكر: كيف حالك؟!

كريم: الحمد لله.

- أنا تحدثت مع الفروناني بك ونقلت له كل كلامك عن الزفت صاحبك، وهو قد اتخذ قراراً بفصله.

- ولكنني لم أقل هذا الكلام!

- بل قلته.

- يا سيدي الفاضل أنا لم أقل إنه يسب أحداً أو يسيء إلى الشركة
أوو....

- اسمع ما أقوله لك، أنا قلت إنك قلت هذا الكلام، وحتى إذا لم تكن قد قلته، انتهى وقت التراجع، فهل ستصغّرني أمام رئيس مجلس الإدارة وتظهرني أمامه كاذباً مدّلساً؟!

- ولكنه لم يفعل وهذا ظلم كبير له.

ولا يرضى ربنا!!

- أنت لن تعرفني ربنا، اسمع، أنت لا زلت صغيراً ولا تفهم أي شيء في الدنيا، لن أكرر كلامي لك، والتزم بما قلته، وإذا سألك أي شخص ستقول ما ذكرته أنا بالحرف، أم أنك تريد أن تنصره على أمام كبار الشركة؟!

- يا فندم...

- انتهى كلامي وعليك أن تنفذ كل كلمة منه، وبدون تفكير.

- يا فندم... يا فندم!
أغلق كريم الموبيل ونظر إليّ، والعرق يتفصد من جبينه، قلت له:
- ها... ها...
غيرت موقفك؟!
خفت؟!
نظر كريم إليّ في تحدّ، ثم قال: علينا أن نصل إلى الفرنواني في أسرع وقت ممكن، هيا انهض معي.
- إلى أين؟!
- اترك مكتب المنطقة وهيا بنا إلى شركة أبي، يمكننا التحدث من مكتبه وهو يعرف كيف يصل إليه.
نهضت فرحاً، وأنا أصيح:
- الله ينور عليك.
قبل أن أخطو خطوة خارج المكتب، رن جرس موبيل كريم.
قال كريم، قبل أن يجيب:
- هذا مدير عام الشركة الأستاذ أنور الساعاتي.
قلت له:
- تحدث، وأسمعني. Speaker
- أستاذ كريم... ماذا يحدث عندك؟!
- لا شيء، يا فندم.
وسأله عني، فذكر له كريم أنني مظلوم وأن ثمة شيئاً مريباً لدى سامي
عسكر، وأنه يقوم بتصفية حسابات قديمة معي، وحينما سأله عن

رأيه، مدح كثيراً في شخصيتي.
أغلق كريم هاتفه، وقبل أن يضعه في جيبه، جاءه اتصال آخر من نائب رئيس مجلس الإدارة، الأستاذ رفعت قطب، ودار بينهما حوار لم يختلف كثيراً عن ما دار بينه وبين أنور الساعاتي، بل إن كريم في هذه المرة أضاف جملة أن سامي عسكر يهدده ويضغط عليه كي لا يقول الحقيقة، وأنه عليه أن يؤيده في كل حرف مما ذكره وإلا كانت عاقبته وخيمة.

أغلق كريم هاتفه وحاول أن يعيدني إلى مكثي في المنطقة الحرة، إلا أنني قلت له: لا.

- ماذا تريد؟ لقد قلت للناس كلها الحقيقة!
- ولكنك لم تقل ذلك للفرنواني نفسه!
- ألا يكفيك مدير عام الشركة، ونائب رئيس مجلس الإدارة؟!
- عموماً هما سينقلان له الحقيقة.
- وما الذي يضمن لي أن يفعل ذلك؟!
- ماذا تقصد؟!
- ربما لا يفعلان، وربما هما متواطئان.
- ليس لهذه الدرجة، لقد شطّ بك الظن السيء كثيراً!
- أنا لم أعد أثق في أي مخلوق، حتى أبي نفسه إذا كان يعمل هنا معنا.

- حالتك باتت صعبة جداً، ولكني أعذرُك، ماذا نفعل إذن؟
- نذهب إلى مكتب أهلك، كما اقترحت عليّ من قبل، وتحادث

الفرنواني نفسه أمامي.
العجيب أننا قبل أن نتحرك من مكاننا، رنّ هاتف كريم للمرة الرابعة،
ولكن هذه المرة، كانت المهاتفة من الفرنواني نفسه!
قفز كريم إلى أعلى، وكاد المحمول يسقط من يديه، إلا أنه تمالك
نفسه بسرعة ثم فتح هاتفه.
الفرنواني بك: كريم.
كريم: تحت أمرك يا فندم.
الفرنواني: سامي عسكر كاذب أم صادق؟!
كريم: كاذب يا فندم.
الفرنواني: شكراً.
وأغلق الفرنواني هاتفه في أسعد وأقصر مكالمات هاتفية سمعتها في
حياتي.
نظر كريم إلى وهويتفصّد منه العرق الغزير، ثم أردف:
- أعتقد أنني هكذا قد أنهيت مهمتي.
سحبت نفساً عميقاً، وتهاويت على الأرض ساجداً لله.
اقترب كريم مني وهو مذهول، إلا أنه سرعان ما أقعى جالساً إلى
جواني، ثم ربت على كتفي وقال لي:
- انهض... انهض يا صديقي.
ثم رفعني بقوة إلى أعلى.

٣٧ - تكلم

تكلم...

بالحق بالصدق بالخير، أو لا تتكلم، فكل الكلم ليس سواء.
كن صامتا كموج البحر حين ينسحب في صمت ويرحل في إباء، فمن
لا يدرك معنى الحب لا يدرك معنى الآهة في الأعماق، في الصدر
حين يفور البركان.

في القلب حين تضيع الأنفاس، وتلاحق الكلمات.
حين تنفطر السماء وتنتثر الأكوان وتتبعثر كل الأسماء.

٣٨ - يا صديقي كم أنت تساوي؟!!

لم أكد أخطو بقدمي في داخل فيلا العزب حتى لمحت بعيني أبي، وهو جالس مع عادل يوسف، في الشرفة الواسعة المطلة على الحديقة، رحبت بعادل وأنا أتوجس خيفة، فهذه هي المرة الأولى التي يزورني فيها في بيتي.

قال أبي: - ينتظرك صديقك منذ فترة، أين كنت؟!

قلت: - عفواً يا عادل، فأنا لم أتوقع تلك الزيارة.

قال أبي: - حتى محمولك مغلق!

قلت: فاصل شحن.

أبي: - عموماً أنا سعدت بالتعرف ومقابلة شخصية محترمة مثل الأستاذ عادل.

ونفض أبي مغادراً المكان، قال عادل:

- والدك شخصية ظريفة جداً، تصور زملكاوي متعصب، مثلي تماماً.

قلت: - العائلة لدينا كلها زملكاوية، عدا العم شوقي، وأولاده.

قال عادل: - طبعاً أنت مندهش من زيارتي لك! اليوم في الشركة

حدثت أحداث كثيرة عجيبة، سامي عسكر، كان في غاية

الاضطراب والعصبية، أول مرة نراه هكذا، تصور أنه أعطى

جزاءات، ولفت نظر لجميع العاملين في الفرع!

ابتسمت ابتسامة باهتة، ثم قلت له في فتور:

- كلكم أخذتم لفت نظراً؟!!

- كان من نصيبي يوم خصم، حتى غطاس، وموسى.... فيولا نفسها، أخذت ثلاثة أيام جزاء!
- قلب عليكم، الظاهر إنه بدأ يأكل ناسه!
- أتعلم من الوحيد الذي لم يوقع عليه جزاء اليوم؟!
- من؟!
- أنت.
- أنا يا سيدي بعيد عنه.
- ولكنك تابع إدارياً لفرع الإسكندرية ولرئاسته.
- يمكن لأني لي عنده معزة خاصة!
- الدنيا مقلوبة في الشركة كلها، ولا أحد من الكبار يريد أن يتكلم، قل لي ماذا حدث؟! هل اعترف كريم لك بما قاله؟!
- كنت حتى هذه اللحظة لا أثق تماماً في عادل يوسف، ولا آمن جانبه، وقد تبادر إلى ذهني أن سامي عسكر هو من أرسله بنفسه إلى بيتي، ولكنني حتى مع هذا الاحتمال القوي، قلت له وبمتهى الصراحة، بعد أن أدركت أن اللعب بات مكشوفاً:
- كريم أبلغ الفرنواني بك بالحقيقة.
- صمت عادل يوسف لعدة لحظات، ثم قال في ريبة، وهو غير مصدق لما أقوله:
- وكيف عرف أن يصل إلى الفرنواني؟!
- كما أقول لك، كريم قال له كل شيء.
- رجع عادل بظهره إلى الخلف ثم قهقه ضاحكاً.

- لماذا تضحك؟!
- هل تظن أنك انتصرت على سامي عسكري؟!
- ماذا تقصد؟!
- سامي عسكري ليس بهذه السهولة التي تتخيلها.
- طبعاً أنت واحد من رجاله، فماذا أنتظر منك؟!
- يا أخي اسمعني... هل تعلم أن سامي عسكري يسرق الفرواني نفسه؟!
- والأغرب من هذا أن الفرواني يعرف أن سامي يسرقه!
- كلامك غير منطقي، إذا كان صحيحاً، فلماذا إذن لا يوقفه عن العمل؟! بل هو واحد من أقرب المقربين إليه، ومحل نخره وثقته، الأمر الذي جعله يصل لقوة ومكانة يحسده عليها جميع كبار الشركة، فكيف يكون كلامك صحيحاً؟!
- يا عزيزي إنها لغة المصالح.. هو يعلم أنه يسرقه، وسامي يعلم أن الفرواني يعلم أنه يسرقه، ولكن كلاهما يتظاهر بعدم المعرفة.
- هل هذا لغز؟!
- بمنتهى البساطة الفرواني يستفيد أكثر من حجم سرقاته، فهو أمر مدير لديه في الشركة، ولا أحد يستطيع أن يحقق كم نجاحاته، أنت تعلم جيداً إمكانياته، وعلاقاته المتشعبة، والتي جعلت فرعنا هذا أكبر فرع بالشركة، فكيف يضحى برجل يمتلك كل هذه المهارات؟!
- إنه الدجاجة التي تبيض له ذهباً.
- نظرت إلى عادل في ذهول، ولم أنبس، إلا أنه واصل في ثقة:
- أنا أكبر منك، وأكثر خبرة بالدنيا.

شعرت في حديث عادل هذه المرة نبرة صدق حقيقية، إلا أنني قلت له: إذا كان كلامك صحيحاً فلتقل لي ما هي العملية التي قام فيها عسكري بسرقة الفرنواني، أم أنها مجرد تهويمات عامة؟! أم أنك، تقصد الأشياء الداخلية التي نحن أكثر ناس دراية بها بحكم وظيفتنا؟!

نظر عادل إليّ في قلق شديد، لأول مرة، ثم طلب مني كوباً من الماء البارد، في تلك اللحظة جاءت جدتي ملك وقامت بالترحيب به، وطلبت منه أن يتناول معنا طعام العشاء. رفض عادل في أول الأمر، إلا أنها اخرجته قائلة:
- ألا تريد أن تأكل من طعامنا؟!

أمام إصرار جدتي، لم يجد عادل بداً من الرضوخ لطلبها، وعندما دخلنا إلى الصالة الداخلية للفيلا، فوجئ بعدد كبير من أفراد عائلتي. نظر عادل إليّ، وهو في غاية الحرج، إلا أن أبي أمره بالجلوس إلى جواره، ففعد على الفور، وشرع في تناول الطعام، الذي تخلله الكثير من مداعبات أفراد العائلة، وهو لا يكاد ينبس من الخجل. بعد أن تناولنا العشاء، وقبل أن ينصرف عادل، قال لي:

- الفرنواني بك له مكتب سمسة خارجي، ويقوم بإدخال بعض العملاء الكبار تحت مظلة هذا المكتب في محفظة شركتنا، ويتم توريد عمولة المكتب إليه تباعاً وبشكل دوري.
قلت له في تلقائية:

- هذا شيء طبيعي، وسليم ولا غبار عليه، والكل يعرف اسم

المكتب.

قال: هل تعلم أن سامي قام بسرقة أحد العملاء الكبار من هذا المكتب الذي يملكه الفرنواني شخصياً وقام بإدخاله تحت محفظة وكيل آخر هو يقتسم معه العمولة؟! صحت في دهشة:

- وكيف يتم هذا في نفس شركة الفرنواني؟!
- ومن قال لك إنه أدخل العميل في شركتنا، لقد أخرجه إلى شركة منافسة لنا.

- إلى هذا الحد؟!
- ما أود قوله لك، ببساطة، وأتمنى أن تفهمه جيداً، هو أن الفرنواني لن يضحى بعسكر من أجلك أنت، إنها المصلحة يا صديقي.
تطلعت إلى عادل في حنق، إلا أنه قال:
- عسكري يعني بالنسبة له ملايين الجنيهات.
صمت عادل لبرهة، ثم نظر في عيني بقوة، وأردف:
- عفواً، فكم أنت تساوي بالنسبة له؟!

٣٩- سيارتان فارهتان

توقفت أمام مكتب المنطقة الحرة سيارة سوداء فارهة، على زجاجها الجانبي ستائر داخلية تخفي ملاح من بداخلها، ومن خلفها سيارة أخرى تماثلها تماماً، لفتتا أنظار جميع العاملين في المنطقة، حتى أن بعضهم، ظن أن ثمة زيارة من مسئول حكومي كبير.

ساد الارتباك والهرج الشديد بين كل موظفي الشركات، حتى العملاء، بعضهم دفعه الفضول للخروج إلى الساحة الخارجية، لتبين حقيقة هذه الزيارة.

هبط من السيارة الأمامية ثلاثة رجال يرتدون بذلاً سوداء أنيقة، سرعان ما لحق بهم بكر نائب مدير عام المراجعة، الذي خرج من السيارة الثانية.

وإذا ب بكر يدفع بقوة الباب الزجاجي لمكتبي؛ لأجدهم جميعاً أمامي بغتة، كان كريم جالساً، ومعه أحد العملاء، يراجعان بعض المستندات.

نهض كريم من مكانه فزعاً، للحظات ران الصمت على الجميع. نظرت في دهشة إلى بكر، الذي سرعان ما بادرنى قائلاً بلهجته الصعيدية، حتى من دون أن يلقي التحية:

- هيا انهض معنا.

ثم استدار إلى الثلاثة رجال من خلفه، وأمرهم بغلق المكتب، وجمع كل الأوراق الموجودة فيه.

طلب كريم من العميل الموجود الانصراف، على أن يستكمل معه باقي الإجراءات غداً.

وقبل أن يغادرنا هو الآخر، أوقفه بكر قائلاً:

- لا تذهب إلى فرع المنشية الآن، ولا تخبر أحداً بأنك رأيتنا.

نظر كريم إلى بكر في دهشة، ثم قال له:

- أنا لا أعرف حتى من أنتم!

قدم بكر نفسه لكريم، ثم التفت إلى الثلاثة رجال الذين معه، واكتفى بقوله:

- البكوات زملاؤنا في مكتب رئيس مجلس الإدارة.

جمع الثلاثة رجال كل الملفات والأوراق الموجودة في المكتب، ثم تحركوا جميعاً إلى الخارج.

دلف بكر في السيارة الأمامية، وقبل أن أهمّ بركوب السيارة إلى جواره، أشار لي وهو متجه الملاح، أن اتجه إلى السيارة الخلفية.

سألته: إلى أين؟

قال: إلى القاهرة.

وما إن فتحت باب السيارة الخلفية حتى وجدت أمامي سلوى محرز، مدير عام المراجعة جالسة، وشعرها الأصفر الطويل معقوص خلف ظهرها، وقد وضعت ساقاً على ساق، كعادتها دائماً.

ألقت بالسيجارة من يمينها، ونزعت النظارة الشمسية السوداء من على عينيها، ثم ابتسمت ابتسامة كبيرة، زادت من وجهها إشراقاً وجمالاً، ومدت يدها لتصافني، تراجعت خطوة للخلف، ترددت

قليلًا، ثم اقتربت ومددت يميني إليها.
في فتور شديد دلفت إلى السيارة، وجلست إلى جوارها، وأنا متجهم
الملاح، ودون أن أنبس بكلمة.
نظرت سلوى قليلًا في عيني، وبعد أن قطبت من ملاحظها، أدارت
وجهها إلى سائق السيارة، قائلة:
- هيا بنا.

٤٠- سلوى محرز

خرجت من السيارة، التي أقلتني من الإسكندرية إلى القاهرة في أقل من ساعة ونصف، غادرتها، دون حتى أن أحیی مدام سلوى. طوال الطريق لم افتح في بكلمة، وهي ما لبثت أن وضعت نظارتها الشمسية السوداء على عينيها، وظلت على حالها لا تفعل شيئاً سوى أن تداعب بأصابعها -في توتر واضح- محمولها الخاص. توقفت السيارة أمام مدخل الشركة تماماً، جاء بكر إليّ، وأخذني إلى مكتبه في الدور الأول.

ولم تمض بضعة دقائق إلا ووجدت السيد مدير عام الشركة مقبلاً ناحيتي، نهضت لتوي لأرحب به، قال أنور لبكر متسائلاً:
- أهذا هو البطل؟

نظر بكر إليّ في نخر، ثم قال:

- وأي بطل، إنه الوحيد الذي استطاع أن يقهر سامي عسكر. جذبني أنور الساعاتي بقوة وهو يشد على يدي، ثم خبط على ظهري قائلاً: هائل يا ولد.. هائل.. هائل جداً، أنت استطعت أن تفعل ما لم نستطع نحن الكبار أن نفعله.. الإسكندرية لا زال بها رجال. ثم ما لبث أن تأبط ذراعي في نخر، وسحبني للخارج، قال بكر:
- إلى أين تأخذه؟!

قال:

- لا شأن لك به، اتركه لي.

أنور الساعاتي، رجل في أواخر العقد السادس من عمره، له هيبة ووقار شديد، الجميع يحترمه، ويخشاه، وهو من القلائل الذين صنعوا اسمهم في مجال صناعة التأمين، فصار اسماً على علم، فهو يتمتع بخبرات ومعلومات موسوعية، وله علاقات على أعلى المستويات مما جعله الأيقونة التي يسعى الجميع للتقرب منها، كما أنه سريع البديهة، وذو طلة مميزة، وله لكنة في الحديث محببة، تشبه إلى حد كبير لكنة الرئيس أنور السادات.

وما إن دلف بي أنور داخل مكتبه، حتى توالى عليّ وفود الموظفين، الكل جاء ليرحب بي، ويشاهد هذا الشاب الأسطوري الذي انتصر في نظرهم على الشيطان.

كافة المديرين الكبار، الذين كانوا في السابق حين يأتون إلى فرع الإسكندرية ينظرون إلينا في كبرياء وزهو، وربما حتى يتغافلون عن تحتي، فقد كنت وقتها مجرد موظف صغير لا يمثل لهم أي قيمة، الآن جاؤوا الواحد تلو الآخر، ووقفوا فيما يشبه الطابور الطويل، لمجرد فقط أن يلقوا عليّ التحية، وينالوا شرف التعرف بي.

شعرت بتوتر وارتباك شديد حينما شعرت أنني صرت فجأة كمثل نجوم السينما، بل ونجوم الصف الأول، أولئك الذين يقدمون أدوار البطولة ويهزمون الشرير في نهاية الفيلم، ليتعالى تصفيق الجمهور، الذي يكون قد توحّد مع البطل، وصار يشاركه بكل جوارحه في انتصاره الذي يعد انتصاراً لهم جميعاً.

ولكنني في الحقيقة لست إلا موظفاً صغيراً! أنا لا أقوم بلعب أي

دور في فيلم سينمائي، أنا فقط مجرد إنسان تعرض لظلم فادح، وحاول أن يقول لا..

فقط لا.. لا للتنازل عن كل ما تعلمه وعرفه من قيم ومبادئ، ولا يدرك إلا أنها هي الصواب، ولا يمكنه أن يفعل خلافها. مجرد موظف وضعه القدر في ذلك الطريق، والقدر أيضاً هو الذي يضعه الآن في نفس الموقف العجيب.

لم ينفُصّ جمع الموظفين من حولي إلا بدخول رفعت بك قطب إلى مكتب أنور الساعاتي، فانصرف على عجل كل مديري عموم الشركة، وتبعهم مرؤوسوهم، في توتر وهم يسمعون رؤوف قطب وهو يهلل: - كل موظفي الشركة، لا يوجد واحد منهم على مكتبه؟! ما شاء الله كلهم هنا في مكتب أنور بك؟!

وما لبث أن شاهدني واقفاً حتى أقبل ناحيتي، تطلع إليّ في دهشة، ثم التفت إلى أنور، الذي عاجله قائلاً: بطل إسكندرية. صاح رفعت بك صيحة لا تتناسب مع وقاره وسنه الكبير: أف.. أف.. أنت يا سيدي صاحب مشكلة الإسكندرية؟! صاحفني بقوة، ثم التفت إلى أنور قائلاً: - ولكنه صغير جداً!

قال أنور:

- معك حق، لقد كنت أحسبه طويلاً عريضاً، ضخماً الحجم، كبيراً في السن.

استدار رفعت بك خارجاً، بعد أن حياني قائلاً:

- شرفت القاهرة، وشرفني التعرف بك، اعمل حسابك، لنا جلسة طويلة مع بعض.

بعد برهة أقبل بكر، وطلب من أنور أن يتركني له لبضع دقائق، سألني بكر:

- ماذا قلت لمدام سلوى؟!

تطلعت إليه في تعجب ثم قلت:

- لم أقل لها أي شيء.

- ألم تشكرها، على كل ما فعلته من أجلك؟!

صحت به: وماذا هي قد فعلت؟! تركتني أتعرض لظلم سامي عسكري، وإهاناته المستمرة، ولم تتدخل، كنت رئيساً لقسم المراجعة تابعاً لها وإدارتها، وكانت هي تقول لي دائماً اتق الله في شغلك ولا تخش أحداً، أنا معك وفي ظهرك، لأجد نفسي فجأة مهانا مطروداً من فرع الإسكندرية، بقرار تمكن سامي من استصداره من رئيس مجلس الإدارة، أين كنت هي ساعتها؟!

وقبل أن يفتح بكر فمه، كانت سلوى تدخل إلينا، من الباب الجانبي لمكتب بكر، والذي هو يؤدي إلى مكتبها، نظرت إليّ في ألم ثم قالت:

- لماذا لا تسألني؟!

لم أنبس فأردفت:

- حين صدر قرار استبعادك من إدارة المراجعة، لم أكن في مصر، كنت في أمريكا في إجازة لمدة ثلاثة أسابيع، لم أعرف بالقرار إلا عند عودتي من الخارج، وحين علمت، توجهت إلى القنولاني بك،

وحادثه بشدة، ثرت ثورة عارمة، قلت له كيف يتدخل عسكر في عملي، ويقوم باستبعاد أهم موظف عندي؟! لم يخبرني الفرنواني لماذا هو استجاب لطلب عسكر، كل ما قاله إن هذا لمصلحة العمل، ولما لم يعجبني رد فعله، قمت بتقديم استقالتي.

نظرت إليها في دهشة قاتلا:

- هل قمت بتقديم استقالتك فعلا؟!

نظرت إليّ في شموخ ثم قالت:

- منذ متى وأنت تعلم عني الكذب؟! أنت تعلم جيداً أن سلوى محرز كلمتها بكلمة ١٠٠ رجل وأنها لا تكذب أبداً.

قلت لها في ريبة:

- وماذا حدث بعد ذلك؟!

قالت:

- قام الفرنواني بتمزيق الاستقالة، وقال لي: إلى هذا الحد أنت متمسكة بهذا الولد؟ إلى هذه الدرجة أنت تثقين فيه؟!

قلت له مكررة: إنه أفضل وأنزّه موظف لدينا في الإدارة، فكيف يكون جزاؤه نظير سيطرته على فرع الإسكندرية، والوقوف ضد كل تجاوزات عسكر، ونجاحه في قص جناحيه، أن يستبعد، وعلى يديه هو شخصياً؟! هل كنت تعتقد أن عسكر سيتركه لحاله من دون أن يسعى دائماً لتشويه صورته، ومحاولة إبعاده بكل الطرق من الفرع الذي يعد نفسه هو الحاكم الأمر له؟!

صمت سلوى تلتقط أنفاسها من فرط الانفعال، إلا أن بكر عاجلها

قائلا في شغف من يستمع إلى تلك الحقائق لأول مرة:

- وماذا حدث بعد ذلك يا مدام سلوى؟!

نظرت سلوى إليّ ثم قالت:

- قلت للفرنواني، إما أن تعود إلى مكانك وبترقية استثنائية كمكافأة لك، وإما أنني سأترك الشركة.

وأمام إصراري على هذا الموقف، طلب مني أن أترى قليلا، لبعض الوقت، حتى يصلح ما تم، وخاصة أنه لا يصحّ أبداً أن يرجع في قرار قد اتخذته.

منذ أقل من شهر، تقبلت موقفه على مضض، مع وعد منه بإصلاح هذا الأمر مع أول حركة ترقية بالشركة، صحت بها:

- لماذا لم تكلميني وقتها؟! لماذا لم تعلبيني بكل ما قد فعلته من أجلي؟!

نظرت إليّ في حزن ثم قالت:

- في الحقيقة، لقد نجلت من محادثتك، ولم أجسر حتى على مواجهةك، قلت لنفسني: أنا لن أكلّمك إلا بعد أن أعيد إليك حقك، ولكن عسكراً لم يتوقف عند هذا الأمر، فما كاد يعلم بطرقه الخفية بأن ثمة قراراً سيصدر بترقيتك، وإعادتك إلى فرع الإسكندرية حتى قام بفعلته معك وجعل كل موظفي فرع الإسكندرية يشهدون عليك زوراً، وقتها أنا نفسي صدقت أنك فعلا كما يدعي.

نظرت إليها في حدة، إلا أنها أردفت:

- وكيف لا أصدق وكل فرد في فرع الإسكندرية قد شهد عليك

بذلك؟ هل معقول أن يكون شخص واحد صادقاً والجميع كاذبين؟!
ضع نفسك في مكاني.

نظرت إليها في أسي، وقبل أن تنحدر الدموع من عيني قلت لها
بصوت محتبس:

- وهل صدقت الآن أنني كنت ضحية لشيطان اسمه عسكري؟!
هل صدقت أن الجميع كانوا يكذبون وينافقون ويفعلون أي شيء من
أجل عسكري؟!!

تدفقت الدموع من عيني سلوى، واقتربت مني حتى احتضنتني
برفق، ثم قالت:

- أرجوك سامحني!

انتابني نجل شديد، وتفصد العرق الغزير من كل مسام جسدي.
صحيح أن سلوى محرز هي امرأة حديدية كما كان الجميع في الشركة
يطلق عليها، وصحيح أنني لم أنظر إليها يوماً كأنتي، وإنما كان يربطني
بها علاقة الموظف ورئيسه المهاب القوي، حتى أنني كنت أتعامل
معها كأنها رجل، بل ورجل غليظ جداً، ورغم فارق السن الكبير
بيني وبينها فهي في سن والدتي، إلا أنها في النهاية أنتي جميلة جداً،
هي تحتضني الآن في أثناء أوقات العمل الرسمية، وفي مكتب من
مكاتب الشركة.

تراجعت إلى الخلف، بينما تنهمر الدموع من عيني وعينيها، ثم
نظرت لبكر الذي وقف مذهولاً لا يعرف ماذا يفعل، إلا أنه أسرع
بغلق باب المكتب، حتى لا يشاهد أحد الموظفين رئيسه، المرأة

الحديدية وهي تبكي، بل وتعانق أحد موظفيها، قلت لبكر:
- أحضر لمدام سلوى كوب ماء.

والتفت إلى مدام سلوى وناولتها منديلا ورقياً كي تمسح دموعها،
نظرت إليها في نجل وهي تبكي، إلا أنها ابتسمت قليلا ثم صاحت
فيّ: كده يا ولد عاوز تعلمني الأدب؟! طوال الطريق من
الإسكندرية للقاهرة، لم تلتفت إليّ، أو حتى تنبس بكلمة!

٤١- الضرتان

في جدية شديدة، وبعد أن قطبت من حاجبها، قالت لي مدام سلوى محرز: جهز نفسك للقاء الفرنواني بك.

ارتبكت قليلاً ثم قلت لها: متى؟!

- المفروض أن يلتقي بك اليوم، ولكنه لم يصل إلى الشركة حتى الآن.

همس بكر:

- اليوم اجتماعه بمجلس إدارة الشركة، يبدو أن شيئاً ما قد عطله.

قالت سلوى:

- مشاغل الفرنواني بك كثيرة جداً، كما تعلم فهو واحد من كبار رجال الأعمال.

همس بكر في حسرة:

- بالتأكيد، الرجل يلعب بمليارات الجنيهات، يمتلك ويدير العديد من المشروعات الكبرى.

نظرت سلوى في حدة إلى بكر، وكأنها تزجره، فهي وفقاً لعلاقتها القوية بالفرنواني، وانتمائها الشديد إليه، لا تطيق سماع أي تلميحات خبيثة، أو حتى مجرد التحدث عنه بصورة غير لائقة.

نظرت في ساعة يدي التي كانت قد تجاوزت السادسة، ثم قلت في توتر: الآن قد انصرف جميع الموظفين، ولا أظن أن الفرنواني بك سيأتي إلى الشركة.

قالت سلوى: أعتقد أنك على حق.
سألها في براءة: هل أعود إلى الإسكندرية؟
ابتسمت سلوى ثم قالت:
- طبعاً لا... نحن أتينا بك خصيصاً لمقابلته.
قلت:

- لقد قابلت الأستاذ رفعت، وأنور، وكل مديري عموم الشركة،
أعتقد أن مهمتي قد انتهت.
نظرت سلوى إليّ في ضيق، ثم قالت: اسمع، الرجل يريد أن يراك
بنفسه، ويقعد معك، سيصحبك بكر إلى الفندق المجاور للشركة،
حتى تبين به، وفي الصباح الباكر تكون عندي هنا في مكنتي.
قلت في قلق:

- ولكن فرع المنطقة الحرة مغلق، والأستاذ حسونة مدير الشؤون
الإدارية لا يعرف عني شيئاً! أنا هكذا سأسجل غياباً.
ضحك بكر كثيراً، وهو يجذب يدي إلى خارج المكتب، ثم قال في
سخرة: يا رجل رئيس مجلس الإدارة طالب يقعد معك، وتقول إن
حسونة سيسجلك غياباً!

صعد بكر معي إلى غرفة الفندق التي تم حجزها لي، وجعل يتفقد
محتوياتها، حتى تأكد من أن كل شيء على ما يرام، وبعد برهة طلب
من العاملين أن يجهزوا لي طعاماً شهيماً.
كان بكر في هذا الوقت وعلى خلاف عادته، خفيف الظل، يتمتع
بروح الدعابة، فما إن قلت له:

- لقد أتعبتكم اليوم كثيراً حتى قال لي في عفوية:
- والله فعلاً، أنا لا أعرف من الذي أتى بك إلينا؟!
- وانطلقت ضحكاته مجلجلة في الحجرة، ثم أردف:
- قبل وجودك معنا في الإدارة، كنا ننعم بالراحة وهدوء البال، ولا توجد أية مشكلات، أتعرف أنني ومدام سلوى، بل وإدارة المراجعة كلها، لم يهدأ لنا بال طوال فترة تواجدك في المنطقة الحرة؟ عمل ومراجعات، وحوارات كثيرة جداً، كنا أحياناً نغادر الشركة بعد منتصف الليل.
- ثم صمت لبرهة وأردف: أنا لم أكن أعرف أنك بهذه الأهمية لدى مدام سلوى! ولا زلت لا أفهم ما طبيعة العلاقة الجهنمية بينك وبين عسكري، أنتما مثل القط والفأر.
- أذكر لك مفاجأة؟!
- وهل لا زال هناك مفاجآت؟!
- الذي لا يعلمه أحد، أن الذي أتى بي إلى إدارة المراجعة معكم، هو سامي عسكري نفسه، ليس هذا فقط، بل إن مدام سلوى كانت لا تقبل شخصيتي على الإطلاق، وترى أنني لا أمتلك أي مقومات تؤهلني لشغل هذه الوظيفة، ولكنه بحكم صلاته القوية بالفرنواني استطاع أن يؤثر عليها، وقد كانت في بدء الأمر تتعامل معي بجفاء شديد، لشعورها بأنني قد فرضت عليها فرضاً، ربما كانت تراني ثقيل الظل، ولا تستسيغ الحديث معي أو حتى مجرد رؤيتي، ولا أخفي عليك سرّاً، أنا نفسي لم أكن أبادلها إلا نفس الشعور، وكنت شديد

الحزن، لتركي الإدارة الفنية ووظيفتي الأساسية، وخاصة أنهم قاموا بنقلي فجأة، وبدون حتى أن يستشيرني أحد، وكأنني كم مهمل أو قطعة أثاث يمكنهم تحريكها ووضعها في أي مكان وفقا لأهوائهم.

- مدام سلوى، وسامي عسكر، هما أكثر شخصيتين قريباً من الفرنواني، ولا يستطيع أن يرفض لهما طلباً.

- وهما أكثر شخصيتين يتنازعان ويتنافسان عليه، وكأنهما ضرتان لرجل واحد، كل واحدة فيهما تريد أن تثبت لزوجها أنها الأحق به.

- أتعلم أن زوج السيدة سلوى هو صديق مقرب للفرنواني بك؟!
- ما أعرفه أنها شخصية قوية، يهابها كل موظفي الشركة ويعملون لها ألف حساب.

نظر بكر إليّ في تعجب شديد ثم همس:
- سبحان الله، لقد أصبحت بعد ذلك أقرب شخص إلى مدام سلوى، أتدري أنني لم أفهمك جيداً حتى الآن؟!

وتطلع بكر إليّ في قوة ثم صاح:

- من أنت يا رجل؟!

قلت لبكر في جدية:

- إياك أن تقع في نفس خطأ سامي عسكر.

ارتعب بكر، ونظر إليّ في قلق:

- بقول لك إيه أنا مش قدك.

قلت في هدوء:

- سامي عسكر هو الآخر لم يفهم طبيعة شخصيتي، وكان ذلك أكبر خطأ قد ارتكبه في حق نفسه.

نظر إليّ بكر في فضول، ثم قال: ممكن توضّح كلامك أكثر.
قلت: عسكر طماع كبير، كان مسيطرًا على كل الإدارات ويستطيع أن يفعل بها ما يريد، إلا إدارة واحدة، فشل أن يمتلك زمامها بدرجة كبيرة، وهي الإدارة التي كنت أعمل بها.
نظر إليّ بكر، وقد امتلأ شغفًا، حتى أنه اقترب بكرسيه مني كثيرًا، محاولاً أن يستجمع كل قواه العقلية.

- طبعاً أنت تعلم أنني كنت أعمل في إحدى الإدارات الفنية قبل تعييني معكم في إدارة المراجعة، وقد كان معي بعض الزميلات، ولم يكن هو بقادر على السيطرة المطلقة على إدارتنا، في هذا الوقت، كانت فيولا سكرتيرته السابقة عندكم في إدارة المراجعة تقوم بنفس الوظيفة التي شغلها أنا بعد ذلك، فيولا كانت مستاءة من تبعيتها المباشرة لسلوي محرز، وقد كانت ترى أن عملها مجرد شيء روتيني جاف يقتصر فقط على القيام بالتوقيع والختم على الملفات بطريقة روتينية، وبحكم خبرتها المحدودة، وعلاقتها الوطيدة بعسكر، فهي لم تقم بعملها إلا في إطار شكلي، فتفتق ذهن سامي عسكر عن أن يضرب عدة عصافير بحجر واحد.

كان عامل الفندق قد جاء بالطعام، فطلبت من بكر أن يشاركني إياه، رفض بكر في أول الأمر، إلا أنني قلت له في حدة:
- إذا لم تأكل لن أأكل حديثي.

مد بكر يديه إلى قطعة لحم كبيرة، ثم قال لي في شغف:
- سأكل .. هيا أكل.

قلت:

- سأل عسكر الأستاذ سمير غطاس، من أسوأ موظف عندك؟!
فلم يكن من سمير غطاس، الذي لا يطيقني هو الآخر، إلا أن قال له
اسمي، حتى يتخلص مني.

ابتسم بكر وهو يزدرد قطعة من الخبز، ثم قال في دهشة:
- عسكر هو الذي رشك لإدارة المراجعة، وهو يظن أنه هكذا
استطاع إرضاء فيولا التي يرتبط بها بعلاقة خفية، وألحقها بالوظيفة
التي كانت ترغبها، وأيضاً ضمن سيطرته التامة على هذه الإدارة.
قلت:

- هو اعتقد أنه قد سيطر سيطرة مطلقة على جميع الإدارات، ولأنني
كنت في نظره مجرد موظف ساذج، ولا أفهم أي شيء في العمل،
فهو بذلك ضمن أنني لن أثير له أية مشكلات وسأقوم بوظيفتي
بطريقة شكلية، أي مجرد أداء روتيني، مثلما كانت فيولا تفعل، مما
جعله يضع في بطنه بطيخة صيفية، بأنني لن أكتشف أو أستخرج
أي ملاحظات أو نقائص، في مستندات ووثائق الفرع.
ضحك بكر، ثم قال بلهجته الصعيدية: يعني هو كان يرى أنك حمار،
لأجل هذا وضعك في هذا المكان؟!

همست في جدية: نعم.

قال بكر: لكن الحمار طلع ثعلب!

نظرت إلى بكر في ضيق ثم قلت: صدقني أنا لم أسع يوماً إلى هذه الوظيفة.

قال بكر في تعجب: كان يظنك أفضل موظف عنده، والحقيقة أنك كنت قد اكتسبت خبرات لا يستهان بها في جميع فروع التأمين. قلت: الإدارة الفنية بمجرد أن تركتها، أصيبت باضطراب كبير، وتعرضت لكم هائل من شكاوى العملاء نتيجة أخطاء فيولا المتعددة.

ضحك بكر ثم قال:

- عسكر بفعلته تلك وقع في شر أعماله، وفقد السيطرة على إدارات الفرع كلها.

همست في تلقائية وأنا أثائب: نعم.

كان الوقت قد تأخر، فنهض بكر مودعاً إياي، على أمل اللقاء، في الصباح الباكر.

٤٢- ريم

قضيت اليوم كله بين جنبات الشركة، مُرحباً بي من كافة الموظفين، وخاصة الأستاذ أنور، والأستاذ قطب، ولم يأت الفرنواني بك أيضاً في هذا اليوم! قالت لي مدام سلوى في حيرة:

- نحن لا نعلم لماذا لم يأت الفرنواني بك! عموماً، اذهب الآن، اجلس في الفندق وحينما يأتي سأتصل بك. لم يتركني بكر الذي أوصى عمال خدمة الفندق أن يحجزوا طعاماً لفردين، قال لي: اليوم أنا لن أتركك.

قلت له: وخطيبتك! ألن تذهب معها لشراء بعض مستلزمات الزواج، كما أخبرتي؟! أنا لا أريد أن أسبب لك المزيد من العطلة والارتباك.

قال بكر، بشهامة الصعيدي:

- لا يوجد عطلة، أبداً لن أتركك، أنا أستمع بوجودي معك، هذه فرصة لا تتكرر كثيراً، ثم إن مشاوير الزواج هذه لا تنتهي، لا بأس إذا أجلت يوماً أو اثنين.

قلت لبكر في أسي:

- لا تشغل نفسك بي، أنا معتاد على الوحدة، لقد اعتدتها حتى صارت أليفاً لي.

نظر بكر إليّ في تعجب ثم قال:

- شد حيلك وأسرع في إتمام زواجك، وأنت تتخلص من الوحدة

نهائياً.

- أتزوج من؟! -

- ريم زميلتك في فرع الإسكندرية.

وكان بكر قد أطلق عليّ قذيفة مباغطة فأصابت قلبي مباشرة،
ارتجفت، وتفصد العرق الغزير من كل مسام جسدي، شعرت،
بدوار، وبهبوط مفاجئ، وأحسست كأن روحي تنسحب مني برفق.
تملك بكر الجزع، صاح بي:

- ماذا ألم بك؟! -

همست بصعوبة:

- لا شيء.

إلا أنه استطرد فقال:

- كلنا نعلم بوجود ارتباط شبه رسمي بينك وبينها، وأنت نفسك،
قلت لي منذ أكثر من عام إنك قد شرعت في اتخاذ خطوات جدية
لإتمام إجراءات الزواج بها.
بعد أن تجرعت كوباً من الماء المثلج، قلت لبكر في هدوء:

- كل شيء تغير.

نظر بكر إليّ في حزن ثم قال:

- حرام أن تضيع كل هذه المشاعر الجميلة!

- انس يا بكر.

- ليس سهلاً أن يجد الإنسان من يحبه.

نظرت إلى بكر في ألم ثم قلت له:

- لم أكن أدري أنك تمتلك هذه المشاعر المرهفة!
- يا صديقي قصص الحب الحقيقية في حياة الإنسان نادرة جداً،
وعليه أن يتمسك بها، بل ويستमित في الدفاع عنها، فهي صدفة ربما
لا تتكرر في العمر ثانية.
- أنت قلت الحب الحقيقي، وما بيني وبين ريم لم يكن إلا وهماً...
أندري يا بكر كيف بدأت علاقتي بريم؟!
انتبهت كل حواس بكر الذي قال:
- هيا.. احكِ لي يا صديقي، أفرج عما في قلبك.

شعرها أسود فاحم، طويل كشلال عطر هادر، عيناها واسعتان،
عميقتان كبئر عسل شهبي، تفاصيل جسدها، بكل منحنياته،
واستداراته، ناعمة، دقيقة، منحوتة ببراعة تسلب لبك وتأخذك أخذاً
لذيذاً مسكراً.
لم أتعهد أن ألقى بنفسي في أتون نيرانها، ولم أكن في حال يسمح لي
بالتفكير في أي أنثى، ولكنني لم أسلم من لهيب أنفاسها، ولا سحر
عبرها.
رهبة!
وهيبة!
وشموخ أنثوي ساحق، اخترقني بمجرد رؤيتي إياها، واقفة أمامي
تسألني في رقة مروعة، عن مكتب مدير الفرع.

ألمنى جمالها، وعقد لسانى من سحر إطلالتها، نهض عادل يوسف،
هرع إليها، والابتسامة تملأ كل وجهه، سألها بصوت خفيض:
- أنت الموظفة الجديدة؟
ولم ينتظر إجابتها، إذ أردف بسرعة:
- ما شاء الله.
وانطلق بها إلى مكتب سامى عسكر.

٤٣- أوتدري!

حين رأيتك أول مرة بشلال الحزن الطاغي في عينيك، وسحابة
الأرق المنتظرة بين يديك، في يوم ماطر من أيام الشتاء، وقد كنت
هناك.

أوتدري؟..

حين ذكرت لي حكايات، وروايات كثيرة عن الأيام، وكيف
نازعتك حتى من في الأرحام.

حين منحتك يوماً كل شيء، لعلك تنهض، لعلك تضحك، لعلك
تدرك أن الفرح آتٍ، وأن عهدك بالظلم قد مات.

أوتدري؟

حين سلمتك سيفي، ودرعي.

كم من جراح قد أثختها، وآلام قد صنعتها وظلم بين قد زرعته في
قلبي؟!

وفي عهد ليس بعهدك.

حين سكبت عسلك وأتيت بعسسك في ظلام الليل وأمرتهم أن
يطرحوا أشياءي.

أن ينزعوني حتى من نفسي.

أن يغتالوا كل ذكرى.

حين اجتمعت حولك كل ذئاب الطريق.

حين أطعمتهم خبزي، وأوسدتهم فراشي وأسقيتهم شربة ماء لا يجوز

أن يشربها إلاي.
ربما كنت ترعى ظنونك أو شكوكك!
ربما كنت تحسب أنك الصواب، أنك تفعل عين الحق وتحارب
الضلال، أوتدري؟
لقد جعلتهم يوثقون يديّ وأمرتهم أن يلقوا بي في قاع بركان هادر،
ما عاد يبصر إلا السواد.
رغم أنني جد حزين، جد متعب لضلالاتك، لأوهامك، لغدرك،
لمن جعلك يوماً تدري أن لا عهد لك إلا بعهدي، وأن حراسك آناء
الليل والنهار لن يمنحوك الدم المقدس، ولن يرفعوك أبداً كي تجالس
الكهان.

فلا تبحث عني، حتى في وادي الذهب لعلك لا تدرك.
لعلك لا تعلم أنني هنا.
أولم تكن تدري يوماً
أنني أنا بك، أو بدونك؟!
أنا..
أنا السلطان.

٤٤- حريم السلطان

ترك بكر الدميري مدام سلوى محرز في مقر المركز الرئيسي للشركة، وألقى جالساً إلى جوارى أمام حمام سباحة الفندق.

كنت أتناول فنجاناً من القهوة التركية، وأستمع بشمس القاهرة الدافئة، بينما بعض الرجال والنساء من الأجانب يلهون في مياه المسبح، شبه عرايا، وخاصة أن مناخ القاهرة في هذا التوقيت، يعد مثالياً بالنسبة لبلادهم شديدة الصقيع.

تحجج بكر لمدام سلوى بأنه سيغادرها إلى الفندق، بناء على طلبي، وأخبرها أنه يود استكمال بعض المعلومات الضرورية مني، وهو في الحقيقة كان متشوقاً لمعرفة بقية تفاصيل العلاقة بيني وريم. وما إن رأيته قادماً عليّ، حتى حسبته جاء ليستدعيني لمقر الشركة، فهممت بالقيام على أمل أن الفرنواني قد وصل إلى مكتبه وأنه في انتظاري، إلا أنه صاح بي:

- لا داعي للقيام، أنا جئت كي أطمئن عليك.

ثم سحب مقعداً وجلس إلى جوارى.

- ألم يصل بعد الفرنواني إلى الشركة؟!

- لماذا أنت متذمر هكذا؟!

وتطلع بكر إلى حمام السباحة ثم أردف:

- كيف تستاء وحوالك كل هذا الجمال؟

- هذا هو اليوم الثالث لي هنا في هذا الفندق، لا زلت في انتظار

الفروناني، ولم أقابله بعد!
- يا صديقي، أنت معزز مكرم في فندق خمس نجوم، إقامة كاملة،
اعتبرها فترة راحة، واستجم قليلاً، يا ليتني كنت مكانك، هيا..
احك لي ماذا حدث، بعد أن تم تعيين ريم في الشركة.
ضحكت كثيراً على فضول بكر، إلا أنه أقسم على أن أوصل الحكي.

ريم كانت تتعامل مع الجميع بشيء من التكبر والغرور؛ فهي تنظر
للـكل بنظرة فوقية، وكأنها آتية من طبقة أرستقراطية عليا، بينما نحن
جميعاً من الطبقة الدنيا.

وفي حقيقة الأمر فإن والدها الذي بلغ سن المعاش، كان مجرد
موظف عادي في إحدى الشركات المنافسة لنا في ذات القطاع.
ألحقت ريم للعمل بإدارتنا كزميلة لي وتحت إشرافي، كي أقوم
بتعليمها أصول وخطوات العمل، وقد كنت أتعامل معها بحرص،
كعهدي في التعامل مع كل أفراد الفرع، وكانت هي تتعامل مع
الجميع بتكلف شديد، الأمر الذي جعل جميع الموظفين يشكونها
لفيولا، متهمينها بالتكبر والتعالي عليهم.
فيولا هي صديقة عسكر المقربة، والتي كانت تشغل في هذا الوقت
بصفة رسمية وظيفة مراجع الفرع، وهي في حقيقة الأمر تشغل
منصباً أهم لدى سامي عسكر، إذ إنها كانت كبيرة حريم الفرع،
والمشرفة على جوارى السلطان.

كنا نقضي معظم ساعات اليوم في العمل، حتى طعام الغداء تناولوه معاً، عادة لا ننصرف إلى بيوتنا وفقاً للمواعيد الرسمية، وإنما قد يمتد بنا الوقت حتى ما بعد الساعة العاشرة ليلاً، وهذا نظراً لضغط العمل الدائم، والذي لا يتفق مع عدد الموظفين، وتراكم الوثائق والتجديدات، التي لا بد أن تنجز في توقيتات محددة، مع إحصائيات يتم إعدادها بصفة دورية.

كل هذا كان لا بد أن يتم بدقة وسرعة حتى لا يتعرض أحد للمساءلة، مما جعل الموظفين يقضون الوقت مع بعضهم أكثر مما يقضونه مع ذويهم، فكانت الأسرار الشخصية تندوال بين الجميع، الذين اقتربوا من بعض كثيراً، بحكم المعاشية الطويلة والتزامن في نفس الظروف الحياتية.

فيولا بصفته المهمة ككبيرة جوارى الفرع كانت تتعامل مع الجميع باعتبارها الزعيمة، وكانت لا تعترف في أعماقها بواقع الدور الذي تلعبه، فتعطي لنفسها قيمة أعلى بكثير من حقيقتها، الأمر الذي يجعلها تظن أنها تشغل منصب السلطنة، وليست مجرد كبيرة الجوارى.

ربما لأن عسكر قربها منه كثيراً، وأطلق يديها لتفعل كل ما تريد، حتى بدون الرجوع إليه، فقد كان الجميع يخشاه وينشد ودّها، ويحاول التقرب منها، فباتت هي من تشرف على كل التفاصيل الخاصة بالحريم، حيث تتابع كافة تفاصيلهن اليومية، من تكون في حالة جيدة، ومن منهن مريضة، أو متعبة، وتتابع تطورات علاقة

كل موظفة بزوجهها أو أبنائها، أو أهلها عموماً، وتعرف حتى متى تلتقي بزوجهها، وكيف كان أداؤه، وهل هو قام بما ينبغي أم كان مملاً، وكذلك علاقتهن جميعاً ببعض، وترصد تطورات تفاصيل يومهن بدقة تحسد عليها.

ثم تذهب بكل هذه الأخبار إلى سامي عسكر، حيث ترتب له ميعاد لقائه بالجرارية المنشودة في مكتبه، أو خارجه وفقاً لمواعيده ومشغوليته، وقد كان أيضاً من ضمن مهامها الفرعية أن تعد له تقريراً يومياً تنقل له فيه بقية أخبار العبيد من الرجال، والذين يحسبون أنفسهم مجرد موظفين.

كل كلامها عنده مصدق غير قابل للشك أو التكذيب، فمن تغضب عليه، تصفه بالإهمال، ويتعرض للعقاب وللجزاء الفوري، ومن يتقرب منها وينشد ودها، ويلبي جميع طلباتها، يصبح الموظف المثالي الذي يستحق المديح والمكافآت، بل والعلاوات السنوية وأعلى التقديرات والمناصب، ويأتي الأستاذ حسونة مدير الشؤون الإدارية بعد أن يفرغ من صلاة العصر ليتأكد من أن الباب مغلق من الخارج، وأن اللبنة الحمراء مضاءة، حيث إنه من ضمن مهام عمله الأساسية متابعة مكتب سامي من الخارج، فما إن يختلي عسكر بإحدى الجوارى، حتى يضغط على الزر الذي يضيء اللبنة الحمراء، فينهض حسونة لتوه ليقوم بحراسة الغرفة الخارجية والتي كانت مقراً لفيولا، وأصبحت بعد ذلك مقراً لإيمي السكرتيرة الجديدة، والتي هي في الحقيقة تأخذ التعليمات من فيولا، شأنها شأن جميع حريم الفرع

أو حتى رجاله.

الحق ليست كل موظفات الفرع جوارى لعسكر، وإنما تبقى نسبة من السيدات والبنات اللاتي لا يتمتعن بالمواصفات التي يهواها عسكر، فكل الدميمات منبذات، ويشكلن فريقاً من المغضوب عليهن، وهن أسوأ فريق يتعرض للمهانة والذل من عسكر وعصابته، ويكلفن دائماً بالأعمال الشاقة، ويأتي تقديرهن السنوي ضعيفاً مهما كان جهدهن، أما الفئة الثالثة، وهي أقلهن عدداً، فهي فئة الجميلات، واللاتي يتمتعن بمواصفات يرغبها عسكر، ولكنهن يرفضن الانخراط في سلك الحريم، وهنا يأتي دور كبيرة الجوارى فيولا بالتعاون مع حسونة كبير الأغاوات لفعل كل شيء ما بين التخويف والترغيب حتى يتمكنا من الإيقاع بتلك البنت، أو السيدة، لتنضم إلى زميلاتنا من الحريم.

قد يصبر عسكر عليهن لمدة، ربما تطول حتى لسنة، ولكنه لا ييأس أبداً، في النهاية هو يستخدم أساليب لا تخطر على بال أحد لمحاصرة الضحية والإيقاع بها، وفيولا كبيرة الجوارى، تسعى بكل الطرق المشروعة وغير المشروعة، لتدبير وتنظيم تلك اللقاءات الحميمة، أما حسونة الذي تجاوز عمره الستين عاماً بزيينة الصلاة في رأسه، وكان قد عاد لتوه من الحج مباشرة، وهو يقوم بدور ككبير للأغاوات، وكذلك يمثل العصا التي يبطش بها عسكر كمدبر للشئون الإدارية، فيضرب الموظفين ويوقع عليهم أشد الجزاءات، ثم يعودون هم إلى عسكر، كي يطلبوا منه أن يتوسط لهم عند حسونة حتى يسامحهم،

ويعفو عنهم، وفي واقع الأمر، فإن حسونة كان لا يضيق على أحد أو يوقع جزاءً إلا بأمر عسكري، كان يؤدي دوره بمنتهى الإخلاص والتفاني، بل والأريحية، على اعتبار أنه لا بد من إطاعة أولي الأمر، كواجب ديني مقدس، وعسكر هنا بالنسبة له كبير أولي الأمر، الأولى بالطاعة المطلقة.

على حسونة أيضاً أن يقوم بمعاينة أي موظفة ترفض التجاوب مع عسكري، حيث نتعرض لأسوأ أنواع العقاب الذي يصل إلى حد التعذيب، أما من يهواها قلبه فتفتح لها طاقة القدر، لتصبح الحاكمة الآمرة في الفرع كله، ولا أحد يستطيع أن يرفض لها طلباً، فتعفى من دفاتر الحضور والانصراف، وتكلف بأعمال خفيفة، ولها الحق في التغيب وقتما تشاء، دونما أي عذر، أو حتى دونما خصم من رصيد إجازاتها.

وكان باقي الموظفين في الخارج غارقين في العمل، مطحونين حتى وقت متأخر من الليل، وهم يظنون أنهم يمارسون عملهم كموظفين، ولكن في الحقيقة هم عبيد عسكري، إلا فريقاً من الرجال، يتمتع بمزايا ومعاملة خاصة باتمائهم وتعاونهم بصورة خفية مع حسونة وفيولا كأغاوات صغار أو حتى تحت التدريب، حتى يثبت الواحد منهم جدارته كأغا محترف.

وبينما يكون عسكري مختلياً بالجارية التي جاء عليها الدور، يمارس حسونة دوره بإرهاب الموظفين، فيدقق معهم في مواعيد الحضور والانصراف، بل ومتى يتناولون الطعام أو الشراب، الذي جعله

وفقا لجداول محددة، بل وحتى دخول دورة المياه لقضاء الحاجة، إلا أنه أثناء ذلك لا يغفل أبداً عن دوره الأساسي في متابعتة اللبنة الحمراء وباب عسكر المغلق، كي لا يزعجه عميل أو موظف، ريثما ينتهي من واجبه المقدس.

وقد تعبت فيولا كثيراً مع ريم كي تضمها لحريم السلطان، وخاصة أنها من النوع الذي يثير عسكر، ولكن يبدو أنها وجدت منها رفضاً شديداً، فما كان من عسكر إلا أن استدعى سمير غطاس المدير الفني للفرع، وعرض عليه الموقف في اجتماع مغلق مع حسونة وفيولا، واتفقوا جميعاً على أن يبدأوا باستخدام أسلوب الترغيب.

وفي ذات صباح، توجهت لعملي كالمعتاد، وقبل أن أهم بالجلوس على مكتي وجدت ريم وقد احتلت المكتب ووضعت كل أشياءه عليه!

قال لي غطاس:

- هذا لم يعد مكتبك، لقد صار مكتب ريم، وهي من الآن مساعدتي الخاصة.

صاح بكر بي:

- إذن لم تكن هذه المرة الأولى التي يستبعدك فيها عسكر من مكتبك، يبدو أنه معتاد على فعل ذلك؟! نظرت إلى بكر في ضيق ثم قلت:

- الأمر أكبر من هذا بكثير، وتلك كانت إحدى وسائل عسكر في تكدير الموظفين، فأنت اليوم في إدارة وغداً في إدارة أخرى، حتى لا تقرر عينك، وتستقر في مكان ما وتنتمي إليه، بل يضعك دائماً في حالة توتر، ويكون انتمائك خاضعاً له هو، ليس للشركة ولا للمكان ولا لأحد غيره، حتى يؤمن الجميع بقوته ونفوذه والتسليم المطلق له، نوع من الحرب النفسية التي يجيدها، وكانت له طرق أخرى أغرب مما تتخيل.

قال بكر وهو منفعل، بعد أن فارت دماء الصعيدي في داخله:
- وهل هناك أغرب مما قد حكيتة؟! هذا لم يكن أبداً مقر عمل، إنه أشبه بال...
- لا تتعجل...
- إذن قل لي ماذا كان رد فعلك، بعد أن أخذت ريم مكتبك؟!

٤٥- سمير غطاس

تلك اللحظة التي سلّم فيها غطاس المكتب إلى ريم، كانت هي اللحظة الفاصلة التي تأكدت فيها أن غطاس مخلوق يمتلك مائة وجه، وليس لديه أي ذرة حياة، فهو يقول الجملة ثم يتراجع عنها في اليوم التالي، دون حتى أن يشعر بذرة من النجل، العجيب أنه في بدء الأمر كان يكره عسكر، ويخوض ضده حرباً كلامية شعواء، يدّعي فيها أنه أكفأ منه وأنه أحق منه برئاسة الفرع، بحكم خبرته وشهادته التي هي أعلى كثيراً مما لدى عسكر.

ونجأة تحول بصورة مدهشة فأصبح عبداً ذليلاً له. وما إن يطلب عسكر أي طلب حتى يسعى لتلبيةته فوراً، وإذا شعر بأن ثمة معارضة من أحد، يصيح فيه بحدة: هذه هي أوامر مدير الفرع، ويجب تنفيذ تعليمات الرؤساء فوراً.

سمير غطاس لديه بشرة غريبة، لا تشبه بشرة البشر، جلده مشدود متوتر، دائماً به لمعة غريبة ربما تعكس طبقة خفيفة من الدهن، يمشي متمواجاً، لا تكاد تشعر به وكأنه لا يمتلك أي قطعة عظم في لحمه، بل لا يوجد أي شيء صلب أو حاد في جسده، مثل شخصيته الملونة، فهو أشبه بالثعبان الخبيث، حين يتحدث لا يصدق أبداً، وإنما يبيث سماً، ونفاقاً، وكذباً.

سمير غطاس، لا يمكن أن يكون مخلوقاً آدمياً مثلنا، يمتلك منظومة من المشاعر والأحاسيس الطبيعة، ربما كان لديه منظومة أخرى

نحن لا نعرفها!

وهو في الحقيقة يقع في المنطقة الوسطى بين الرجل والمرأة، تلك المنطقة التي يقبع فيها المنبوذ من الجنسين.
فهو بالأمس كان يذم في ريم ويعلن للجميع أنها فاشلة ومتكبرة، فجأة صارت هي أكفأ موظفة، وعلى الجميع أن ينفذ أوامر عسكر، وأن تجلس على أفضل مكتب في الإدارة، وتكون لها الصلاحيات المباشرة من بعده.

لم يكن مني إلا أن اصطدمت بريم صداماً عنيفاً، وحدث بيني وبينها مشاجرة كبرى شهداها كل موظفي الفرع...

- كيف تسمحين لنفسك بالجلوس هنا واحتلال مكتي؟!!

- لماذا تحدثني بهذه الطريقة المهينة؟!!

- لماذا أنت على هذا المكتب؟!!

- تلك تعليمات الأستاذ سمير، والأستاذ سامي.

- من يجلس على هذا المكتب يجب أن يكون جديراً به.

- هل تشكك في كفاءتي؟!!

وتصاعدت حدة النقاش، حتى أنني انفعلت كثيراً، إلى حد أن قمت بجمع كل أشياءها من على المكتب وألقيت بها في عصبية على الأرض.

الأمر العجيب، أن غطاس لم يتدخل، بل جلس في مكتبه، وكأنه لا يرى ولا يسمع شيئاً.

انهارت ريم وانخرطت في البكاء، وقامت بجمع حاجاتها، بينما تحلق

حولها عدد من الفتيات.
جاء إليّ أحمد موسى على عجل، وأخذني إلى مكتبه، وجعل يهدئ
من روعي، ثم قال:
- كل هذا لأجل مكتب لا قيمة له؟!

صحت به: هذا مكنتي.
قال: - لا يصح ما فعلته مع ريم، ويجب أن تتغاضى عن مثل هذه
الصغائر، بل وتعتذر لها.

الغريب أنه بعدها لم يناقشني أحد من الرؤساء فيما حدث من
مشاجرة، لا حسونة، ولا سمير ولا حتى عسكر! ربما تمهلوا، ريثما
تحدث مشاجرة أشد وطيساً، إلا أنني تجنبت أي حديث معها،
والتزمت الجلوس في المكتب الذي يجاورها بعد أن أرسلت لها
رسالة شفوية مع إحدى الزميلات، قلت لها: ستعرفين أن ثمن هذا
المكتب غال جداً.

ربما ظنت هي وقتها أنني أهددها، ولكن الحقيقة أنني كنت أعني
الثن الذي ستدفعه لعسكر وعصابته، حاول بعض الزملاء الصلح
بيننا، وأن تهدأ الأمور على اعتبار أننا زملاء في إدارة واحدة،
ولكنني كنت قد اتخذت موقفاً واضحاً بعدم التعاون معها على
الإطلاق، وأن أكتفي فقط بما يكلف إليّ مباشرة من الأستاذ سمير.
وقد تسبب لها هذا في بذل جهد خرافي، كي تثبت كفاءتها بهذا
المكتب، فكانت تمكث أحياناً كثيرة لأوقات متأخرة من الليل، في
مقر العمل.

صاح بكر:

- يبدو أنها علاقة متوترة منذ بدء الأمر، كيف إذن توطدت
علاقتكما معاً؟!

- بعد مضي عدة أيام، بدأ عسكريطالبها بالثمن، فما كان منها إلا أن
رفضت أن تطاوعه في أي من رغباته، الأمر الذي أثار حفيظته
كثيراً، وجعله يضمّر في نفسه شراً، وكالعادة اجتمع بحسونة، وسمير،
وفيولا، واتخذوا قراراً ببدء استخدام العصا، بعد أن فشلت الجزرة.

٤٦- الملف

كانت خطة عسكر جهنمية، استغل ضغط العمل، وقام بإخفاء أحد الملفات المهمة، من عهدة ريم، بمعونة حسونة مدير الشؤون الإدارية الذي يمتلك نسخة ثانية من كل مفاتيح الشركة، تم ذلك بالترتيب المحكم مع غطاس، وفتاة طلبوا من ريم الملف لإتمام إجراءات تعويض العميل.

قلبت ريم كل الأدراج والمكاتب رأساً على عقب ولكن بلا جدوى، وعلى الفور اتصل غطاس بالشؤون القانونية متهماً ريم بالإهمال الجسيم، وقام بالاتفاق مع الأستاذ محمد علاء، محامي الشركة، على توقيع أقصى عقوبة، ألا وهي الفصل.

تبقى لعسكر أن يأخذ بشهادتي التي ضمنها، وفقاً لعلبه بالعداوة الناشبة بيننا، مع تلويحه لي بعودتي لمكتبي ومكاني القديم. نظر بكر إليّ في قلق ثم قال:

- وماذا قد فعلت؟!

- فعلت ما لم تتوقعه ريم نفسها!

على الفور قمت بالاتصال بمكتب الخبير الذي أمدّني بنسخة ثانية مطابقة، عوضاً عن تقرير المعاينة الأصلي، ونظراً لحسن علاقتي بالوكيل، جعلته يستكتب العميل كل الأوراق الناقصة، والمطلوبة منه، وكأنه ينشئ ملفاً جديداً، كما قمت بالرجوع إلى السجلات، وملفات الإصدار بالشركة، واستخرجت صوراً من المحاضر الرسمية،

والتقارير الموجودة، واستكملت الملف بصورة أفضل من الملف الموجود لدى عسكر في مكتبه.

تم هذا في سرعة أدهشتني أنا نفسي، ابتسم بكر وصاح بي:

- طبعاً أنت هكذا ضمنت المكتب وأثبت للجميع أنك الأفضل.

- بمجرد أن استدعاني الأستاذ محمد علاء، وبينما ريم كانت ترتجف، قمت بإخراج الملف له قائلاً:

- عن أي ملف مفقود تتحدث؟! الأستاذة ريم من أفضل الموظفين لدينا، أليس هذا هو الملف الذي يدّعون فقدته؟!

نظر محمد علاء في ذهول إلى الملف، وجعل يتفحصه في دقة شديدة، ولما لم يجد أي ثغرة، أو خطأ قانوني، صبّ جام غضبه على غطاس واتهمه بأنه يتعمد إهانة واضطهاد إحدى الموظفين.

جنّ جنون عسكر وأسقط في يديه، بينما ريم جاءت إليّ والدموع تترقق في عينيها، وقبل أن تشكرني، قلت لها: أنا لم أفعل سوى الواجب.

- كيف؟ بل لماذا فعلت ذلك؟!

- هل يمكن لإنسان يمتلك ذرة احترام لنفسه، أن يترك آخر ليصبح فريسة لذئب ضال من دون يمد يده بالمساعدة؟!

- كنت تعرف إذن أنه يساومني؟!

- الجميع كان يعرف.

- وتركني الجميع لأكون فريسة سهلة بين يديه، بدون أن يتدخل أي شخص لإيقاف هذه المهزلة؟!

- في هذا الوضع تحديداً، كان على الجميع أن يشاهدك، وأن ينتظر موقفاً واضحاً منك، ولا يمكن لأحد أن يتدخل إلا إذا كان متأكداً من رد فعلك، عفواً فربما كانت الأمور تسير على هواك.
- والآن فقط، علمتم موقفني!
- عرفت أن الأمور ليست على ما يرام، حينما أشاعوا في الشركة أنك متهمة، وأنتك أضعت أحد الملفات المهمة.
- ولكنك الوحيد الذي ساعدني؟!
- أنا فقط الذي مكنته الظروف، أي شخص في مكاني لا بد أن يفعل ذلك
- تفعل هذا مع عدوتك؟!
- حتى إذا كنت عدوتي، أنت في النهاية زميلة.
- تحركت ريم لتخلي لي مكتبها، إلا أنني نهرتها بشدة قائلاً:
- اجلسي على مكتبك.
- فغرت ريم فاتها في ذهول ولم تستطع أن تنبس، بينما اغرورقت عيناها بالدموع الغزيرة.
- في اليوم التالي جاء أحمد موسى وقام بدعوتي وريم للغداء، في أحد المطاعم الشهيرة، ومعنا باقي موظفي الإدارة، في محاولة منه للتقريب بيني وريم وإزالة أي رواسب لمشكلات سابقة.
- بكر: وماذا حدث بعد ذلك؟!
- بالفعل قامت بيننا صداقة، وتعاون كبير في كل شيء.
- بكر: ومع الوقت تحولت هذه الصداقة إلى علاقة حب جميلة، قل لي

ما الذي أفسدها إذن؟!
- صدقي أنا نفسي لا أعلم، كل ما رأيته منها هو جحود ونكران فظيع،
في وقت غير متوقع على الإطلاق.. بمجرد أن انتقلت للمنطقة الحرة.
- ربما تخاف عسكرو.
- أترى يا صديقي أن هذا مبرر كافٍ للغدر والتخلي، مجرد الخوف
من عسكرو؟!
نظر بكر إليّ في ألم ولم ينبس.

٤٧- قلق الانتظار

مرت عدة أيام، وأنا في القاهرة، ولما طالت فترة انتظاري للقاء
الفرنواني بك، بدأ الخوف والريبة يتسربان إلى نفسي، تساءلت ترى
ما موقف عسكر الآن؟!

هل هو يعلم أين أنا؟!

هل سيصمت؟!

هل سيتوقف عن فعل ألاميه التي لا تنتهي؟!

ربما هو يجهز الآن مفاجأة كبيرة ستنفجر في وجهي حين ألتقي
بالفرنواني!

فرجل مثل عسكر، لا يؤمن جانبه، ولا تفرغ جعبته أبداً من شتى
الحيل.

وبينما أنا غارق في دوامة عاصفة من القلق والحيرة، دوي رنين
المحمول، لأجد عادل يوسف:

- الدنيا مقلوبة هنا، في الإسكندرية، وأنت تستجم في فندق ه
نجوم!

- أوتعرف أين أنا؟!

- الكل يعرف أنك في انتظار مقابلة الفرنواني، حسونة وغطاس
وعسكر في حالة يرثى لها، وكأنهم ينتظرون حكم الإعدام.

- ليس لهذه الدرجة.

- بل وأكثر من هذا، عموماً لقد اتصلت بك كي تأخذ حذرك.

انتهت بغتة، قلت له في خوف:

- من ماذا؟!!

- أنت تعرف أن عسكر لن يستسلم بسهولة، وما علمته أنه لا زال مُصرّاً على أنك ولد فاسد.

- وما الجديد في هذا؟!!

- لقد أبلغ الفرنواني أنك كنت السبب في الواقعة بينه، وبين عزيز بك العضو المنتدب.

- عجيبة هذه، ولكن كيف؟!!

- هل تتذكر مصنع الملابس الذي كان يمتلكه الفرنواني، والذي احترق منذ فترة قصيرة؟

- بالتأكيد لست أنا الذي أحرقته، إلا إذا كان عسكر يدّعي أنني الفاعل! هذا ليس بعيداً عليه.

- يا أخي، أنت تعلم أن وثيقة تأمين المصنع كانت صادرة من شركتنا، وأن إجراءات التعويض تمت كلها من إدارتك السابقة.

- ما المشكلة إذن؟!!

- هل تتذكر المخزن الذي كان به بضاعة بملايين الجنيهات؟!!

- نعم، وأتذكر أن ثمة مشكلة حدثت بسببه، عند تسوية التعويض،

حيث نشب خلاف كبير بين عزيز بك والفرنواني بك، وكان عزيز بك يرى أن الفرنواني لا يستحق صرف قيمة محتويات هذا المخزن، وفقاً لتقرير الخبير الأصلي والذي تم استبداله عند إجراءات التسوية، ولكن ما شأني أنا بهذا الموضوع؟!!

- عسكرة أقنع الفرنواني أنك من قمت بالحصول على التقرير الأصلي، والذي يثبت عدم أحقية الفرنواني لمبلغ التعويض عن هذا المخزن، وقت بإيصال هذا التقرير لعزير بك.

أرتج عليّ، وتزلزلت الأرض من تحت قدمي!
لم أستطع أن أنبس من فرط الصدمة، إلا أن عادل أردف في قوة:
- تماسك، ولا تعباً بكل هذه المهاترات.

- كيف؟!

- نحن نعلم أن لا شأن لك بأي من هذه المهاترات، وأن الملف كان في حيازة غطاس منذ أول يوم.

- ولكن كيف سيصدقني الفرنواني؟!

- بسيطة يا صديقي، كل ما عليك فعله أن تعلمه أنك طوال هذه الفترة كنت مريضاً، وأن يرجع إلى تاريخ إجازاتك المرضية.

- فعلاً أنا كنت في إجازة مرضية بأمر طبيب الشركة، لفترة أكثر من شهر، حينما أصبت بنزلة شعبية، نتيجة ضغط العمل وعدم سماح حسونة لي بأي إجازة حتى تطورت حالتي إلى التهاب رئوي حاد وتم نقلي للمستشفى.

- تمام، طبعاً حالة الاضطراب التي أنت بها الآن، جعلتك لا تتذكر أن تاريخ غيابك عن الشركة هو نفس الفترة التي وقعت فيها الحادثة، وتمت فيها كل الإجراءات بعيداً عنك، فكيف سيكون لك دور في أي شيء، بينما كنت مريضاً طريحاً للفراش.

سحبت نفساً عميقاً، شكرت عادل يوسف بشدة، فعلاً لم يكن من

- الممكن أن تسعفني ذاكرتي حتى أستطيع ربط زمن غيابي بزمن تلك الواقعة، إلا أن عادل يوسف صاح بي:
- هناك شيء آخر سيجعل موقفك أكثر قوة.
 - أخبرني بالله عليك؟!
 - هذا الشيء سيزيد من مصداقيتك لدى الفرنواني.
 - قل لي إذن.
 - هناك عملية كبرى يسعى عسكر لسرقتها من مكتب السمسرة التابع للفرنواني.
 - قديمة.. هذه العملية كلنا نعرفها، وأنت قلت لي من قبل إن الفرنواني نفسه يعرف بسرقة عسكر له.
 - لا... لا... إنها عملية أخرى أكبر بكثير ولا زالت محاولات عسكر تتم في الخفاء حتى ينجح في إتمام إجراءات نقلها للوسيط التابع له، عليك بإخبار الفرنواني بها.. وساعتها بالتأكيد سيكون موقفك عظيماً.
 - أبلغني عادل باسم العملية، واسم الوسيط الخفي، ونقل لي بيانات ومعلومات أخرى كثيرة، في منتهى الخطورة، حتى أنني سألته في النهاية متعجباً:
 - لماذا أنت تحديداً تفعل ذلك؟!
 - أغلق عادل الهاتف في وجهي، بعد أن قال في حدة: سأتركك لتجيب أنت نفسك على هذا السؤال.
 - ولم أكد أغلق المحمول حتى سمعت دقات متوالية على باب غرفتي،

وحينما نهضت لأفتح الباب وجدت بكر الدميري، وهو يصيح بي:
هيا جهّز نفسك للقاء الفرنواني بك.
- الآن!... الساعة الثامنة ليلاً!
- ستقابله في بيته.

٤٨- اللقاء المرتقب

فيلا كبيرة، أسوارها شاهقة العلو، الباب الخارجي حديدي ضخـم، يقف عليه رجلان مدججان بالسلاح. ما إن اقتربت من المدخل، حتى فُتح الباب وخرج رجل أنيق يرتدي بذلة سوداء، وقيصاً أبيض، يضع حول ياقته يبيون أسود. قبل أن أنبس، أشار لي:

- الباشا في انتظارك.

أفسح الحارسان لنا الطريق، وسرنا معاً في ممشى طويل على جانبيه زهور متنوعة، وأنواع نادرة من نباتات الزينة.

كانت المصاييح الكهربائية، وكاميرات المراقبة معلقة في كل مكان. تبين لي أن الحديقة واسعة بقدر لا يسمح للبصر بالوصول لنهاية أطرافها، فتح الباب الداخلي للفيلا، بمجرد أن اقتربنا منه، ثم سلمني الرجل لسيدة خمسينية ترتدي ملابس فاخرة، وتضع عطراً نفاذ الرائحة، ابتسمت ابتسامة بلاستيكية، ثم تحركت بي حتى تجاوزنا صالة الاستقبال الواسعة، وصعدنا سلماً رخامياً، ثم سرنا في ردهة طويلة مفروشة بالسجاد العجمي، صوب حجرة داخلية، من ضمن عدد كبير من الحجرات.

كانت الفيلا تعج بمجموعة كبيرة من الزوار، بينما التماثيل النحاسية، والتحف الفاخرة تملأ المكان، لا يوجد ركن على الحائط إلا ووضعت عليه لوحة فنية لكبار رسامي العالم، الأثاث كله كان

كلاسيكياً، يتم عن ذوق رفيع.
أدركت أنني داخل قصر نفخ من تلك القصور التي نشاهدها في أفلام الأبيض والأسود.

حين فتحت السيدة باب الحجرة، وأشارت لي بالدخول، اكتشفت أن الحجرة واسعة جداً، وأن ثمة مكتب في نهايتها، تجلس عليه إحدى السكرتيرات.

بتكبر شديد أشارت لي السكرتيرة بإيماءة برأسها أن أجلس، قعدت جالساً برفق على إحدى الأرائك المغطاة بالجلد الأسود اللامع، وما إن التفتت جانبي لأتفحص الجالسين معي، حتى أخذتني المفاجأة!
وزراء، ورجال أعمال، بل ونجوم سينما!

إحدى الممثلات الكبار ممن اشتهرن بأداء الأدوار المسرحية، كانت تجلس ومعها بعض الفتيات، ومخرج ومعد تلفزيوني شهير.
قلت لنفسني: - كل هؤلاء في انتظار مقابلة الفرنواني بك، يبدو أن يومي هذا طويل جداً، بالتأكيد سأكون آخرهم، وربما سترهقه هذه المقابلات الكثيرة ولن يقابلني.

ولكنهم أتوا إليّ بكأس من العصير، وقبل أن أرفعه إلى فمي، وجدت الباب المجاور للسكرتيرة وقد فتح، ليخرج منه الفرنواني بك، متجهاً ناحيتي، متجاوزاً الجميع، ثم وضع يده على كتفي قائلاً:
- مرحباً.

تطلعت في هيئة إلى وجهه، كان يبدو عن قرب أصغر كثيراً في العمر، ربما لأنه كان يرتدي لحظتها، زياً رياضياً بسيطاً.. بنطالون

جينز واسع، وتي شيرت روز، وكوتشي أبيض.
سحبني الفرنواني من يدي في رفق ثم أخذني إلى الحديقة، حيث
الهواء الطلق، كان باشا ضاحكاً وكأنه يلتقي بصديق قديم له.
بعد أن جلسنا على مقعدين من الخيزان، في مواجهة حوض
زجاجي ضخم يمتلئ بالأسماك الملونة، قال لي في ود شديد:
- ماذا تريد؟!

نظرت إليه في دهشة: حضرتك الذي تريد!
ابتسم الفرنواني ثم أردف قائلاً: أنا أعرف عائلة والدك جيداً.
وجعل يحدثني عن أقاربي، أعمامي، وعماتي، وأبناء أعمام أبي، ذكر
مدام أفكار عبد العظيم، ومدح فيها كثيراً، بل وذكر أيضاً أبي
متسائلاً: هل لا زال رئيساً للقطاع التجاري في وزارة السياحة؟!
قلت له في براءة: يا سيدي ألا تريد أن تسألني عن أي شيء
بخصوص الشركة؟!

- بل أنت هنا حتى تسأل وتطلب ما تريد.
تشجعت قليلاً، ثم قلت:
- أنا يا سيدي، أريد فقط أن يتم رفع الظلم عني.
- وأنا لا يمكن أن أسمح على الإطلاق أن يتم ظلمك بعد الآن.
- إذن هل من الممكن أن تعيدني إلى نفس المكتب الذي نزعني
من عليه عسكر بعد أن دفعني بقوة في ظهري، وبمنتهى الإهانة ألقى
بي إلى خارج الشركة؟!
انفعل الفرنواني وأحمر وجهه ثم قال:

- عيب، لا تقل هذا، لا أحد يستطيع إهانتك.
- ولكن هذا بالضبط ما حدث.
- سأضاعف لك راتبك، وسوف أقوم بترقيتك لتصبح مديراً حقيقياً لفرع المنطقة الحرة، سأحضر لك موظفين وجهازاً تسويقياً كاملاً، بلغني أنك تمتلك من الخبرات والكفاءات ما يؤهلك للقيام بهذا الفرع وإنجاحه.
- أطرقت برأسي قليلاً إلى الأرض ولم أنبس، إلا أنه سألني:
- ما رأيك؟!
- أجبت في نجل:
- المال هو مال حضرتك، والشركة هي شركتك، وفي النهاية كلنا تحت أمرك.
- قال في إصرار: - ولكنني أريد معرفة رأيك؟!
- قلت: يا سيدي أنا لا أريد ترقية، ولا راتباً مضاعفاً، ولا أي شيء إلا أن أعود إلى نفس مكثي.
- ضحك الفرنواني بك، ثم قال لي: سأخصص لك سيارة فاخرة بسائق تكون تحت أمرك، وسأجعل لك نسبة من الأرباح، وسأجعلك بنفسك تختار معاونيك من الموظفين.
- ابتسمت ابتسامة باهتة ثم أردفت: كرامتي أهم من كل هذا.
- نظر الفرنواني إليّ بتأثر، وضرب كفّاً على كف، ثم قال:
- كرامتك عندي غالية جداً..
- كرامتك يا ولد من كرامتي.

٤٩- عودة حميدة

ما إن عدت إلى المنطقة الحرة، حتى توافدت تترى عليّ جموع الموظفين، كلهم جاؤوا لتحيّتي... حتى الموظفين في الشركات المجاورة.

حسونة نفسه، ارتسمت على وجهه ابتسامة كبيرة في الصباح، وهو يمد يده ليصافحني، ثم همس في أذني:
- أنا مجرد عبد للأُمُور.

وانتحي سمير غطاس بي جانباً ثم وضع يده على ظهري قائلاً:

- أنت تعلم جيداً أنني لا شأن لي تماماً بكل ما حدث.

بعد مضي عدة أيام اتصلت بي مدام سلوى محرز، وقالت لي:
- مبروك.

قلت لها في لهفة: هل أعادني الفرنواني إلى المنشية؟!

- لقد أعادك لمكتبك، وتمت ترقيةك إلى مدير إدارة، وضاعف راتبك.

- أشكرك كثيراً على كل ما فعلته لي.

- المهم تكون سامحتني فعلاً.

- بل أنا مدين لك بالفضل.

- استعد... سامي عسكر سيستدعيك إلى مكتبه في أي لحظة،

ليبلغك بقرار ترقيةك وعودتك إلى وظيفتك السابقة كمراجع للفرع.

- أتحرق شوقاً لرؤية تعبيرات وجهه.

- الأيام الآتية ليست سهلة على الإطلاق وعليك أن تكون شديد
الحرص.

في اليوم التالي صدر قراران...

القرار الأول، ترقيتي إلى مدير إدارة.

القرار الثاني، ترقية سامي عسكر لدرجة مدير عام.

اتصل بي حسونة مهناً، ثم طلب مني التواجد في المنشية للقاء سامي
عسكر.

٥٠- لا تبال

ضع ما معك، ولا تبال...
 اترك كل أشياءك هنا، ولا تسليني، فقط لا تبال.
 أنصت ولو يوماً، أنصت لصوت ما عاد يعرف كيف يترك.
 كيف يتخلى.
 كيف يداري.
 في الحلق غصة، وكلمة، وفي العين عبرة وذكري.
 لا.... لا تبال
 فما أنت إلا كما اعتدت دوماً، لا تبال، اصعد إلى جبل عالٍ، أو
 اعتل نخلة شاهقة.
 اخلع ملابسك، ألق بنفسك في غياهب جب عميق، ولا تبال.
 تحمل فوق رأسك، ألف ألف من الفكرة، ألف ألف من الذكري.
 نتألم ولكنك تحكي فقط عن الغول والنقاء والحل الذي لم يعد بعد
 من هناك.
 أرايت إن عاد هل ستسكب دمة محبوسة وتنطق بكلمة مغموسة في
 قلب لم يكن يوماً لك؟!
 أو لعله لم يراع أن للقسوة ألف ألف قناع، وأن للدهشة ألف ألف
 باب، ولكن الشمس غداً ستشرق والطير حتماً سيحلق فوق الربى
 فوق الأعالي.
 ستدور الأرض ولن يجف النهر وأنت لا زلت كما أنت لا تبالي.

٥١- العودة

لم يكن لقائي بسامي عسكر بالأمر العادي! القرار صدر فعلياً بعودتي إلى فرع المنشية، وكانت الأوامر الموجهة إليه أن يجتمع معي، وينهي أي آثار أو رواسب لمشاكله القديمة، بل وأن يصلح الحال بيننا، طالباً مني العفو، عن كل إساءاته السابقة. ليس أمراً سهلاً على من في جبروت شخصية عسكر أن يتواضع، ويقوم بالاعتذار!

ليس هيناً على الإطلاق أن يضع نفسه في هذا الموقف الضئيل أمام واحد كان يوماً من صغار موظفيه، مجرد بيدق متواضع لا قيمة له على رقعة شطرنج لجيش يقوم هو فيه بدور الملك الذي تنحني له كل الجباه، ويسبح بحمده أسطول جرار.

فتحت باب حجرته، وبدون أن أنبس بكلمة تحركت في تودة، وجلست على المقعد المواجه له، لم يرفع رأسه، فقط كان مطرقاً وينظر إلى بعض الأوراق الموضوعة أمامه، بغير تنظيم.

بعد أن لاحظ جلوسي المباشر، متخذاً وضعية الإنصات، تشاغل أكثر بولاعة ذهبية كانت ملقاة على مكتبه.

علمت مؤخراً أنه قد عاد للتدخين بشراهة، بعدما كان قد نجح في الإقلاع عن تلك العادة لعدة سنوات، بعد برهة من الصمت المشتعل، أدرك عسكر أنني لن أبدأ بالحديث أبداً، وأنه هو من عليه أن يكسر جبل الجليد.

قال بعد أن أشعل سيجارة، وبدون أن يقدم لي واحدة:

- لا بد أن نفتح صفحة جديدة.

- عن أي صفحة نتحدث؟! أنا لم أفتح أو أغلق أي صفحات، فقط كنت أحاول أن أقوم بمهام عملي، بدون تقصير، مع تجنب الإساءة لأي شخص.

رفع عسكر وجهه إليّ بعد أن اطمأن قليلاً، لذوبان كمية مناسبة من الجليد، ثم قال:

- فلننس كل الأشياء القديمة.

- كيف أنسى الإهانة؟!

- واضح أننا لم نفهم بعض جيداً.

- أعتقد أنني أفهمك بدرجة كبيرة، أما أنت فقد استهنت بي كثيراً، وظلمتني ظلماً بالغاً.

من القدرات الفريدة لعسكر أنه يستطيع التحكم البالغ في ردود فعله، وأثرها على وجهه، فلا يستطيع أحد أبداً أن يسبر أغواره، إنما هو فقط الذي يسمح للآخر برؤية ما يود إيصاله إليه من انفعالات مصطنعة، عسكري يفهم جيداً لغة الجسد، بل وربما كان دارساً لها، فهما اشتدت به الخطوب، ولو كان حتى يحترق من الداخل، فإنه يظل محافظاً على ثباته الانفعالي، ومظهره الخارجي المتناسك، مع قدرات تمثيلية ومسرحية تضارع كبار محترفي التمثيل.

سحب عسكر نفساً عميقاً من سيجارته، ثم دفع بسحابة دخان كبيرة في وجهي، وهو يقول في هدوء مصطنع:

- نحن نحتاجك هنا كمراجع للفرع.
- البركة في الأستاذة فيولا، فهي تقوم بواجبها على أكمل وجه.
- فيولا ليست في مثل كفاءتك، الظاهر أن المكتب كبير عليها.
- صمت عسكر قليلا، وكأنه يستجمع أفكاره، ثم أردف في قوة بعد أن أطفأ السيجارة:
- لا أحد يستطيع القيام بهذا الدور مثلك.
- عادي.
- لا أفهم.
- أنت تعلم أنني أستطيع أن أعمل في أي مكان... في الإدارة الفنية، في المراجعة، في المنطقة الحرة، في أي إدارة.
- نظر عسكر إليّ في مكر، إلا أنني نظرت إليه في قوة وأردفت:
- أنت أكثر واحد يعلم أنه بإمكانني العمل في أي مكان، وبدون أي تقصير.
- ابتسم عسكر ابتسامة صفراء، ثم نهض من مكتبه وأمسك بيدي وأخذني إلى صالة الاجتماعات، لأجد جميع الموظفين وقد جلسوا ينظرون إلى بعضهم البعض، في تعجب.
- قال سامي عسكر، مشيراً إلي:
- باركوا لزميلكم.. فقد تم ترقيته ليصبح مديراً لإدارة المراجعة، الآن هو معنا، في فرع المنشية، ونحن نحتاجه بشدة لضبط سير العمل... عليكم جميعاً أن تتعاونوا معه، وما يطلبه ينفذ فوراً حتى بدون الرجوع إلي... لا أريد أن تصلني منه أي شكوى أو

ملاحظة، ولتعلموا أن من سيثبت عدم تعاونه الكامل معه، سيتعرض لجزاء شديد.

سادت المهمة في أرجاء قاعة الاجتماعات، نظرت نخوي ريم في دهشة، وشهقت فيولا بصوت مسموع، وأخفى مجدي عينيه عني، بينما كاد لحم وجهه يتساقط من الصدمة، حسونة كان يضحك، وهو يضرب كفا على كف، بينما تتم سمر غطاس بعبارات مبهمه بعد أن اسودَّ وجهه، قال عادل يوسف بصوت مسموع: دوام الحال من المحال.

اصطحبني حسونة إلى حجرة مكثي القديم، وابتسامة مصطنعة تملأ وجهه.

وبجرد أن جلست على مقعدي حتى توافدت عليّ جماعات الموظفين، وهم يستفسرون في فضول رهيب:

- كيف حدث هذا؟!

أشار لي عادل أن أصمت، وقبل أن يجلس في مواجهتي، فتح باب الحجرة بغتة وهم سامي عسكري بالدخول.

انفض جميع الموظفين من حولي وعادوا بسرعة إلى مكاتبهم، وقبل أن يغادروا عادل بالخروج أمره عسكري بالجلوس، تطلعت في دهشة إليهما معاً وهما يجلسان في مواجهة بعضهما على الكرسيين الموضوعين أمام مكثي، قال عسكري: - يتبقى لي سؤال واحد عندك؟!

قلت في لا مبالاة: تفضل.

- ماذا فعلت مع محمد علاء مدير الشؤون القانونية؟!

- تقصد ريم، والملف الضائع؟! عفواً الذي قلم إنه ضائع، وهو في الحقيقة قابع في مكتبك؟!
ابتسم عسكر بعد أن احمرّ وجهه، ثم أردف: بالتأكيد.
قلت في تلقائية:

- أنا متفهم تماماً كونك لا تدرك لماذا أنا وقفت معها وأعدت إليها حقها، رغم تعرضي لظلم كبير هي كانت سبباً فيه، بل ولربما اعتبرتي أحق كبيراً، طبعاً حضرتك سألت نفسك وقتها: كيف يقف هذا الموقف مع عدوته؟! وما أستطيع قوله ببساطة، أن كل ما فعلته كان بوازع صعب أن يفهمه من هو في مثل شخصية حضرتك.
ضحك عسكر، ثم قال في سخرية وهو يمتط الكلمة:

- الضمير الإنساني؟!
لم أنبس، إلا أنه استطرد فقال:
- عموماً أنا لا أطلب منك الآن إلا أن تقوم بعملك على أكمل وجه، وبما يمليه عليك ضميرك نفسه، وبدون أن تنحاز لأي جهة على حساب جهة أخرى، فقط أريدك أن تفهم الموقف جيداً.
نظر عادل يوسف إليّ في جدية شديدة، ثم قال:
- أستاذ سامي معه حق في هذه النقطة تحديداً.
التفت عسكر إلى عادل وكأنه يستجد به قائلاً:
- أرجوك يا عادل أفهمه الموقف جيداً.

٥٢- عودة ريم

جاءتني على غير توقع!
وقفت أمام مكتبي، رفعت رأسي إليها وأنا مندهش! نظرت إليّ،
دون أن تنبس ببنت شفة، وتدفع من عينيها شلال من الدموع.
احتبس الكلام في حلقي، تطلعت إليها في ريبة وتركت ما في يدي
من مستندات، كانت فيولا تراجعها معي، تريثت لبرهة منتظراً أن
أسمع صوتها، إلا أنها -وعلى حين غرة- ولّت من أمامي هاربة، بعد
أن أغلقت باب المكتب من خلفها بعنف.
مضت بسرعة، وتركتني والظنون تعصف بي! إلا أن فيولا صاحت
في تعجب:

- هذه الفتاة مجنونة... ماذا ألم بها؟!
قلت لها بصوت خفيض: لا أدري!
قالت فيولا، بعد أن حدقت في عيني بقوة:
- ريم تريد أن تتحدث معك أنت وحدك، وليس أمام أحد.
لم أعلق على كلمات فيولا، وظللت طوال اليوم غارقاً في دوامة
عنيفة من المشاعر المتضاربة، بين الحيرة والقلق.. وجعلت أدور في
دائرة سرمدية، تتشكل كحلقات لا نهاية ولا بداية لها، بين شقي
رحي، كرامة مهدرة، وقلب لا زال جرحه لم يلتئم بعد، حتى شعرت
بدوار شديد، واعتراني ألم رهيب في رأسي لم أشعر به من قبل.

بعد انتهاء ساعات العمل، وقبل أن أتحرك بسيارتي مغادراً، اقتحمت

ريم العربة، وجلست إلى جوارِي، قلت لها:

- ماذا تريدِين مِنِّي؟!

وبدون أي مقدمات قالت بصوت مخنوق:

- كنت تريد أن تتزوجني؟!

تطلعت إليها في دهشة، ولم أنبس، فأردفت:

- أنا موافقة.

- هكذا فجأة؟! ما الذي جعلك ترجعين إليّ ثانية؟!

- لا داعي للخوض في التفاصيل، إذا كنت تريد أن تتزوجني، أنا

موافقة.

واغرورقت عيناها بالدموع.

أسقط في يدي ولم أدِر ماذا أقول، إلا أنها فتحت باب السيارة

وغادرتني فجأة، من دون حتى أن تستمع لردي.

انفجر في داخلي بركان من الغضب.. من الألم.. من الذكريات

المشحونة بكل الانفعالات والأحاسيس المتضاربة.. كنت أتمزق

بين مشاعر الحب التي جمعتني بها، وبين جنونها، وتحولها، وتقلبها.

شعرت بغصة شديدة في حلقي، حين فكرت في تخليها عني غير المبرر،

أثناء فترة وجودي في المنطقة الحرة.

تذكرت يوم قابلتها في بوفيه الشركة، وأنا في أصعب وأحرج

الحالات.. وجعلت كلماتها التي أطلقتها عليّ يومها كرصا ص غادر،

تطن في رأسي:

- ليس بيني وبينك أي شيء، أنت كنت زميلا لنا، والآن حتى لم تعد كذلك.

بعد أن تحركت بسيارتي، رن هاتفي، وجاءني صوت سامي عسكر:
- أين أنت؟!

- أنا في سيارتي.

- جميل جداً، إذن فلتقابلني بعد لحظات في مطعم
قلت بعفوية: لماذا؟!

- أدعوك لتناول الغداء معي.

- الحقيقة...

- هل سترفض دعوتي؟!

لم أستطع أن أرفض دعوة عسكر المفاجئة، قد يكون قبولي من منطلق إثبات حسن النية، وفتح صفحة جديدة، وربما كان الفضول هو الذي دفعني للموافقة.

وضع عسكر أمامي قائمة فاخرة من الأطعمة، بعد أن رحب بي ترحيباً شديداً، كنت أتوجس خيفة من هذا اللقاء المريب، قلت لنفسي، لربما هو يريد مني أن أفعل أي شيء مخالف لقوانين الشركة، وقبل أن أمد يدي للطعام أو الشراب، أخرج عسكر من حقييته ملفاً كبيراً ووضعته أمامي.

نظرت في تعجب إلى الملف الذي فوجئت بما كتب على غلافه.

خاص بالموظفة/ ريم، ومدير التسويق/ أحمد موسى.

فتح عسكر الصفحة الأولى من الملف ثم قال لي:

- شاهد هذه الصور.

وبدأت أتحرك بعيني على الورق والصور.
لم أستطع أن أقرأ الكلمات المكتوبة، فقد غامت عيناى فجأة،
وتشكلت أمامي سحابة ضباب كثيفة، وكدت أفقد الرؤية للحظات.
صور عديدة لريم مع أحمد موسى في كافيات ومراقص، وأماكن
عامة، توقفت كثيراً عند صورة لهما وهما بلباس البحر على أحد
الشواطئ.

أخذ عسكر مني الملف ثم قال وهو يشير إلى بعض الصور:
- هذه مجموعة من الصور التي التقطت مؤخراً لهما وهما في الساحل
الشمالي، وحدهما في الشاليه المملوك لأحمد موسى... انظر، وهذه في
بار..... وهما يحتسيان الخمر.

الصدمة التي كنت فيها، جعلتني أحرك رأسي في تكرار رتيب،
حاولت أن أتكلم، أن أقول أي شيء، إلا أنه عاجلني قائلاً:
- قلت لك من قبل إننا لا بد أن نبدأ صفحة جديدة، ولقد قلت لك
أيضاً إنه ينبغي عليك أن تفهم الموقف جيداً، فثمة أشياء كثيرة،
أنت لا تعلمها.

بعد أن تمالكت نفسي، قلت:

- الآن... ماذا تريد مني؟!

قال عسكر في هدوء:

- لا أريد منك أي شيء، فقط مارس عملك، ولكن بدون أن
تكون أداة أو لعبة في يد أي شخص، قد يحاول أن يستغلك، لتحقيق

أغراض شخصية، أتمنى أن نتعامل مع الجميع بحيادية ودون التحزب لجهة على حساب أخرى.

- أستاذ سامي... أنت تعلم جيداً كل ما كان بيننا!

- لا تنس أنني أول من استقبلك في الشركة وعلمك مبادئ العمل، هل تنكر هذا؟!!

- بالتأكيد أنا قد تعلمت منك الكثير، لا أستطيع أن أنكر هذا أبداً.

- كان يمكنني عدم إطلاعك على أي من هذه الصور، أو المستندات... ولكن صعب عليّ أن أتركك هكذا مخدوعاً يتلاعب بك من لا يستحق.

جمع سامي كل الأوراق والمستندات من أمامي، وأعادها لحقيته، ثم أردف بعد فترة شرود طويلة: لا يمكن لسامي عسكر أن يترك أحد رجاله ليكون مجرد ألعوبة في يد أي شخص، وأنت يوماً ما كنت واحداً من رجالي.

٥٣- أحمد موسى

بصوت عال، غاضب: انهض.
هكذا قال أحمد موسى بعد أن اقتحم عليّ مكتي، ثم دفعني دفعة
قوية في صدري.

- ماذا تريد؟!
- أريد أن أتكلم معك على انفراد.
- تريد أن نتكلم أم تريد أن تتشاجر؟!
- ماذا قلت لزوجتي؟!
- وما شأنني بزوجتك؟!
- لم أكن أتخيل أنك بهذه الوضاعة.
- من منا الذي يتصف بالوضاعة؟!
-

- الصديق الذي يخدع صديقه، ويخطف خطيبته منه، وهو لديه
زوجة جميلة محترمة، وأبناء يحتاجون إلى رعايته.. الصديق الذي
يمتلك كل شيء، المال والمركز والسلطة، يطمع في الشيء الوحيد
الذي كان بين يدي صديقه.. صديقه الذي وثق به، وأطلعته على
كل أسرارته، واعتبره أخاً وسنداً له... صديقه الذي كان يثق في
كل كلمة أو نصيحة تصدر منه.

- لأجل هذا رفعت سماعة التليفون، وأخبرت زوجتي أنني على
علاقة بريم؟!

- أنا غير مرغم على الإجابة، وأنت تعلم جيداً أخلاقي.
- سعيد أنت الآن؟!
- سعيد؟!
- طبعاً سعيد، لقد نجحت في تحقيق كل أهدافك.. عدت إلى مكتبك، وجعلت زوجتي تغضب وتطلب الطلاق، ليس هذا فقط، وبالإضافة لهذا....
- وصمت أحمد موسى ولم يكمل جملته، فصحت به:
- بالإضافة إلى ماذا؟!
- أنت تعلم.
- تقصد ريم؟!
- نعم، لقد أفسدت علاقتي بها هي الأخرى؟!
- ضحكت كثيراً، ثم صحت فيه:
- لم أكن أعلم أنك تمتلك كل هذا القدر من الوقاحة والبجاجة.
- لم يتمالك أحمد نفسه، فهجم عليّ مشتبكاً معي في عراقك عنيف، تجمع على أثره معظم موظفي الشركة، ولم يخلصني من موسى سوى عادل يوسف الذي دفعه خارج المكتب.
- جعل أحمد موسى يردد:
- أفسدت لي كل شيء، لم أكن أعلم أنك بكل هذا الدهاء، عموماً أنا لن أتركك، وسأفسد عليك كل حياتك.
- صحت به: - ريم تركتك، وجاءت إليّ بإرادتها بعد أن اكتشفتك على حقيقتك، أنت إنسان مخادع، أجوف، مريض نفسياً، لكن

الأمر الذي لا تعرفه، ولا تفهمه، أنني لست مثلك ممن يلحسون بصقة غيرهم، فاهم يا صديقي، أنت بمنتهى البساطة تجيد لحس بصقة غيرك، أما أنا فكرامتي لا تسمح لي بذلك أبداً، اذهب إلى حالك، وابحث عن من وشى بك لزوجتك، حتى تشكره، لعله بفعلته هذه يجعلك تستيقظ، يمكن تفيق لنفسك وتراها على حقيقتها.

استمعت ريم إلى هذا الحوار، وهي جالسة على مكتبها كالقطة المذعور، تكاد تمنى أن تنشق الأرض وتبتلعها من الخجل، بعد أن أصبحت سيرتها على كل لسان، نهضت في توتر شديد ثم جمعت كل أشياءها وانطلقت خارج الشركة، وهي تبكي، كانت تحاول أن تهرب أو تخفي نفسها من نظرات الجميع المصوبة إليها كسهام من نار. أعاد عادل يوسف أحمد موسى إلى مكتبه، ثم رجع إليّ، ثم أمر جميع الموظفين بالانصراف من حولي، وأغلق باب المكتب، وأقعى جالساً أمامي.

كان جسمي كله يرتجف، بينما تنهمر الدموع من عيني، وضع يده على كتفي ثم قال: تماسك. قلت في حسرة: تخيل هذا الشخص يوماً ما كنت أعتبره أعز صديقا لي. همس عادل: - لا تغضب، أو تهتز، لا تلقِ بالاً لأي أحد، تأكد أنك على صواب.

صمت عادل قليلاً، ونظر في عيني بقوة ثم صاح:
- ألا يكفيك أن الله قد نصرك علينا جميعاً!

٥٤ - وكأأنك وحدك

كمثل فرخ مذبوح ترقص...
وكأأنك قد تجرعت عمراً من خمر، من عشق، من تيه في زمن
مجنون، في دروب، ودروب تمضي، كما المسحور بين كره وحنين
ورعشة ألم وذكريات تترى.
وكأأنك وحدك...
في أرديتك القديمة ترفل.
في وادٍ من صمت تتأمل..
بلا بوح، بلا أنين.
وكأأنك كنت وحدك.. حين غادرت ديارك، وأضعت روحك.
حين نزعت عنك قلبك وتركت حيناً القديم، وشارعنا الجميل،
حين نسيت أننا
حقاً تعاهدنا يوماً أن نقهر، ظلم السنين.

٥٥ - الغزوة الأمريكية الكبرى

على نحو مفاجئ للجميع، قام الفرنواني بك في صفقة مالية مربحة، ببيع شركتنا إلى شركة أجنبية لتقوم بدمجها داخل ممتلكاتها ضمن شركة أمريكية عالمية كبرى..

وبين عشية وضحاها تم تعديل اسم الشركة، وجنسيته.. فجأة تغيرت كل الأمور، واضطربت كل الأشياء، وسادت الفوضى بين جميع الموظفين، واهتزت موازين القوى الداخلية في جميع أنظمة الشركة وإجراءاتها وسياساتها.

تم تعيين مستر بيتر كلينتون، كعضو منتدب مسئول عن كل كبيرة وصغيرة في الشركة، وتم إقالة عزيز بك، العضو المنتدب السابق، ومعه قطب بك، نائب رئيس مجلس الإدارة، والأستاذ أنور مدير عام الشركة.

تم الاستغناء عن خدماتهم جميعاً، مع تسوية مالية لجميع الأطراف.. والقيام بتعيين الأستاذ رباح اللبناني الجنسية، كمدير عام للشركة، والذي كان واضحاً منذ أول يوم مدى قربته وثقة مستر كلينتون به.

وكذلك تم إلحاق مجموعة، من الموظفين في كافة الإدارات، من أصحاب الجنسيات المتنوعة بين الأمريكية والأوروبية والآسيوية.

اتصلت مدام سلوى محرز بي، قالت لي: لقد أوصيت الأستاذ رباح عليك كثيراً.

قلت في قلق:

- هل ستركين الشركة أنت أيضاً؟!
- أنا مع الفروناني بك، في أي مكان، وتركي للشركة بناء على رغبتى.. وخاصة وأني لا أستطيع التعامل مع الأمريكان.
- وبكر؟!
- كلنا سنغادر الشركة، هذا نظام جديد، وإدارة جديدة، ولكن لا تقلق على نفسك.
- أسقط في يدي، ولم أنبس بينت شفة، فأردفت مدام سلوى:
- أستودعك الله، وأتمنى أن تطمئنني عليك بين الآن والآخر.
- نطقت بصعوبة:
- بالتأكيد، أنت أستاذتي، ومديرتي الغالية، وما فعلته معي من جمائل، أكثر مما تقدمه الأم لابنها.
- ضحكت مدام سلوى، ثم قالت: أنا لست كبيرة هكذا لأكون أمك، يكفي أن أكون أختك الكبيرة.
- الأمر العجيب هو أن سامي عسكر، رغم توقع الجميع رحيله، لا سيما وهو صاحب السجل الأسود الذي يعرفه الجميع، إلا أنه -وبغربة شديدة- تم مضاعفة راتبه، بعد أن أثار إعجاب بيتر كلينتون، بدهائه وحلو حديثه، وشخصيته ذات الكاريزما العبقريّة! الأمر العجيب أيضاً أنه تم ترقية الأستاذ حسونة ليصبح مديراً عاماً للشئون الإدارية، بينما قام الأستاذ سمير غطاس بتقديم استقالته، وغادر الشركة بمجرد أن توفر له عرض مالي مرضٍ، في شركة أخرى منافسة، اجتمع عسكر بجميع موظفي الفرع، محاولاً أن ييث فيهم روح الطمأنينة وأن

يخفف من حدة توترهم، فقال:

- على كل موظف أن لا يقلق على وظيفته، أنتم جميعاً من ضمن أصول الشركة التي يشرف الإدارة الجديدة أن تحافظ عليها، وتمسك بها، وخاصة وأنكم جميعاً كفاءات نادرة، وجودكم إضافة لأي مكان فلا داعي لأن تخافوا على لقمة عيشكم، كل ما حدث مجرد تغييرات شكلية في القيادات.

شركتنا باقية، ومستمرة بنفس قوتها، وتحتاجكم جميعاً كأدوات تمكنها من ممارسة أنشطتها، وكذلك تفعيل برامج أكثر تقدماً. جعلت الريية تعصف بجميع الموظفين، ولم يصدق أحد كلمات عسكر، إلا أنه لم يكن في وسع أي أحد سوى الانتظار، والتمسك بالأمل في غد ربما يكون أفضل.

في نهاية اجتماع عسكر بنا، أعلن عن مجموعة من التغييرات في هيكل الشركة، وبعض التعديلات في المناصب، والإدارات منها: ترقية الأستاذ حسونة إلى مدير عام للشؤون الإدارية، ونقله إلى المركز الرئيسي بالشركة، على أن يكون الأستاذ محمد علاء مساعداً ومستشاراً قانونياً له، مع بقاءه في فرع الإسكندرية.

ترقيتي لأصبح قائماً بأعمال مدير الشؤون الفنية لكافة أنواع وفروع التأمين، ونائباً له، خلفاً للأستاذ سمير غطاس.

نقل الأستاذ مجدي، والأستاذة ريم إلى فرع الشركة في أسوان.

٥٦- توابع الغزوة الأمريكية

في مشهد عجيب!

باب فرع الإسكندرية مغلق بالأقفال والجنازير!

بينما الموظفون ينتظرون في مدخل المبنى.

البعض جالس على مكاتب الأمن الخارجي، والبعض متكئ على

الحائط، وآخرون يفتershون أرض الحديقة الخارجية الكائنة أمام مقر

الفرع.

كان الجميع في حالة ذهول، ولا أحد يدري ماذا يحدث!

تقدمت من عادل يوسف مستفسراً: من الذي قام بغلق الباب؟!

همس عادل:

- رباح بك، ومعه الأستاذ حسونة في الطريق.

قلت له في استنكار: أين الأستاذ سامي عسكراً؟!

قال عادل في بساطة: لن يأتي؟!

- ماذا؟!

- لقد أقيّل، أمس.

بعد برهة قصيرة، حضر رباح، وحسونة ومجموعة كبيرة من موظفي

الشركة من الأجانب، قاموا بفتح الباب، وتركوا الموظفين في

الخارج، تقدم حسونة فحادث الموظفين المترقبين في قلق:

- عليكم أن تنتظروا قليلاً ريثما ننتهي من جرد محتويات المكان.

تحرك حسونة، بعد أن قام بفتح الباب وهمّ بالدخول، ومن خلفه

مساعدته محمد علاء، إلا أن رباح أمرهما بالانتظار في الخارج، مع باقي الموظفين.

همس حسونة في مكر:

- لعلكم تحتاجون إليّ؟!

التفت رباح إليّ، وقام بمصاحفي بحرارة، وكأنه يصاحف صديقاً قديماً، ثم صاح في حسونة:

- أعط البك كل المفاتيح التي معك.

أصابني حالة من الحيرة، والتوتر، كانت عيون جميع الموظفين تحدق فيّ بشدة، طفق حسونة يسلمني في ارتباك جميع مفاتيح المكاتب، والأدراج، والدواليب، ثم تراجع إلى الخلف، وهو مطاطئ الرأس.

اقتحم رباح ومن معه الفرع، ولم يتركوا شيئاً إلا وجعلوا عاليه سافله، فتشوا مكتب عسكر بكل محتوياته تفتيشاً شديد الدقة، وتحفظوا على كل ما به من أوراق ومستندات ونقود، لم يتركوا حتى سجادة الصلاة، والسبحة الكهرمان، وقلبه الممتلئ بالمداد الأخضر.

وبعد أن انتهت مهمتهم، قاموا بغلق مكتب عسكر، ووضع قفل نحاسي عليه، ثم أمروا الموظفين بالدخول، إيمي سكرتيرة عسكر، شرعت في التحرك صوب مكتبها المواجه لمكتب عسكر، إلا أن رباح بادرها قائلاً:

- إلى أين؟!

بهت الفتاة، ولم تنبس، فما كان من رباح إلا أن أشار لحسونة إشارة خفية، فجاء على عجل مانعاً إياها من الدخول.

صاحت به: ماذا يحدث؟!
على عجل أخرج حسونة لها قرار إيقافها عن العمل، وطلب منها أن
تنصرف في هدوء.

سقطت إيمي على الأرض فاقدة للوعي من أثر الصدمة، وتحلق
حولها في اضطراب، مجموعة من الموظفين والموظفات، يحاولون
إفارتها.

سادت الفوضى، وتعالَت الأصوات: أين الأستاذ سامي عسكر؟! هل
تمت إقالته فعلاً؟! كيف، وهو قد كان معنا بالأمس، يطمئنا،
ويؤكد لنا أن كل شيء على ما يرام؟! بل إنه هو شخصياً قد حصل
على علاوة، ومكافأة كبيرة، وصار واحداً من المقربين لبيت
كليتون؟!!

ماذا يحدث؟!!

لماذا لا يتحدث معنا أحد ويفهمنا كل شيء؟!!

كيف تتم معاملتنا بهذه الطريقة؟!!

إلا أن رباح بك، صاح بهم:

- ما هذه الضجة؟!!

للحظات قصار، ساد الصمت أرجاء المكان، جعل رباح يتطلع في
وجوه جميع الموظفين، ثم أردف في حدة: أريد أن أعرف من منكم
الذي يتكلم؟! على المتحدث أن يواجهني بأسئلته! لم ينطق بكلمة أي
واحد من الواقفين!

سحب رباح نفساً عميقاً ثم أردف في قوة:

- على المعارض أن يغادر المكان فوراً، الباب يمرر مائة جمل.
همس عادل يوسف في قلق:

- البنت فقدت وعيها، ونحن فقط نطمئن عليها.
قال رباح في محن:

- لا مشكلة، هذا ظرف مؤثر، ونحن نقدر المشاعر الإنسانية كثيراً،
إذن على المتعاطف معها أن يبقى في الخارج.. ومن يريد أن يواصل
عمله، فليذهب فوراً إلى مكتبه.

في لحظات قصار تدافع جميع الموظفين صوب مكاتبهم، ولم يتبق في
المدخل، سوى إيمي وبعض أفراد الأمن، الذين طلبوا لها
الإسعاف، ولم يتركوها حتى غادرت المكان.

الجميع تلبسته حالة من الدهشة، والقلق والرعب.

لم يكن أحد منا يفهم أي شيء، في كل ما يحدث حوله!
لم يضع أحد في حساباته على الإطلاق أن عسكر، ذلك الجبار، قد
رحل إلى غير رجعة.

بل إن البعض ظل رافضاً غير مصدق، وجعل الموظفون يتطلعون
بين الفينة والأخرى إلى مكتبه، وكأنهم ينتظرون وصوله المفاجئ في
أي لحظة، وخلع هذا القفل النحاسي الموضوع على باب مكتبه، ثم
قلب موازين كل الأحداث رأساً على عقب.

قبل أن أجلس إلى مكنتي، قال لي رباح، بعد أن رسم ابتسامة
صفراء على وجهه:

- لي معك حديث طويل، ولقاء آخر في ظروف أفضل.

ثم حياني، وغادر المكان بعد أن أوصى حسونة بالبقاء في الفرع لحين
استدعائه للمركز الرئيسي.

٥٧- موظفون طبقة ثالثة

كنهائيات أو تصفيات كأس العالم لكرة القدم هكذا أصبحت شركتنا..

من من الموظفين سيتم إقالته؟!

ومن سينتظر للمرحلة التالية؟!

التي ستأتي بعد فترة قصيرة جداً.

في كرة القدم تتوتر الأعصاب لأجل فريق يلعب بكرة من جلد، مجرد لعبة، لأجل تحقيق فوز، يصعد بعده الفريق البطل إلى منصة التتويج، ويحمل الكأس، أما في شركتنا فإن اللعب بات على لقمة العيش...

على مستقبل، ومصير إنسان!

وما إن تصدر القرارات بتخفيض عدد العمالة، حتى يبدأ كل موظف في أي إدارة بالنظر إلى زميله في هلع، وهو لا يعلم أيهما سيبقى، وأيهما سيلقى به في الشارع.

في ظروف غامضة، صعبة، وحال بلد تعاني من أعلى معدلات البطالة، خريجو الجامعات جالسون على المقاهي، دفعة إثر دفعة، إلى جوار آبائهم الذين سرّحوا، في معاش مبكر، بعد أن تم بيع القطاع العام، وخصصته.

أسر بكاملها مهددة بفقد عائلها لمصدر دخله.

سياسات الدولة، في عهد الرئيس محمد حسني مبارك، كانت توسع

الفجوة بين طبقات المجتمع، وخاصة في فترة حكمه الأخيرة، بعد أن بلغ من العمر عتياً، وفتح الباب على مصراعيه لزوجته وولديه، ومن معهم من رجال الأعمال، أصحاب الثروات الطائلة، في انخياز واضح للرأسمالية.

فقراء يزدادون فقراً، وأغنياء تتضخم ثرواتهم وتعملق، مع شبكة فساد عنكبوتية ضاربة في كل مؤسسات الدولة.

جاءتني زوجة مجدي، ومعها أطفالها، كانت تبكي في حرقه:

- أنا أعلم أن مجدي أساء إليك من قبل كثيراً، ولكنني أتعشم فيك خيراً، أرجوك لا تتخلّ عنا.

- مجدي تم نقله لفرع الشركة في أسوان، ولم يعد تابعاً لفرعنا.

- هو لا يستطيع تنفيذ هذا النقل، إن أجرة السكن والإقامة، والسفر وحدها أعلى من راتبه، لقد فعلوا ذلك به، كي يجبروه على الاستقالة.

سألتها في رفق:

- أين هو؟ لماذا لم يأت معك؟!

- رغم أنه لا يستطيع مواجهتك، إلا أنه يعلم أنك صاحب قلب أبيض، وأنت الوحيد الذي يمكن أن تساعد.

- للأسف لا يوجد في يدي أي شيء.

- أرجوك تدخل بما لك من نفوذ واتصالات، لأجل هؤلاء الأطفال الذين سيموتون جوعاً.

- يا سيدتي، في بلدنا لا أحد ينام دون عشاء.

- من قال لك هذا فقد كذبتك، للأسف هذا يحدث مع آلاف الأسر، ألسنت من هذه البلد؟!

كانت زوجة مجدي تبكي في حرارة، بينما أطفالها يلهون من حولها غير مدركين بعد لما ينتظرهم، هم والآلاف من أمثالهم، من مصير مؤلم.

لم يكن بوسعي سوى أن أربت على كتفها وأن أعدها بأني سأبذل أقصى ما في وسعي، قلت لها:

- إن شاء الله خير.

ثم أخرجت مبلغاً مالياً، وأعطيتها لطفلها الأكبر.

رفضت بشدة في أول الأمر، إلا أنني قلت لها:

- هذه هدية مني لأجل ابن أخي، فلا يصح أن ترددها، النبي محمد صلى الله عليه وسلم، قبل الهدية.

قدم مجدي استقالته، كما قدمت ريم هي الأخرى استقالته، بالإضافة إلى الاستغناء عن أكثر من ثلثي عدد موظفي الشركة، وتم استجلاب بضعة موظفين أجانب من أهل الثقة من شتى الجنسيات، صرنا في الشركة ندرج تحت ثلاث طبقات.

الطبقة العليا.. والتي تتمتع بأعلى المزايا هي طبقة الأجانب من أصحاب الجنسيات الأمريكية أو الأوروبية، هؤلاء هم السادة، وأصحاب الأمر والنهي.

ثم الطبقة الثانية.. هي طبقة الآسيويين من لبنانيين أو جزائريين أو حتى من شرق وسط آسيا، وهي طبقة وسطى تابعة للطبقة الأولى

ومنفذة لكل سياساتها، وتمتّع بالكثير من المزايا.
وفي النهاية تأتي الطبقة الثالثة، ألا وهي طبقة الموظفين المصريين،
الذين كانوا متواجدين في الشركة من قبل بيعها وتحويلها إلى شركة
عالمية كبرى.

هؤلاء لا كرامة ولا إرادة لهم، فقد اعتبروا مجرد إرث مهمل
للأجانب أصحاب الشركة والسيادة الجدد، فيحق لهم أن يفعلوا بهم
أي شيء، وكأنهم بامتلاكهم للشركة صاروا يمتلكون صك
عبوديتهم.

قد تكون هناك بعض الاستثناءات، ولكن في أضيق الحدود
الممكنة، مع وضع كل المصريين الذين تم تعيينهم من قبل الإدارة
الجديدة في المنطقة الوسطى، أي الطبقة الثانية.

٥٨- علة ساءنة للممئر

قال لي صمءقو عاءل ءوسف: هءا الممئر مءنون وسمصمنا جممعاً مءله بالءنون!

نظرت إله فو ءهشة؁ ثم قلت له:

- صلى على النبى؁ واهءاً.

لم ىتسم عاءل؁ أو ىضحك كعاءته؁ بل عرق فو تفكفر عمقق؁ ثم شرد بفكره بعءاً؁ حتى أنه لم ىلءظ انصرافى من أمامه؁ وعوءى لءرة مكئى القرىبة من مكئبه.

بعء برهة تبمئت أن ثمة ءءركات عفر عاءفة ءءء من ءولى؁ ثم أءركء أن هناك اءءماعاً سرفاً لمعظم مؤظفى الشركة فو مكئب عاءل.

وعنءما ءوءهء إلهم؁ ءلزموا جممعاً الصمء؁ وكأن لا شىء ىءء؁ ثم انصرفوا ءباعاً؁ ولم ىءبق إلا عاءل الذى جعل ىنظر إلى فو رىبة.

قلت له فو قلق:

- ماذا ءنوى أن ءفعل!؟

قال لى فو هءوء: سأضربه.

لم أءملك نفسى من الضحك؁ قلت له:

- أكىء أنت ءمزء.

قال بسرعة: بل أنا ءاء ءءاً.

ارتسمت على وجهي علامات التعجب، قلت له:
- كيف عقدت العزم على أن تفعل هذا الفعل الأحمق، وأنت
أكثرنا عقلاً وحكمة؟ أنا لا أصدق أن فعلاً كهذا ممكن أن يصدر
منك، هل أنت مقدر لعاقبة هذا الأمر؟!
قال:

- لقد اتفقت مع كل موظفي الشركة أن نقوم بضربه معاً، كضربة
رجل واحد، فيتفرق دمه بيننا جميعاً، وهو سيكون وحيداً في
مكتبه، ولن يستطيع أن يفعل أي شيء، بل سيكون موقفه شديد
السوء إذا علمت الإدارة العليا أن جميع موظفي الفرع قد اجتمعوا
عليه، وليس من المنطقي على الإطلاق أن يستغنوا عنا كلنا ويبقون
عليه هو وحده.

قلت له في قلقي، بعد أن أدركت أن الموضوع حقيقي، بل ومخطط
له منذ فترة:

- ولكن ألسنتُ واحداً منكم، فلماذا لم أعلم بنواياكم هذه إلا الآن؟!
قال:

- لأننا نعلم أنك صديقه، فلم نشأ أن نضعك في موقف حرج.
قلت:

- بل خشيتُ أن تخبروني فأفضح له مخططكم، فإذا كنت ترى أنني
صديقه، فهل نسيت أنني صديقك أنت أيضاً؟!
قال في مكر:

- ولهذا أخبرتك، فهل حقاً ستشي بنا؟!

قلت:

- بل أخبرتي الآن، ويبدو أن هذا قبل موعد التنفيذ بلحظات، حتى لا أتمكن فعلا من إبلاغه بخططكم، أرجو منك أن تراجع نفسك ولو قليلا، قبل أن تقدم أنت وبعضهم، على حماقة كبيرة، لا يعقل أن تأتي منك وأنت كبيرنا، وخير مثال لرجاحة العقل واتزانة. ابتم عادل ابتسامه باهتة، وهو يصحح لي كلماتي قائلا في إصرار غريب:

- تقصد أنني سأفعل ومعى كل موظفي الفرع، وليس بعضهم عداك أنت فقط.

عُين الأستاذ حسين كامل كمدير لفرع الاسكندرية خلفا لسامي عسكر.. وهو رجل أنيق وسيم يشبه نجوم السينما. كان حاداً ذا شخصية قوية، ويمتلك ذكاء وعقلية إدارية جبارة.. ولأنه الخليفة الأول لسامي عسكر، فقد جاء محملاً بتوصيات وتعليمات مشددة، إذ اعتبر أن كل الموجودين في الفرع هم في الأساس شركاء سابقون لسامي عسكر في كل عملياته وممارساته المشبوهة، لحين يثبت العكس..

كان حسين يتسم بالحذر الشديد في كل تعاملاته، ولا يوقع على ورقة إلا بعد أن يتفحصها بعناية فائقة، عُرِف بالحزم والشدّة مع الجميع، دون أي تفرقة، وقد بلغ به من الدقة، حين راجع

مصرفات بوفيه الموظفين، أنه لاحظ إفراط البعض في شرب عصير الليمون، فما كان منه إلا أن يقوم بإحصاء عدد حبات الليمون الواجب استخدامها في صنع الكوب الواحد، ثم في نهاية اليوم يأمر بحفظ المتبقي في خزانة الشركة، بل وقام بعمل إحصائية لعدد ملاعق الشاي في العبوة الواحدة، لمعرفة متوسط عدد أكواب الشاي الناتجة عنها.

في أول يوم عمل له في الفرع، قام بعمل تغييرات لأماكن الموظفين، ومكاتبهم، عامل عادل يوسف بحدة شديدة، ثم أمر بنقل مكتبه إلى حجرة ضيقة، بدون نوافذ، بدلا من حجرة مكتبه الواسعة، إمعانا في التضيق عليه، باعتبار أنه الصندوق الأسود لسامي عسكر، كما أشيع عنه بين قيادات الشركة كلها، ثم قام حسين كامل، بجمع كل الموظفين الباقين وأجلسهم إلى جوار بعض، ليمارسوا عملهم، وهم متكدسون، كمثل طلبة المدارس، في إحدى قاعات الشركة الداخلية، وأمر بغلق جميع المكاتب الأخرى وتركها فارغة، وقد بلغ ببعضهم أن يعتمد في الخفاء أن يثير حفيظته، كأن ينقل كل أخباره واجتماعاته التفصيلية للإدارة بالقاهرة، حتى وصل بهم الأمر يوماً أن جعلوا مدير عام الشركة، رباح بك، يتصل به من القاهرة وهو في اجتماع مغلق مع بعض العملاء في مكتبه بالإسكندرية، ثم يقوم بإخباره بالحوار الدائر بينه وبينهم بالكلمة والحرف، بل ويذكر له أسماء كل الموجودين معه، مع وصف تفصيلي لملابسهم وأشكالهم، الأمر الذي جعله يثور ثورة عارمة، ويظن أن ثمة كاميرات مراقبة

قد ركبت له خلسة في حجرة مكتبه من قبل أحد الموظفين، لم يخل الأمر من دعايات ومقالب كثيرة، كانت تحدث بينه وبين البعض. الأمر العجيب أنني حين اقتربت من هذا الرجل، أبصرت الجانب الخفي في شخصيته، إذ تبين لي أنه يتمتع بخفة ظل غير عادية، وبينما جعل الموظفين يظنون أنه جاء لقطع عيشهم، كان هو يحارب في عدة جبهات، لعدم المساس بأي واحد منهم.

وقد رأيت كثيراً وهو يساعد البعض، كما كان يقوم بحل العديد من مشاكلهم، من دون حتى أن يخبرهم.

حسين كامل، رغم وجاهته الشديدة، قام بدعوتي عدة مرات للقاءه على أحد المقاهي الشعبية، أو مرافقته لتناول بعض سندوتشات الكبة في محطة الرمل، كنت أتعامل معه من منطلق أنه ضيفنا في الإسكندرية، وقد كان يعيش وحيداً بدون أسرته القاطنة في القاهرة، مما جعله يعاني بعد فترة قصيرة، من الوحدة والغربة.

في نهاية اليوم، وقبل أن ينفذ عادل يوسف خطته ومعه موظفو الفرع، تعالى الصباح من داخل مكتب الأستاذ حسين كامل، فاندفعنا جميعاً إلى غرفة مكتبه، وإذا بمشجرة حامية قد نشبت بينه وبين بعض العملاء، ممن لهم بعض التعويضات في الشركة ومعهم بعض السماسرة ممن عرفوا بعدم الأمانة والتلاعب وشبهة التزوير في المستندات، وكان هو لأمانته ودقته الشديدة، قد وصل بهم إلى

حائط سد منيع، بعد أن كشف جميع ألاعيبهم، فما كان منهم إلا أن ثاوروا، وحاولوا الاعتداء عليه.

ومجرد أن ارتفع صياحه، حتى اقتحم جميع الموظفين المكتب، وقاموا بتلقين هؤلاء المشبوهين درساً لا ينسى، وقد كان عادل يوسف هو أول من يقوم بالدفاع عن حسين كامل، الأمر الذي جعله حتى يتلقى عنه بعض الضربات الموجعة.

ثم قام بإخراج حسين كامل من الحجرة على عجل دون أن تمس منه شعرة واحدة، بعد أن انتهت تلك المعركة، نظرت إلى عادل يوسف، وقد امتلأ وجهه بالكدمات، وضحكت.

التفت الأستاذ حسين إليّ في دهشة قاتلا:

- ما الذي يضحكك؟!

تدخل عادل يوسف بسرعة في الحديث ثم قال لي:

- هل فيما فعلناه خطأ ما؟!

قلت في جدية، وأنا أنظر إلى الأستاذ حسين كامل:

- بل إنكم لم تفعلوا إلا الصواب.

في نهاية اليوم قام الأستاذ حسين كامل بإعطاء جميع العاملين لفت نظر، عندما سأله في دهشة:

- لماذا؟!

قال لي: - لأنكم جميعاً السبب في وقوعي بهذا الموقف الحرج!

٥٩- مبارك

هاجمت أبي بشدة، قلت له:

- لماذا كل هذا الحب والإعجاب بحسني مبارك؟!

وكأنه أبوك أو أخوك الأكبر؟؟

ألا تري كل ما نحن فيه من فقر وبطالة، وفساد، وغلاء؟

نظر إلى في حدة ثم قال: عن أي فساد أو فقر أو حتى غلاء تتحدث؟

أنتم لم تروا الفساد الحقيقي الذي شاهدناه، ولم تعيشوا قط الفقر

المدقع الذي عاصرناه، حتماً سيأتي اليوم الذي تعرفون فيه قيمة

الرئيس حسني مبارك.

انفعلت على أبي وقلت له:

- وماذا عن القدس وفلسطين، وهذا الموقف المنبسط للدولة المصرية

بقيادة حسني مبارك، هل هذه هي مصر، قلب العروبة النابض؟

أشعل أبي سيجارة وأخذ منها نفساً عميقاً ثم قال بعد أن جذبني

بشدة من رقبتي، ثم أجلسني في مواجهته عنوة:

- استمع إلي، وأنصت جيداً..

العالم العربي والإسلامي كاملاً خان مصر في حربي ١٩٤٨

و١٩٦٧، الرئيس السوري حسني الزعيم استقبل وزير خارجية

إسرائيل في دمشق سنة ١٩٤٩، وملك الأردن عبد الله الأول سلم

"اللد" و"الرملة" للصهاينة، مما ساهم في زيادة الضغط على الجيش

المصري، أما عن حكومات بيروت فحدث ولا حرج..

هل تعلم أنّ ملك السعودية وقتها أرسل للجيش المصري في حرب فلسطين بقايا أسلحة حملة إبراهيم باشا على السعودية؟! وفي حرب ١٩٦٧ الجيش السوري أعلن سقوط الجولان في يد إسرائيل قبل سقوطها بساعة كاملة، الأمر الذي دفع بالمندوب الإسرائيلي في الأمم المتحدة أن يصيح بالمندوب السوري قائلاً له: - لم يحدث بعد.

وقتها كان وزير الدفاع السوري هو حافظ الأسد، والذي تمت مكافأته من قبل العلويين والبعثيين بعد ذلك بدعم انقلابه وعزله للرئيسين "صلاح جديد" و"نور الدين الأتاسي". الأمر الذي دفع بالسادات أن يقول في حزن: - الأسد وأخوه قبضا ثمن الجولان، وصورة الشيك موجودة في خزانة عبد الناصر.

ألا تعلم ما فعله الملك حسين في حرب ١٩٦٧ وتسليمه الضفة الغربية؟

ألا تعلم دور لبنان وتركيا الاستخباراتي، و بترول إيران والسعودية الذي أديرت به المعركة؟!

ألا تعلم بالقاعدة الأمريكية التي كانت موجودة في ليبيا، والتي خرج منها طيران أمريكي شارك في الحرب؟ التاريخ دائماً يعيد نفسه.. خيانة ومؤامرات!

قطر تعاونت مع المؤامرة الأمريكية حيال سوريا وليبيا ومصر. والسعودية حيال سوريا ولبنان، الجمهورية العربية السورية وقفت مع

إيران ضد العراق العربي في الحرب العراقية الإيرانية، ومصر هي من وقفت بجانب العراق، وكان لها باع في حرب تحرير الأراضي العراقية من الغزو الإيراني الذي جرى في بعض مراحل الحرب. بندقية المقاومة الفلسطينية وجهت إلى صدور الجيش المصري على يد حماس والجهاد.

وبندقية المقاومة اللبنانية وجهت إلى صدور اللبنانيين على يد حسن نصر الله.

العالم العربي والإسلامي كله في حالة تأمر ومؤامرة على بعضه ونفسه برعاية أمريكا.

مصر الدولة الوحيدة في المنطقة التي لم تشترك في أية مؤامرة أمريكية على دولة أخرى.

كل الفصائل الفلسطينية خانت نفسها وخانت باقي الفصائل وخانت القضية.

نظرت إلى أبي في دهشة، ولم أنبس، ولولا أنني أعرف أن أبي لا يكذب أبداً، لكنت صحت به قائلاً:

- هذا هراء.

إلا أن أبي استطرد فقال وهو ينظر إليّ في حزن:

- اليوم إذا حاربنا إسرائيل، ترى بندقية المقاومة الفلسطينية ستكون موجهة لمن؟!

نظرت إليه في ضيق ولم أنبس، إلا أنه أردف: يا بني مصر لا نتاجر بالشعارات والكلام الماسخ.

مصر عظيمة وكبيرة ورئيسها مبارك رجل عاقل، حكيم.. لا يغامر
بدماء وقوت ملايين المصريين الذين ضحوا كثيراً، الذين فقدوا من
الأنفس والمال الملايين.

حتى صار أشقاؤنا يعايروننا بالفقر، بعد أن كنا أغنى دولة عربية...
الرئيس مبارك هو خير خلف للزعيم أنور السادات...
والأيام بيننا، ولعلك يوماً ما تتذكر كلامي هذا، فلا تنس يوماً أن
تذكره لأبنائك.

٦٠ - ٢٥ يناير

عندما قال مبارك عبارته الشهيرة:

- أنا أو الفوضى؟! -

كان الشعب المصري قد بلغ حالة من الغضب لا يفلح معها أي مسكات أو مهدئات، فتدافع الملايين في مظاهرات مليونية حاشدة، ربما لأول مرة تشهدها المحروسة على مدار تاريخها قاطبة.

فقر، وبطالة، وغلاء، انهيار المنظومة التعليمية، وتداعي النظام الصحي، غياب العدالة الاجتماعية، وخلل في توزيع الثروات، استبداد، وطغيان لرجال الشرطة، وأعلى معدلات للفساد والمحسوبية، في كل مؤسسات الدولة.

حتى جاءت انتخابات مجلس الشعب التي أدارها المهندس أحمد عز، القيادي بالحزب الحاكم، وقام بعملية تزوير فاجرة، نتج عنها سيطرة مشبوهة لأعضاء الحزب الوطني على جل مقاعد البرلمان، لتكون تلك هي القشة التي قصمت ظهر البعير.

وحدث حرفياً ما قاله مبارك، فهو ما إن قام بتفويض سلطة الحكم للمجلس العسكري بقيادة المشير طنطاوي، إلا وسادت فوضى عجيبة في أرجاء البلاد، اختفت قوات الشرطة تماماً من المشهد.. وتشكلت عصابات مجهولة الهوية، مسلحة بأحدث الأسلحة، لمداهمة البنوك، وماكينات الصرف، والمحلات، والشركات وكل مؤسسات الدولة، بل والمستشفيات، والمتاحف، وتم ترويع الجموع في المناطق

السكنية من الناس العزل، رجال ونساء.. شيوخ وأطفال، وبات الرصاص الحي يطلق بصورة عشوائية، وحشية، وبكميات هائلة، مما نتج عنه الآلاف من القتلى والمصابين، وسيطرت حالة من الرعب والذعر بين الجميع.

فرض الجيش حظر التجوال، تشكلت لجان شعبية في كل منطقة أو شارع لحماية الناس وممتلكاتهم، واختلطت الثورة بالمؤامرة، من جهات داخلية وخارجية، أجنبية وعربية، حتى غرقت الدولة كلها في مستنقع الفوضى الرهيب.. بين جماعات شتى.. الفلول المتواطئة، والفئات المندسة، والخنونة والمتآمرون من الخارج، وانتقام رجال الشرطة، وسيطرة الجماعات المتأسلمة التي تسعى لفرض نفوذها.

في شارع العزب...

كما تتناوب الحراسة مع بعض ليلا، مع استخدام العصي أو السكاكين، أو السيوف أو حتى المسدسات كوسائل دفاعية شعبية تحمي كل منطقة نفسها برجالها، وكأنها حرب عصابات، الأمر العجيب هو أن المعلم منصور، جارنا القديم، تاجر المخدرات، هو ورجاله صاروا الملاذ الآمن لنا، وباتوا هم المسؤولين عن حمايتنا، وقد كان وجود منصور بيننا، فعلا، هو أعظم درع للمنطقة كلها. وبين عشية وضحاها صار المعلم منصور هو مدير أمن الشارع، الحاكم الأمر الناهي به، فلا يجرؤ أي غريب على الدخول أو الخروج إلى منطقتنا إلا بموافقته، وقد كان هذا مصدر حسد لنا من جميع الشوارع المجاورة.

أغلقت الشركة وتوقفت عن ممارسة نشاطها مثل جميع الشركات والمؤسسات الخاصة، أو التابعة للدولة، وانتشرت الجماعات الإسلامية، وكأنهم يعلنون عن وجودهم على الساحة السياسية بقوة الأمر الواقع، فانتشروا في الشوارع وقدموا الدعم المادي والعيني للعديد من الأسر الفقيرة، مثل السكر والدقيق والزيت، في محاولة منهم لتوصيل رسالة محددة، تعبر عن قوتهم، وكيف أنهم صاروا هم الحل، والملاذ الآمن للشعب.

ساد القلق بين موظفين الشركة، البعض توقع أن توقف الشركة نشاطها تماماً وتقوم بتسريح جميع الموظفين، إلا أن رباح قال لي: - الأمريكان لم يحصلوا على موقع في الأرض المصرية، بامتلاكهم لهذه الشركة بسهولة، فقد كان هدفهم الرئيس التواجد على الأرض المصرية، لذلك فإنهم لن يفرطوا في هذه الفرصة بسهولة، بل بالعكس، إن الفرصة الآن أضحت مناسبة لتمكينهم، وفرض نفوذهم بصورة أكبر.

ولم أفهم وقتها مقصده تماماً، إلا أنني فهمته جيداً بعد مضي عدة سنوات! أعلمني رباح أيضاً أن بعض قيادات الشركة من الأجانب المتواجدين في فروع الشركة خارج مصر، قد قاموا بتجهيز حمولة طائرة من المواد الغذائية، على سبيل المساعدة لجميع زملائهم من الموظفين في مصر، مع استعدادهم لاستقبالنا في الخارج في حال إذا استدعى

الأمر ذلك.

وبينما كانت أقسام الشرطة، ومقار أمن الدولة، تحترق في كل مكان والجميع في حالة ذعر محتجز داخل بيته، لا يغادره إلا للضرورة القصوى، أو في جماعات، أو للقيام بواجبه ليلا مع اللجان الشعبية المسؤولة عن الحراسة.

في هذا الوقت فاجأني عمرو هندي -جاري القديم بشارع العزب، الذي هاجر إلى أمريكا- باتصاله، وهو يعرض عليّ استقبالي وأسرتي في بيته في أمريكا، قلت له:

- ليس الحل هو أن نهجر، ونترك لهم البلد.

قال: ما نراه في الإعلام الأمريكي يجعلني أقلق عليك.

شكرته على اهتمامه، وقلت له:

مهما يحدث فلا تقلق على أو على مصر، ولا تصدق كل ما تسمعه من الإعلام الأجنبي، لا زالت مصر دولة عظيمة.

بعد أن أقيّل سامي عسكري، تعرضت فيولا لمحنة قاسية، وخاصة بعدما تم نقلها لتعمل كموظفة عادية تحت رئاستي، الحق أنني حاولت أن أعاملها بمنتهى الحيادية، وقد راعيت من المنطلق الإنساني، حالتها النفسية، المنهارة بعد رحيل عسكري.

ولكنها لم تتحمل وجودها تحت رئاسة شاب يصغرها بأكثر من عشر سنوات، بعد أن كانت هي المتحكمة الآمرة للفرع كله فقدمت

استقالتها، وتركت الشركة.
الأمر العجيب أنني علمت بعد ذلك أنها حاولت التواصل مع عسكرو
إلا أنه تنكر لها، فما كان منها إلا أن اعتزلت الناس، ومكثت في
منزلها، مع حالة من التدين الشديد، وصلت بها إلى الزهد في الحياة
كلها، حتى سلكت في النهاية طريق الرهينة، واعتكفت في أحد
الأديرة المقدسة، في صعيد مصر.

٦١ - مريم

مريم... ابنتي
مريم ذات الستة أعوام، سألتني في حيرة:
- أين الله؟!
تطلعت إليها في ذهول ثم قلت:
- في السماء، وفي الأرض، في داخلي، وداخلك..
نظرت مريم إلي في دهشة ثم قالت: كيف يكون في داخلك وفي
داخلي في نفس الوقت.
قلت:
- الله موجود في كل زمان ومكان.
صاحت بي:
- أرني الله.
قلت: ولكنك ترينه بالفعل... ترينه حين تنظرين إلى زهرة جميلة،
أو تبصرين بحراً ممتداً بروعة أمواجه، أو يأخذك نظرك عبر بديع
سماواته.
إذا أردت أن تشاهده حقاً، فتفقدني كل من حولك..
ومن قبل نفسك.

٦٢ - الكفيل

لم يكن طارق وليد ثقافة عادية، فهو الذي نشأ بين أحضان عائلتين كبيرتين، من كبريات عائلات البلد سواء من ناحية أبيه، أو أمه... فهو قريب لوزراء وأساتذة جامعة وعمداء لكليات، ولواءات وقيادات سياسية وأطباء مشهورين ورجال أعمال يمتلكون الملايين...

وهو رغم كونه تربى في بيت مثله مثل كل بيوت الطبقة المتوسطة، إلا أنه شديد الاعتداد بنفسه، فهو يرى أنه حالة فريدة، بشخصيته وثقافته التي هي مزيج بين الحضارة الفرعونية، والعربية، والرومية، كملاحه التي ورثها عن جدوده الأتراك..

حينما ضاقت به سبل الحياة في مصر، أرسلت له ابنة خالته مشيرة ليلحق بها في إحدى الدول العربية، ومشيرة هي بالفعل أخته الكبرى التي يعتز بها ولا يرفض لها طلباً..

ولكن هل يقبل طارق أن يتحول إلى مجرد مغترب، أو مواطن درجة ثانية، يرتبط بنظام الكفيل؟!

هل يقبل طارق أن يكون له كفيل؟! هذا النظام المعمول به منذ عشرات السنين.. ربما كان كفيله رجلاً أميناً، لا يحمل أي مؤهل تعليمي، وربما كان جلفاً غليظ الطباع. فهل سيقبل طارق أن يكون عبداً في نظام جديد يستتر تحت مسمى وهمي عجيب؟!

٦٣- ضياء اتحاد الكتاب

شغل المهندس الشاعر ضياء طمان، منصب نائب رئيس اتحاد الكتاب فرع الإسكندرية، وكان نشيطاً مجتهداً يمتلئ بالطموح والآمال العريضة، فجعل مقر الاتحاد قبلة لكل الجادين من الكتاب، في الإسكندرية والبحيرة، ومطروح، وبرج العرب، بل ومن شتى المحافظات.

وشهد الاتحاد في عهده مجموعة من أقوى وأرقى الندوات واللقاءات الفكرية، كما أنه شكّل عدة لجان لكل فروع الإبداع، ترأسها كبار كتاب الإسكندرية للقصة، والرواية والأبحاث النقدية، بل وللمسرح، حتى أنه طلب مني الإعداد لورشة مسرحية تعقد في مقر الاتحاد أسبوعياً، وكان المرحوم المخرج سيد الدمرداش يجهز وقتها لعرض مسرحيتي "أنا الملك"، فعرضت عليه الفكرة فرحب بها كثيراً، وسارع بالحضور وتجميع كوكبة من ممثلي الإسكندرية، تحت إدارته، وكانت الأجواء وقتها مشتعلة بين جبهتين من كبار الكتاب، الأمر الذي جعلهم يشنون حرباً شعواء ضد ضياء طمان.

وقد ساندته في موقفه بعض الكتاب الكبار، أمثال مبارك، والفخراي، وعبد الفتاح مرسي، ومحمود عبد الصمد زكريا، والإعلامي الشاعر عاطف الحداد.

قدم ضياء نشاطاً وجهداً رهيباً لم يسبقه إليه أحد من قبل، إلى حد كونه بات شبه مقيم في مقر الاتحاد، فلا يغادره إلا للنوم، الأمر

الذي جعل معظم الكتاب يتفقون على دعمه الكامل.
ومن الأمور العجيبة أن المهندس ضياء، عندما رأى أحد الكتاب
المعروفين بغرابة أطوارهم سألنا عنه في استياء، هل هو مريض
نفسياً؟!

قلت له:

- لا شأن لك به.

إلا أنه حسب أن وجود مثل هذا الشخص قد يسيء للمكان.
معظم الحضور ذكروا له أنه مبدع متميز، وعضو عامل باتحاد كتاب
مصر، ولكنه سألني عن شهادته، وصدمته معلومة أنه تخرج في كلية
الهندسة، وهنا شعر ضياء بأنني أسخر منه، الأمر الذي دفعه أن
يجتمع بذلك الأديب، ويسأله عن بعض الأمور التي تزججه، فهو يراه
دائماً في ملابس متسخة، شديدة التواضع، ولا يرتدي أبداً في قدميه
إلا شبشباً مهترئاً، حتى لحيته دوماً طويلة غير مهذبة!
وطلب مني أن أكون قريباً منهما حتى يكشف لي كذب وادعاءات
الرجل، ولكن بشرط أن لا أنبس بكلمة.

جلس الرجل في هدوء، والابتسامة لم تفارق شفثيه، لم يكن يشعر
بأنه في اختبار حين سأله ضياء: أنت خريج دفعة أي سنة؟
وكانت المفاجأة أن الرجل أخبره أنه حاصل على ماجستير في
الهندسة من دولة ألمانيا، وأنه عمل هناك عدة سنوات، والأعجب من
هذا أنه يتحدث ويحيد ثلاث لغات؛ الإنجليزية والألمانية والفرنسية،
بخلاف لغته الأساسية العربية.

فغر ضياء طمان فاه، ولم يصدق أذنيه وهو يسمع الجمل الفرنسية والألمانية تنساب من شفتي الرجل، وتحول موقف ضياء فانهمر العرق الغزير منه، وأمسى وكأنه هو الذي في اختبار للقدرات، أمام المعلومات الهندسية الدقيقة التي ذكرها الرجل، ثم تحول إلى الحديث في السياسة والثقافة العامة، وربط هذا بتجربته الإبداعية، وتحدث عن مشروعه النثري وما يهدف إليه من إحداث تغييرات في طرق النقد وتناول الأعمال الفنية، مستعينا بالعديد من المدارس الغربية الحديثة وآراء كبار كتّاب العالم مثل إدجار آلان بو، وموباسان، وماركيز، وكان يلجأ أحيانا لآراء توفيق الحكيم، وطه حسين، وأمل دنقل، ونزار قباني.

ضرب ضياء طمان كفًا بكف ونظر إليّ في ذهول، إلا أنني أردفت:

- لدينا حالات كثيرة مثل صديقنا هذا، هل تحب أن تجلس معها؟

٦٤- مصر هي أمي

تهاوت أمي...
سقطت على الأرض بعد أن نظفت سجادة الصالون في شرفة منزلنا،
حملتها وحدها ثم أعادتها إلى أرضية الحجرة، وجلست لتلتقط أنفاسها،
كانت تعاني من آثار بقايا دور برد ألم بها، إلا أنها ما لبثت أن
غرقت في دور سعال عنيف، وبغثة وقعت مغشياً عليها...
ثمّة شريان صغير في المخ، يرشح دمًا، وقد ينفجر في أي لحظة!
صفعتني كلمات الطبيب، وهو يتفحصها، ثم يستطرد في جدية
شديدة:

- الحالة خطيرة ادعوا لها، إنها بين الحياة والموت.
- لم أمتلك نفسي من المفاجأة، حتى أنني صحت به:
- أنت طبيب جاهل ولا تفهم أي شيء..
- سحبني خالي نصر العزب بعيداً عن الطبيب الذي لم يبدِ أي رد فعل،
إلا أنني واصلت في حدة:
- كيف يقول هذا بدون أن يجري أية أشعة، أو تحاليل؟!
- وهمست أختي دينا في صعوبة:
- هو الآن يطلب منا كل هذه الفحوصات والأشعات وعلى وجه
السرعة.
- قلت لها:
- أمي صحتها جيدة، هذا الطبيب ما هو إلا أفق كبير.

تتوقف لبرهة على عتبة من عتبات نفسك المظلمة، تطرق طرقاً خفيفة، ثم تدلف إلى الداخل...
ولا تبصر إلا عدماً، وتتساءل في دهشة:
كيف هذا؟!

أنا لا أرى شيئاً.
وكأنك أصبت بالعمى.
ولا تسمع شيئاً.

وكأنك أصبت بالصمم.
وتكتشف أنك تقف أمام الحقيقة، وأن الأشياء كلها تتجسد أمامك بغتة.. حياتك الماضية، مشاعرك، لحظات الألم والفرح، ضحكك، نحيبك، أول يوم لك في المدرسة، أول دقة قلب وموجة حب، ورعشة قبلتك الأولى، وصفعة والدك الأولى، وحضن أمك، وقلب أمك، وعين أمك، وصوت أمك، ودمعة أمك، وصيحة انتصارها وزهوها بنجاحك، ودرجاتك، وعملك، وزواجك...

وتدرك أن للحقيقة وهجاً، وضوءاً كضوء الشمس، وأنها من شدتها تجعلك تفقد توازنك، وإبصارك، وسمعك وإيمانك بأشياء كثيرة...
قالت خالتي ليلي:

- هذه مستشفى جمال عبد الناصر العريقة، وهي تابعة للتأمين الصحي، وفيها يتم إجراء مثل هذه النوعية من العمليات.
وقال لي الجراح الذي ذهبنا إليه:
- أنا أعلم أنها معلّمة، ولديها الحق أن تجري هذه العملية في عبد

الناصر، ولكن....

نظرت إليه في دهشة ثم قلت:

- ولكن ماذا؟!

إنك جراح ماهر، وقد أجريت مثل هذه العملية هناك عشرات

المرات، ثم كيف عرفت أنها معلة؟!

وضع الجراح ما معه من أشعة وأوراق ثم همس:

- لأنها معلتي القديمة، كنا نحبا لتفانيها في عملها، ومعاملتنا كأبناء

لها، فلم تكن يوماً قاسية على واحد منا، ولم تعط قط لأحد درساً

خاصاً بمقابل مادي، بل كانت كثيراً ما نتطوع فتمنحنا دروساً

مجانية، حتى هدايانا لها لم تكن تقبلها إلا إذا كانت مجرد وردة أو

زهرة جميلة، كنا جميعاً نعتبرها أمّاً ثانية لنا، هذه السيدة العظيمة تعلم

على يديها المئات من الأطباء والمهندسين والعلماء، وغيرهم في شتى

المجالات.

غمرتني كلماته براحة، وطمأنينة كبيرة، وشعرت وكأن الله قد أرسل

لها هذا الجراح ليرعاها، فهمست به لائثداً ومستجيراً: أرجوك قل

ماذا نفعل؟

- أولاً نصف نجاح العملية في التمريض والعناية المركزة، ولا أخفي

عليك سرّاً، في رعاية جمال عبد الناصر، لن تجد إلا أسوأ خدمة

وأقل اهتمام، ناهيك عن التلوث، وسوء التعقيم، هذه عملية

خطيرة، تحتاج عناية فائقة.

قلت له: وماذا عن ثانياً؟

ثانياً وفقاً للإجراءات المتبعة لن تجرى العملية هناك قبل شهرين على الأقل.

نظرت إليه في جزع، ثم قلت:

- وهل تحتمل أي كل هذه الفترة؟

- حالتها لا تحتمل الانتظار حتى إلى الغد، الشريان مهدد بالانفجار في أي لحظة، وساعتها لا قدر الله..

وهنا قاطعته قائلاً:

- هذه العملية كم ستكلف؟!

وصفغني رده، رغمًا عن الخصومات الكثيرة، التي منحها لها، وتنازله عن أجر يده كاملاً، إكراماً لكونها معلمته، وجلست أفكر،

كيف لي أن أدبر هذا المبلغ الضخم، وعلى وجه السرعة؟

الوقت ينفد وأمي تتألم، والحالة خطيرة.

هل هو الألم؟

أم هي مجرد عبارات، لا معنى، ولا جدوى منها؟!

ربما لا يوجد في العالم كله كلمات تستوعب مقدار الحيرة والعبث،

والحزن المحفور في حنايا القلب، في أعماق الروح المتعبة، والعقل

المنهك دائماً.

ربما لا نستطيع أن نخرج ما بداخلنا من لواجج مهما طال الزمن، مهما

تغيرت الأماكن، والأشخاص، ولكننا نحاول دائماً، وقد نفلح مرة

أو نفشل عشرات المرات.

عندما علم أبي بمقدار المبلغ اللازم لعملية أمي جلس في حجرته وحيداً

وأطفأ نور المصباح وجعل يعود أدراجه بكل سنوات العذاب
والشقاء التي جمعتها معاً..

هو يعمل ويكدّ وينفق كل ما يحصل عليه في تربيتنا وتعليمنا، وهي
تشاركه في كل شيء، وتضع صحتها في خدمتنا جميعاً..

أخبرتني أختي دينا أنه أغلق علي نفسه باب حجرته، لا يأكل، ولا
يشرب، ولا يريد أن يحدث أحداً، فقط يدخن بشراهة مفرطة.

هل هو الإحساس بالقهر المطلق؟!

أن يخفني من أمامك شريك عمرك، أن يموت ببطء وأنت عاجز أن
تفعل له شيئاً...

أي شيء...

ما يملكه أبي لا يتجاوز مقدار معاشه الشهري، فهو قد أنفق كل ماله
وعمره في تربيتنا.

أبي رجل، كان يعمل بإحدى شركات القطاع العام، وأحيل
للتقاعد وهو بدرجة وكيل وزارة، ولا يملك في النهاية مالاً ينقذ به
شريكة عمره!

تركت أُمي تنزف في المستشفى، وانطلقت إلى والدي مسرعاً، فتح
لي باب حجرته دون أن أطرقة.

لم ينبس بكلمة، فقط تأمل وجهي في حزن وأقعى جالساً.

هل هي الحياة، تأخذنا على حين غرة وترفعنا إلى أعلى الدرجات، ثم
تلقى بنا في غياهب العجز والقهر بغتة؟!

نظرت إلى أبي واعتصر الحزن قلبي، ذلك المنشطر نصفين عليه، وعلى

أمي تلك التي تصارع وحدها الحياة والموت معاً، تصارع زمناً سحرياً عجيباً يتسرب من بين أيدينا في سرعة مذهلة..
ذلك الزمن الذي نراه عابثاً لاهياً عنا، وقد نبصره يوماً يلاعبنا ويهددنا، ثم يبتسم ويضحك ملء شذقيه هزواً وسخرية منا.
بالتأكيد هو زمن عجيب، ولكنه عميق، ونحن مجرد دمي لاهثة، يحركها بأصابعه، ثم يلقي بها في غياهبه السرمدية المذهلة.
وبينما أُمي تنزف دماً، كان أبي ينزف قهراً وعجزاً، أبي الذي طفق يحيا ويموت في أعماق نفسه في الدقيقة الواحدة، آلاف المرات.
تذكرت إخوتي..

أختي الوحيدة دينا..

تعمل بأجر زهيد في إحدى المدارس الخاصة، وهي خريجة مدرسة فيكتوريا للغات.

دينا لا حول لها ولا قوة، لا تكف عن البكاء، وهي المرتبطة بأُمها ارتباطاً عجيباً، وكأنها لا تعرف في الدنيا أحداً سواها، فهي أُمها وأختها وصديقتها الوحيدة.
أما أخي الصغير طارق...

خريج الاقتصاد والعلوم السياسية، فهو لا يعلم شيئاً عن حالة أُمه الخطيرة، إنه يعمل في إحدى دول الخليج، ولم يلبث أن يستقر به الحال هناك إلا منذ بضعة أشهر، وقد غادر مصر بعد أن ترك عمله مضطراً، بسبب مدير المؤسسة، التي كان يعمل بها، والذي كان ينتهج كل الوسائل غير الشرعية، اختلاساً وتزويراً وتلاعباً في

كشوف المصاريف، والإيرادات والضرائب بل ورواتب الموظفين، كنت قد حذرته من مغبة ترك عمله، فالبلد حالتها سيئة، وتمتئ بالملايين من المتعطلين عن العمل، قلت له:

- لا عليك، طالما أنك تعمل بضميرك، ولا تنساق إلى أي من ألاعيب هذا الفاسد، الذي شأنه شأن معظم مديري مؤسسات دولة مبارك، إلا أنه وجد نفسه يواجه وحده بحافل تترية، من الفساد المقتن، البيروقراطي، فلم يكن المدير وحده فاسداً، وإنما هو مجرد جزء من تنظيم أخطبوطي عملاق يعمل في الخفاء، مدعوماً من أعلى جهات سيادية في الدولة، حتى وصل الأمر بهم إلى تديرهم للعديد من المكائد للإيقاع به، وزجه في السجن، وخاصة أنه بات عقبة كؤوداً في طريق طموحاتهم الدنيئة، فلم يكن أمامه من حل سوى أن ينجو بنفسه، أو يغرق معهم في ذات المستنقع العفن.

وبصعوبة بالغة، وبعد مضي عدة أشهر من تعطله عن العمل، تمكن زوج مشيرة ابنة خالته -المقيمة في الخليج منذ عدة سنوات- من توفير عمل له، حتى ثمن تذكرة الطائرة، دفعتها هي له.

أما أخي أحمد خريج السياحة والفنادق، فقد كان يشغل منصباً مرموقاً، في إحدى الشركات التي تعمل في مجال السياحة بالقاهرة، بيد أنه بعد قيام ثورة يناير، عمت الفوضى أرجاء المحروسة، وسادت نظرية المؤامرة، وسعت جهات كثيرة داخلية وخارجية، مصرية وأجنبية وعربية، لإسقاط الدولة بكل مؤسساتها، وكان أول الضحايا وأكبرها النشاط السياحي، ووجد أحمد نفسه بين عشية وضحاها شبه

عاطل عن العمل، لولا أن أرسل إليه أحد أصدقائه في شرم الشيخ ليلتحق بوظيفة بسيطة في أحد الفنادق التي لا زالت بالكاد تعمل. عندما علم أحمد بمرض أمنا أخبرني تليفونيا أنه سيرسل ما يستطيع إرساله من المال، ولما سألته عن مصدره، قال لي إنه اقترضه من أحد أصدقائه.

٦٥- أنا كاذب!

نعم كاذب..

ولكن هل كان هناك أمامي من سبيل آخر سوى الكذب؟
وجدتني أصيح في وجه أبي:

- ماذا بك؟!

لا عليك، أنا أمتلك نقوداً تكفي العملية وتزيد.

نهض أبي من مكانه وقد ردت إليه روحه بغتة، وجعل يصيح
بكلمات غير مفهومة، أتذكر آخرها حين قال في فرح ممزوج بشجن
عميق:

- أنا كنت أعلم أنك لن تتخلي عن أمك، وأنتك لن تخذلي أبداً.
ودعا لي دعوات كثيرة، وهم بتقبيلي، إلا أنني احتضنته بقوة ثم
داعبته قائلاً:

- الآن لا بد أن تأكل.

وهبطت من عند أبي والدنيا تدور بي، كيف لي أن أجمع كل هذا
المال؟!

لقد كذبت على أبي وأوهمته أنني قادر على مصاريف عملية أمي، إذ
لم يكن بمقدوري أن أتركه هكذا ينازع همّه وضعفه وهو الرجل
السبعيني المتهاك.

وأنا في الحقيقة لا أملك سوى راتي ومبلغ كنت ادخرته تحسباً
لمصاريف ولادة زوجتي الحامل في شهرها الثامن.

أنا كاذب...

نعم كاذب، ولكن لولا هذا الكذب لربما تعاظمت مصيبتى وخسرتهما، هما الاثنين معاً، فليكن ما يكون، ولكن عليّ الآن التصرف بسرعة.

أبيع أي شيء، السيارة القديمة، ساعتى الذهب، أقترض من الشركة التى أعمل بها، آخذ مالا من أصدقائى وأقاربى، المهم أن أتحرك بسرعة، وأسابق الساعات والدقائق، فهل سأنجح حقاً فى سباق الزمن؟! هل هو الألم؟

أم هي مجرد جمل لا معنى لها، ولا جدوى منها؟! ربما لا يوجد فى العالم كله أي كلمات تستوعب مقدار الحيرة والعبث والحزن المحفور فى حنايا القلب، فى أعماق الروح المتعبة، والعقل المنهك دائماً، ربما لا نستطيع أن نُخرج ما بداخلنا من لواجى مهما طال الزمن، مهما تغيرت الأماكن، والأشخاص والظروف... ربما..

ولكننا نحاول دائماً، وقد نفلح مرة أو نفشل بضع مرات.
أنا كاذب...
نعم كاذب!

٦٦- ذكريات مهمة

قد نتذكر بعضاً من المواقف الخطيرة في حياتنا، وقد ننسى مع مرور الزمن، ولكن ثمة مواقف لا يمكن نسيانها مهما دارت الأيام، وتبدلت الأشخاص أو الظروف.

هل يمكن لنا أن ننسى حجم الانكسارات التي عشناها؟! هل يمكن أيضاً أن ننسى انتصاراتنا المهمة، وربما لحظات لموت أو ميلاد قد زلزلتنا، وجعلتنا نتوقف عندها كثيراً؟! لا زلت أبحث وأبحث، أحاول أن أنسى أشياء ولا أستطيع.. وأحاول أن أتمسك بلحظات أخرى نادرة... وقد أفلح تارة وأفشل تارة أخرى.

هناك أحداث، وشخصيات تنسى بسرعة مذهلة، وأخرى تظل محفورة في العقل والقلب، مهما تقدم العمر ومهما تغير المكان أو الزمن. هل من المعقول أن أنسى دقة الحب الأولى لقلبي الصغير؟! وأنا لا زلت في المرحلة الابتدائية من التعليم.

كيف لي أن أنسى لحظات تواصل أعيننا البريئة أثناء اليوم الدراسي، قربنا من بعض وجلوسنا متجاورين، ولهونا ولعبنا وتبادل كراساتنا وورق امتحاناتنا.

شجن أم وجع أم ألم؟ ذلك الإحساس الذي لا بُد أن يعتريني حينما مرت السنوات ولحقتها صدفة، وهي تمضي بين أبنائها وقد تعلقت بذراع زوجها، وأنا واقف على محطة القطار، أنتظر قدومه ليقلني إلى

مقر وحدتي العسكرية، وقتها كنت أقوم بتأدية واجبي في فترة التجنيد الإلزامية.

هل يمكن لي أن أنسى لحظة فوزي بجائزة كبرى في الإبداع؟! وكيف بكيت فرحاً، وخاصة أنها جاءت في وقت كنت أتعرض فيه لحملة طاغية.

كيف لي بعد أن عزف السلام الجمهوري بلدي، أن أنسى كل مشاعر الرهبة والاعتزاز التي غمرتني وأنا اتقدم لتسلم شهادة تقدير عربية، من إحدى الجهات الرسمية.

هل لي أن أنسى يوم عرض مسرحيتي الأولى؟! وكيف أنه أثناء عناق المخرج الكبير سيد الدمرداش لي، وبينما كانت تنفجر صالة المسرح بتصفيق حاد، دارت الأرض بي ومادت تحت قدمي، وكاد يغشى علي.

هل يمكن لي أن أنسى رفيق الطفولة، وأعز الأصدقاء الشاعر، مصطفى إسماعيل؟! الذي مات وهو في ريعان شبابه!

هل يمكنني أن أنسى جلساتنا الطويلة، ولعبنا الشطرنج وكرة القدم، وطوافنا معاً في شوارع المحروسة، سهرنا حتى الصباح في ليالي رمضان، ومناقشتنا الفكرية والإبداعية لكتاب العالم مثل كافكا وسارتر وماركس ومصطفى محمود، ونجيب محفوظ وتوفيق الحكيم ويوسف إدريس، وأمل دنقل، والعقاد، وطه حسين، وفاروق جويدة، ونزار قباني.

مصطفى إسماعيل، هو من نشر لي أول أعمالي الإبداعية، في أعرق

وأعظم دورية ثقافية عربية..
 بعد أن أغلقت كل الأبواب في وجهي من قبل نقاد وأدباء كبار،
 رفضوا ظهور برعم صغير في سماء الإبداع، وحاربوه بضراوة وكأنه
 سيخطف من أيديهم أكراس الذهب..
 هل لي أن أنسى سامي عسكر وما فعله معي؟!
 وكذلك ما فعلته سلوى محرز؟!
 هل لي أن أنسى ريم؟!
 هل لي أن أنسى يوم أصبحت أبا؟! هل يمكن نسيان يوم ولادة
 مريم أو ملك؟!
 موت أختي نهى وشيرين...
 موت صديقي ورفيق درب الإبداع عبد الفتاح مرسي...
 هل ذكرى فراقه، يمكن أن تنسى؟!
 لقد مات عبد الفتاح مرسي على مقعده المفضل في المقهى الذي
 نجتمع عليه مع كل أدباء الإسكندرية، إذ إنه بمجرد أن ألقى جالساً،
 شعر بألم بسيط في صدره، مع ضيق في التنفس، وبمجرد أن هرع
 الشاعر محمود عبد الصمد زكريا إليه بكوب من الماء كان هو قد لفظ
 أنفاسه الأخيرة، في أقل من دقيقة واحدة.
 الأمر العجيب أن عبد الفتاح مات مثلما توقع بالضبط، قبلها بعدة
 أيام كان يتحدث معي عن الموت ببساطة وعفوية شديدة، وحين
 حاولت أن أغير الحديث، وأحوله إلى منحي آخر، نهري برفق قائلاً:
 - لا تجزع، الموضوع بسيط، وهو أمر حتمي لا مفر منه، فقط

سأميل برأسي هكذا لعدة لحظات، ثم تصعد روحي، ويرتخي جسدي.

كان عبد الفتاح يتظاهر بالموت في نفس المقهى، وعلى نفس المقعد، الذي توفي عليه بعدها فعلياً، بعدة أيام وكأنه كان يتنبأ بموته، مثلها تنبأ بالعديد من الأحداث في أعماله الأدبية.

رحل صديقي الغالي، صانع البهجة، ورحل معه جزء كبير مني... ذكريات، ومواقف، مشادات، خصام وصلح، وعشرة طويلة انتهت في لحظة.

هل يعقل نسيان يوم ٢٥ يناير وما أعقبه من فوضى كادت تدمر الدولة المصرية؟!

هل يجوز لأي مصري أن يتغافل عن الفترة التي حكم فيها الإخوان مصر بعد فوز الدكتور محمد مرسي في انتخابات الرئاسة على الفريق أحمد شفيق، بفارق أصوات طفيف، وقيل إنه فاز تزويراً، وأن الجيش بعد إرساله الحرس الجمهوري لبيت أحمد شفيق، عاد وسحب قواته، ورضخ لضغوط الإخوان الإرهابية، وأعلن مرسي رئيساً للدولة، حماية للبلاد والعباد، بعد أن أدرك حجم المؤامرة الكبرى على مصر، والتي كانت مدعومة بقوى خارجية عالمية، لا قبل لأحد بها. حقنا للدماء، وحرصاً على وحدة الأراضي المصرية، تم قبول الوضع المزيف، ولو بصفة مؤقتة، لحين تعافي الجيش وكل مؤسسات الدولة، هل يستطيع أي مواطن مصري أن ينسى أسوأ فترة في تاريخ مصر المعاصر؟!

حين حاول الإخوان السيطرة على كل مفاصل الدولة ومحو الهوية المصرية، واستبعاد جميع الأحزاب والتيارات السياسية من المشهد السياسي.

بل وانتشرت التنظيمات الإرهابية التكفيرية في شتى بقاع الأراضي المصرية، بأعداد غير مسبوقة، مع دعم النظام الحاكم لها. وظهر بؤاد خطة جهنمية لتفتيت الدولة المصرية والتنازل عن مساحات شاسعة من أراضي مصر الشرقية والجنوبية. لتصبح مصر مجرد ولاية تابعة لتنظيم مشبوه، ويصبح رئيسها مجرد موظف تابع لرئيس التنظيم.

وفي أقل من سنة صنع النظام الحاكم عداوة غير طيبة مع كل مؤسسات الدولة، بما فيها الشرطة، والجيش، والقضاء. و يشعر المواطن المصري أنه يحيا غريباً في وطنه.

حتى تأتي اللحظة التاريخية، التي لا يمكن محوها من ذاكرة أي مواطن مصري، وعربي، حين اتحدت إرادة الشعب المصري مع قواته المسلحة المصرية، وقامت ثورة ٣٠ يونيو.

تلك الثورة التي قلبت كل مخططات الصهيونية والماسونية العالمية رأساً على عقب، وأوقفت ما سمي بسلسلة ثورات الربيع العربي وجعلت العالم كله يعيد حساباته.

فهي ثورة مجيدة، قد أوقفت العابثين عنوة، وعرقلت مخططاتهم الجهنمية، في إعادة رسم خريطة جديدة للمنطقة.

مع إعادة كل الحسابات لنقطة الصفر، وتصبح مصر هي أهم لاعب

في المنطقة، لاعب يمثل قوى مفاجئة ومناهضة لوأد أحلامهم وقلب
كل مخططاتهم رأساً على عقب.

٦٧ - الصحفي

في لقاء مع أحد الصحفيين الكبار.. سألني: ما هي أهم أعمالك؟!
قلت له: مريم وملك.
قال لي: أنا قرأت رواية مريم، وهي رواية مبهره فعلا، فهل تشرفني
بالرواية الأخرى؟
نظرت له في استياء ثم قلت له: ربما يوماً أكتب عملاً تحت عنوان
ملك... أعدك بأن تصلك نسخة منه إن فعلت.
ارتبك... ولكنه واصل أسئلته: من في نظرك من كبار كتاب النثر في
مصر الآن؟!
- سعيد سالم... مصطفى نصر... محمد محمود الفخراي... محمد عبد
الوارث... السيد حافظ... منير عتيبة... بشرى أبو شرار... آمال
الشاذلي... سهير شكري... حنان سعيد... محمد حمدي... سمير حكيم...
شريف محيي الدين... وآخرون.
نظر إلي في دهشة، ثم قال في حدة: أقول لك في مصر وليس في
الإسكندرية، لقد ظننتك ستذكر لي....
قاطعته قائلاً:
- ظننت أنني سأذكر لك واحداً من أولئك المشهورين بالحق أو
بالباطل، أليس كذلك؟!
صمت مشدوهاً، إلا أنني واصلت: وطبعاً لا بد أن يكون من
القاهرة!

ضحك كثيراً ثم قال لي:
- أنت ترى أن من ذكرتهم أحق من هؤلاء العظماء؟!
قلت له: على الأقل هم أحق في الذكر؛ لأن مشاهيرك ما عادوا
ينتظرون حديثاً صحفياً، ولا حتى يلفت انتباههم سوى صوت
النقود.

قال: ولكن كيف تذكر نفسك؟! لا يمدح في نفسه إلا الشيطان.
قلت: دعك من تلك الكلمات الفارغة، أتخسبني سأتواضع ذلك
التواضع المزيف؟ تلك رؤيتي لنفسى، وإذا كنت تراني كاتباً
مغموراً، وأنت صحفي ذو شأن وتمثل جريدة كبرى، فلماذا تجري
معي هذا الحديث؟!

قال في ضيق:
- أنت تأخذني بحديثك إلى منحى آخر، لم أستعد له.
قلت:

- قصدك غير ما اتفقت معي عليه.
نظر إليّ في حيرة، ثم جمع أوراقه، وأغلق جهاز التسجيل، وهم
واقفاً، ثم أردف: لنا لقاء آخر.
قلت في هدوء دون أن أنهض من مكاني:
- بل هذا آخر لقاء.

٦٨- هل يهوذا عاد إلينا من جديد؟

حين أنظر إلى عينيك وأسمع صوتك وأرى حركة يديك وانفعالاتك
المرسومة على وجهك...

يمكنني أن أعلم عنك كل شيء...

فلا تكذب لأتني سأعلم الحقيقة من كذبك...

وإذا أردت إخفاء الأمر عني فلتخفِ روحك التي أراها أمامي بكل
وضوح.

ظننتم أنكم أعلى وأرق من كل البشر، ولما رأيتم الناس تطأطئ
رأسها، وتحني ظهورها لكم، حسبتموهم أقل وأدنى، وظننتم أنكم
فوق الجميع، ولم تروا نظرات الناس، وشفقتهم عليكم، فهم كانوا حين
يهزون رؤوسهم فتلك حسرة عليكم، ولم يحنوا ظهورهم إلا كي يهبطوا
إلى مستواكم، ويتمكنوا من رؤية وجوهكم.

وحين تجنبكم أقرب الناس، حسبتم أنكم الأفضل والأعلى والأرق،
تعتقدون أنكم فقط من تمتلكون الحقيقة، تحكمون وتقررون وتضعون
مراتب ومنازل للآخرين، هذا إيجابي وذاك سلبي، هذا مقصّر،
والآخر عجيب أو غريب.

فهل سألتم أنفسكم عن امتلاككم للغيبات، وللهستور، ولما خفي عنكم
كثير؟ هذا إن كنتم تحسبون أنكم لا زلتم بشراً.

نسيتم أنه وحده فقط من يعلم ويقرر ولا قوة إلا به، لم تترثوا أبداً،
فهل حسبتم أنفسكم ألهة؟!

ظننتم أن الحياة لكم أنتم فقط، بكل ما فيها، حتى أنكم لا تعترفون أو تقدرون علاقتكم بأي أحد إلا من هم مسخرون لخدمتكم أو حسبتموهم كذلك، ولا جدال أنكم لا زلتم تدورون في فلك كرية، يفقدكم كل ما حولكم، حتى الحيوانات والشجر، حتى الأماكن والذكريات، والأصول والأعراف، وبات الكل ينظر إليكم في استياء ويلعنكم في سره...

حتى الشمس أصبحت تتنى لو أنها لم تشرق يوماً، وترى وجوهكم أو حتى تسلمها لليل، بل وقد تبخل عليكم بضوء القمر. قد يتفق الناس مع الحزب الحاكم، وقد يحترمون المعارضة البناءة، فهم في النهاية يؤدون دورهم في إطار من الوطنية.

لا بد من هذا التوازن حتى تمضي الدولة في إطار من الشفافية، فيتم دائماً مطارحة الفكر بالفكر وتصويب أي خطأ أو قصور، أما ما نشاهده الآن فليس إلا تيارات ترتدي ثوب المعارضة وهي في الحقيقة لا تمت للمعارضة بصلة...

نحن لا نرى إلا جهات خارجية يهّمها هدم البلد وتقسيمها وتدميرها أو تحويلها إلى مجرد ولاية تابعة للخلافة الوهمية. أو جزء من الدولة الصهيونية.

وقد اتفق الطرفان على هدف واحد فقط، وهو إسقاط الدولة المصرية.

قطر وتركيا، وبمشاركة جهات أخرى وتحت توجيه من الماسونية العالمية ينفقون المليارات في مواجهة الدولة المصرية بكافة مؤسساتها.

المذيعون والممثلون والقيادات الإخوانية والخلايا الإرهابية والإلكترونية يتشدقون بكلمات الحرية والعدالة ومهاجمة النظام الحاكم، واتهامه بالقصور ومحاولة إسقاطه، والناس الجهلاء يظنون أنهم يبحثون عن مستقبل أفضل للبلد، وأنهم يهتمون بالناس الغلابة. هل ثورة يناير الكبرى، والتي تعد واحدة من أعظم وأطهر حركات الشعوب على مدار التاريخ، تصلح أن يكون قائدها المدعو وائل غنيم؟! ..

ولد عام ١٩٨٠، تخرج في كلية الهندسة، وفيها انضم إلى جماعة الإخوان.

ثم رحل بعد تخرجه إلى الولايات المتحدة، وعمل في جوجل العالمية، وتزوج من فتاة أمريكية.

أنشأ وائل موقع إخوان on line، وصفحة كلنا خالد سعيد. عمل مديراً لمنطقة الشرق الأوسط لجوجل بمرتب ٩٠ ألف دولار شهرياً، وقد غادر غنيم مصر بعد ثورة ٣٠ يونيو.

٦٩- من نواجهه؟!

هل نواجهه أناس هدفهم الأول تدمير أوطانهم بلا أي مواربة أو شك؟!

منتج إنساني حقير يتحكم في مجموعة من الجهلاء والحمقي، والمخدوعين تحت شعارات وهمية.

لا بد من طرح هذا السؤال على كل مواطن: لماذا كل هذه الأموال التي تدفعها قطر وتركيا لتمويل العمليات الإرهابية وتمويل الثورية والإخوان وكل التيارات التي تعمل تحت الأرض؟!

هل حباً في مصر؟

هل حباً في العدالة والديموقراطية؟! هل إهدارهم لثروات شعوبهم، يتم بغرض تحقيق العدالة والديموقراطية في مصر؟!

هل أردوغان هو بالفعل الخليفة العادل المنتظر حامي حمى الإسلام وراعي المسلمين؟!

هل نجوم السينما والإعلام الذين يدعون لإسقاط النظام أمثال: هشام عبد الحميد، ناصر، وجدي العربي، وعمرو واكد... إلخ.

هل هم مناضلون فعلاً ويؤمنون بقضية عظمى؟ أم أن إيمانهم بالملايين التي تدفع لهم؟!

هل يمكننا أن نصدق أن أيمن نور شخصية محترمة ويؤمن بالفعل بالعدالة والديموقراطية؟!

هل القرضاوي، ذلك الشيخ الهرم، رجل دين عاقل؟!

هل أي واحد من أولئك لديه حقًا الاستعداد أن يضحي بنفسه
لأجل مصر؟!

لأجل نصره دينه أو عرويته أو حتى أهل بيته؟!
المؤسف أنهم صاروا يمتلكون ملايين الدولارات وصاروا تجارًا
للأخلاق وللبيدائي، تجارًا للأرض والعرض...
أين إذن الحد الأدنى من مبادئ الدين، الذي هو في الأساس دين
الرحمة والعدل والحب، دين الولاء للوطن والحرص عليه والدفاع
عنه؟!

خيانة كبرى!
عمالة، وبيع للنفس لأجل حفنة من المال!
فهل يهوذا عاد ثانية في زمننا هذا؟! يهوذا الذي باع المسيح بثلاثين
من الفضة.

أم أن المشكلة الحقيقية في الفساد والجهل؟!
هل الفساد والجهل هما أساس كل المصائب؟!
مع كوكبة من رجال الأعمال عديمي الوطنية والأخلاق...
هل فعلا هم لصوص وشيوخ منصر وسفاحون ومصاصو دماء؟!
الغش والاحتكار، والمستشفيات الاستثمارية، التي نتاجر بأمراض
الناس وتصنع الملايين.

المدرسون الذين يتعمدون إفساد التعليم لتستمر مافيا الدروس
الخصوصية..

المقاولون الذين يحصلون على الأراضي بأبخس الأثمان، ليستغلوها في

بناء شقق تباع بالملايين...
شبكات المحمول، التي تبيع الهواء للناس وتقدم لهم أسوأ خدمة..
مزارع السمك والفراخ والعجول، وكلهم يستخدم الهرمونات القاتلة
والمسرطنة.
بخلاف الفاكهة والخضر التي منعت من التصدير لتجاوزها كل
المعايير الصحية!
إذا كانت مصر الأم، تستطيع أن تنتصر على أي عدو خارجي،
فكيف لها أن تواجه أبناءها في الداخل؟!

٧٠- أهل الجنان

رويداً رويداً، إنكم تعصبون أعينكم، ولا تنفكون تمضون فوق
أشواكم... هل أنتم تشربون من نير طيشكم؟!
أم لعلها هي البنت التي حلت ضفائرها، ولعله الولد الذي ترك لها
مفتاح الحياة، وقد يكون هو شيخ يلهث خلف سرب من حمام
وسراب من دخان؟!
قد تدعوه يوماً امرأة تلوك في فمها اللبان وترتدي الجينز المتقطع،
تمنحه كأس نحر، تمارس معه الفعل المقدس، ويهبها ذلك الطفل
الذي يبحث كل يوم عن بيت وشجرة وكتاب.
ينكرون جميعاً الضوء ويعبدون ظل البهتان؛ لأن الشيخ لا يعرف أن
الكرسي مصنوع من خشب لا من لؤلؤ ومرجان.
يزين لنفسه أنه في عتمة الليل سينير الدجى ويصلح من شأن الإنس
والجان، يشعل العالم عبثاً، ويدعي أنه الواحد، وأنه ليس كمثل
إنسان، ينطق الحق بما ليس إلا ظلاً لفكرة، لم تكن يوماً إلا وقوداً
لبركان، لا يتوقف يوماً عن رسم خريطة وطريقة وملعب لمباراة
يحشد هم جميعاً في بوتقة الارتقاء، والصعود للجنان، عُمي صم بكم لا
يدرون أنهم مجرد طيف أو ظل لنار لم تدع يوماً قدسية.
لم تطلب منهم أن يمنحوا بعضهم زيف بركتها.
هي تضحك، وهي تبرئ نفسها منهم ومن كل لؤم.
هي تنشد حجارة وناس.

ناس هم في دركِها الأسفل لا يلبثون أن يهتفوا نحن فقط، نحن ولا
أحد غيرنا، أهل الجنان.

٧١- عودة شارع العزب

طارق لم يكن أبداً يحب أن يري الغضب في عيني جده... رغم أنه كان شقياً جباراً، إلا أنه لا يقبل قط فكرة أن تمر على جده أو جدته، أي لحظات من الألم أو التعاسة، وخاصة وأنه مرتبط بهما ارتباطاً شديداً، ربما يفوق ارتباطه بأبيه وأمه، فهو يقضي معظم يومه، إما في الشارع للعب الكرة، أو في بيت جده، حيث يلتقي كل معارفه وأصدقائه في حديقة الفيلا...

بل إن جميع مراسلاته كانت تتم على نفس عنوان جده. انتحي طارق بي جانباً، ثم أقسم إنه سيصلح الوضع، ولن يدع جده حزينا هكذا..

الحقيقة أنني لم أر من قبل جدي الوقور، الهادئ الطباع، في مثل هذه الحالة من الثورة والغضب العارم، وفي جنح الليل... وبينما كانت الساعة قد تجاوزت الثالثة صباحاً، جعل طارق يتحرك بخفة، ثم صعد السلم الخشبي الذي أحضره له صديقه مرسي، وبسرعة شديدة قام بنزع الياقطة المعلقة، في مدخل شارعنا، والمكتوب عليها شارع اللواء شوقي العزب..

في الصباح الباكر، كان اللواء شوقي في بيت عمه، الذي هو حموه في الوقت نفسه.

طلق يتوعد من فعل ذلك بعقاب شديد، بينما جدي أحمد العزب يتسم ابتسامة خفية ويربت على ظهر طارق في نخر شديد.

بعد أن انصرف شوقي، التفت جدي إلى زوجته، ثم صاح بها:
- أنا كبير العائلة ولا يصح أبداً ما فعله زوج ابنتك... أم يحسب أنه
بحكم منصبه قد صار كبيرنا؟!!

- الموضوع بسيط، ولا يستحق كل هذا الغضب.
- كيف وقد اتفقت معه على أن يكون اسمه شارع العزب، وليس
شوقي العزب؟

- يا سي أحمد، ليس هناك فارق كبير.
- كيف تقولين هذا؟ وإلا كان الأولى أن يسميه، شارع أحمد
العزب.

- هو ابن أخيك وزوج ابنتك، وفي مقام ابنك.
- ولكني قلت يسمى العزب فقط، ليشمل العائلة كلها.
لم تكن جدتي تعلم أن طارق هو الذي نزع الياطة، ولكنها فوجئت
بها ملقاة أسفل سريرها، احتارت كثيراً في هذا الأمر، وحاولت أن
تعرف السر من جدي، إلا أنه كان ينهرها بشدة لم تعتدها منه.
وفي كل مرة يقوم زوج خالتي بتعليق يافطة جديدة يقوم طارق
بخلعها، حتي تراكت اليفط أسفل سرير جدي، وبلغ الفضول
بجدتي مبلغاً كبيراً، حتي أنها أحضرت أخي -أحمد محي- سراً،
وسألته في جدية:

- من الذي يخلع هذه اليفط، ويحضرها لجدك؟
شعر أحمد بحرج شديد، وأوشك أن يتظاهر بعدم معرفته الحقيقة،
إلا أن نظرات جدتي الساحرة وحدها كانت كافية كي يخبرها بكل

شيء، ولكن بعد أن جعلها تقسم بأنها لن تخبر أحداً، وظل الحال هكذا لمدة طويلة، حتى فوجئ الجميع بما لا يخطر على بال أحد! حيث كان عمال الحلي يقومون بتعليق يافطة أخرى تماماً! والمفاجأة، أنها كانت تحمل اسماً لأحد الأشخاص، من خارج العائلة. صحيح أنه متزوج واحدة من آل العزب، ولكنه من عائلة أخرى تماماً.. وقع هذا الحدث كالصاعقة في شارعنا الذي انقلب كله رأساً على عقب.

تجمع كبار الشارع في فيلا جدي، وفي حضور اللواء شوقي العزب، الذي كان غاضباً غضباً شديداً، قالوا:

- نحن لا نقبل أن يسمى الشارع باسم هذا الرجل، وهو واحد من أحدث سكانه، صحيح هو قريبكم ولكنه ليس من آل عزب. وهمس شوقي في مرارة:

- أنا الذي أحضرته هنا، بل واشترت له بنفسه بيته هذا بسعر لم يكن يحلم به، ولكنه غادر لثيم لا يصون الجميل. وقال أحد كبار الشارع:

- إذا لم تتحركوا، فنحن لدينا من هو أولى منه وأحق. اشتعل جدي وابن أخيه شوقي وحفيده طارق غضباً، وبعد أن انصرف الجميع، اجتمع ثلاثتهم فقط لأول مرة في غرفة الصالون، ثم اتفقوا على مهمة سرية تنقذ اسم العائلة، على أن يكون التنفيذ بواسطة طارق.

كان اللواء شوقي يعلم جيداً قدراته، حتى أنه أخبره أنه يحبه كثيراً،

ويقدر ذكاءه، بل وأنه يذكره بنفسه وهو في مثل سنه.

وقال جدي لطارق:

- أنا أعلم ما لك من تأثير كبير في الشارع على كل سكانه.

ثم همس اللواء شوقي العزب موجهاً حديثه لطارق:

- قد آن الأوان لنكون في صف واحد.

وأردف جدي:

- بل لقد حان الوقت، لتتفق جميعاً، على عودة الشارع إلينا.

٧٢- حكام مجد الدولة القديمة

أردوغان..

يحاول استعادة مجد الدولة العثمانية الكبرى.

بوتين..

المجد لروسيا واستعادة الدولة الروسية ومجد الاتحاد السوفيتي.

السيسي..

مجد الدولة المصرية العظيمة بكل حضاراتها وأمجادها الضاربة في التاريخ على مدار العصور.

محمد علي باشا... قطز وبيبرس... وتاريخ حافل يبدأ من آلاف السنين منذ الدولة الفرعونية.

الحاكم الصيني..

وإعادة بعث لحضارة قديمة عظمى، والتحدى الاقتصادي العملاق لكل دول العالم.

إيران..

والدولة الفارسية، التي تحاول بشتي الطرق أن تعود لسابق مجدها.

وفي المواجهة إذا نظرنا إلى باقي دول العالم:

سنجد أن ثمة اتفاق غير معلن بين أمريكا، وبريطانيا، ودول الغرب ومعهم إسرائيل...

اتفاق على محاربة هذه الدول والقضاء على أي بوادر لعودة أي قوة عظمى منهم للظهور في العالم.. وعادة ما يتم دفعهم لمواجهة بعضهم

البعض وضربهم بأنفسهم لأنفسهم والوقعة بينهم، وبمتهي الدهاء
الغربي...

باستخدام كل الطرق مشروعة وغير مشروعة لتبقى هذه الدول في
أسفل الأمم وتظل الهيمنة الغربية.

٧٣- أحمد محيي الدين

أقعى أخي أحمد جالساً القرفصاء، فى حمام بيتنا...
وبعد أن جهز الماء الساخن والصابون، التفت إلى أبي متسائلاً:
المياه هكذا حسنة؟!

ابتسم أبي ابتسامة كبيرة، وراح لسانه يلهج بكلمات غير مفهومة،
ولكنها حتماً كانت تتممات بالدعاء لأحمد الذي جعل يدلك
جسده، وهو يغمره بالماء الدافئ.

ثم أتى بما كينة الحلاقة، وبخفة ونعومة شديدة حلق لأبيه ذقنه، ثم
غمر وجهه بالعطر، وجفف جسده، وألبسه ثياباً نظيفة، وحمله
وحده إلى سريره، وبعد أن غيرت أمي ملأة السرير، دثرته بغطاء
سميك من الصوف.

عندما دلفت إلى حجرة أبي، كانت علامات السعادة والراحة تغمر
وجهه، وهو مغمض العينين كطفل صغير، يغط في نوم عميق، بينما
أحمد جالس إلى جواره، لا يرفع عينيه عنه، ومن فرط التعب،
جعل يتساقط العرق الغزير من كل مسام جسده.

نظرت إلى أحمد في شفقة، ثم قلت له: أنت تعاني من ضعف فقرات
ظهرك، لماذا لم تنتظرنى حتى أساعدك؟
ولكنه قال لي:

- لا عليك، أنا سعيد هكذا.

تذكرت كيف كان أبي يحمل أحمد وهو صغير، وكيف كان يقذف

به إلى سقف الحجرة مداعباً، وتذكرت كيف كانت تربطهما علاقة حب وصداقة من نوع خاص، حتى أننا كنا نسخر كثيراً من أحمد بسبب عشقه لأبيه وحبه المفرط له، إلى حد أنه كان يظنه أعظم رجل في الكون، بل ولربما حسبه منزهاً عن كل أنواع الخطأ، فهو القائد، القوي، العملاق، الرمز والقُدوة.

وتذكرت يوم حملني أبي، وذهب بي مسرعاً إلى الطبيب وهو يلهمث من فرط التعب، وقتها كنت أنا قد سقطت من على الدراجة بعد أن أحدثت بقدمي جرحاً عميقاً لا زال أثره في لمحي حتى الآن، كنا في نهار رمضان، وكنت صائماً، وقتها نزلت كثيراً حتى أغشي عليّ.. وتوالت على رأسي ذكريات كثيرة، له وهو يلعب بمنتهى القوة والمهارة كرة القدم كلاعب محترف في صفوف فريق بلدية المحلة، تذكرت يوم تحداني في مباراة تنس طاولة وهزمني شر هزيمة، وأنا بطل الجامعة وهو وقتها كان قد تجاوز الخمسين من عمره.

أبي كان بكامل لياقته البدنية، وسيماً رشيقاً، لماًحاً ذكيّاً، حتى أصابه المرض بغتة، وفي أقل من عام تحول إلى هيكل عظمي، ورغم العلاج باهظ الثمن ومواظبته عليه، إلا أنه في كل مرة، وبعد أن يأخذ حقنة العلاج المكثف تتدهور حالته، وتنتابه حالات من الهياج، والألم الذي لا يحتمل.

قالت لي ابنة عمتي نبوية، في حزن، وهي طبيبة ماهرة:
- عليك أن تعلم أن هذا العلاج قوي للغاية ولربما يكون ضرره وأذاه أكثر من نفعه، بل إن الكثير من المرضى يموتون بسبب قسوة

العلاج وليس بسبب المرض.
أرتج علي، ولم أدِرِ ماذا أفعل! هل نوقف الدواء، حتى نخفف عنه
آلام العلاج، ونتركه هكذا لمصيره المحتوم؟!
أم نظل ندفع به في أتون رحلة العلاج الرهيبة، ولعله يشفى أو حتى
تحسن حالته الصحية ولو قليلاً؟!!

انحدرت الدموع من عيني أحمد وكأنه قد قرأ كل أفكاري.. صاح
بي: - أبوك لا تتحسن حالته، فهو نائم معظم الوقت، وعندما
يستيقظ، يهذي بكلمات غير مفهومة، حتى الطعام يرفضه، فقط
يأخذ جرعات بسيطة من الماء، وأحياناً كثيرة، لا يعرف أمك، ولا
يعرف حتى كل من حوله.

سألته: حتى أنت لا تعرفك؟!!

قال لي في أسي:

- أحياناً لا يتعرف عليّ ويظنني أضاع له سُمّاً في فمه بدلاً من الدواء،
فيقاومني ويضربني ويسبني، الوحيد الذي دوماً في باله هو أنت،
فدائماً ما يردد: استمعوا لأخيك، ولا تغضبوه، هو أطيبكم وهو أول
فرحتي.

وأحياناً يسأل عن أخيك طارق، وينسى أنه يعمل في السعودية، ثم
يلتفت فجأة إلى دينا أختك ليسألها من أنت؟!!

طفرت الدموع من عيني، همست لأحمد:

- لا بد أن نذهب به لطبيب آخر.

٧٤- ليل حزين

هل يوماً سترحلين؟!

وقالت العجوز الجميلة في حب وثقة: أبداً.. هذا لن يحدث.
نظرت إلى صورة جدتي المعلقة على جدار غرفة الاستقبال الواسعة
في فيلا العزب، وتذكرت يوم أن طلبت مني أن آخذ لها صورة وهي
بين زهور الحديقة، وعندما شاهدت الصورة، ابتسمت، وقالت:

- صورة جميلة، أنت فنان صغير مثل جدك.

ثم طلبت مني أن أقوم بتكبيرها.

سألها في براءة:

- لماذا؟

وأجابتنني في عفوية:

- حتى تذكروا أنني ذات يوم كنت بينكم.

جعلت أتخيل العالم دونها، شملتني غاشية من حزن عظيم.
عدت إلى صورتها، أسألها نفس السؤال: هل يمكن لمن هو مثلك أن
يرحل؟!

وهمست:

- طالما قلوبكم لا زالت تنبض، فأنا لن أرحل أبداً.

٧٥- أوقات صعبة

هل واجهت الموت يوماً؟!
هل التحفت بغطائه، وتدثرت بعباءته مرة؟!
أو بعض مرة؟!
أصعب لحظة لم تكن حين لفظ أنفاسه الأخيرة...
ولم تكن حين شاركت أنا وأخي في تغسيله!
أو حتى تغسيل ما تبقى من جسده، بعد أن بات جلدًا على عظم إثر
معركة خاسرة مع مرض نهش رثيته في ضراوة لم تتجاوز أشهر
قلائل..
نتأمل.. تشرد.. نثوه.. تغوص في بحر مظلم، تبحث عن الشمس،
تبحث عن القمر، تبحث عن النور ولا تبصر إلا عدماً.. تعود وتطلع
إلى الجسد المسجى أمامك!
هل تشاهده؟!
أم تبصر نفسك؟!
تسترجع ذكرياتك أم ذكرياته؟!
عبثاً تعود بالزمن..
تود فقط ولو تعود للحظة واحدة كانت تجمعكما معاً.
أصعب لحظة...
ليست أيضاً حين التفت إلى الخلف لأتفحصه، وأنا ملقى بجوار سائق
سيارة نقل الموتى، الذي يهرول بالسيارة متجهًا إلى مسقط رأس

أبي.

كان يوماً حاراً عصيباً، وكنت غارقاً في الدموع والعرق، وكان
جسدي كله ينتفض حين التفت إلى جثمانه الملفوف بإحكام
شديد، مدثر ببياض الكفن.

نتأمل الجسد؟!

أم نتأمل الموت نفسه؟!

أم تراك تعبث؟!

لعلك لا تتأمل.. أو تفكر، ربما كنت غير موجود أصلاً!
أصعب لحظة..

ليست حين قهرني ألم عدم استطاعتي رؤية وجهه الذي تمنيت ألا
يغيب أبداً...

وبت أخشى عليه من اهتزازات العربة مع مطبات الطريق، وجعلت
ألقي عليه ببعض العطر.

التفت إلى نافذة السيارة، وطفقت أتطلع إلى لا شيء، بينما أتانني
صوت السائق الذي بهت ملامحه، طمأنني قائلاً:

- لا تخف، إنه في منتصف العربة ولن يسقط.

أصعب لحظة..

ربما كانت في البرهة التي رسخ في ذهني أن من يرقد خلفي ليس
بأبي! نعم.. نعم ليس والدي!

ولكن ترى أين ذهب؟!

حقاً أين رحل؟!

بكل حيويته ونشاطه وضحيجه المحب إلى قلبي.

سؤال شطرنجني إلى نصفين.

لوهلة أشفقت عليه من ظلمة القبر، ولكنني سرعان ما عدت
أدراجي، إلى نفسي مطمئناً إياها: إن من يضعونه بهذه الحفرة ليس
هو! ربما شيء آخر، ولكن حتماً ليس هو، لعلها لحظة ميلاد جديد
له.

لم أكن أرى أخي أو أختي أو أيّاً من كل الذين حولي، فقط كنت
ألمح طيفهم وأتحرك معهم شبه منوم، حتى حين تشاجروا معاً على
قبر أبي كنت أنا غارقاً في الحيرة..

كيف مضيت بهذه السهولة؟!

كيف غادرتنا؟

وحتى الآن أنتظر الإجابة..

أبحث عنها.

هل أنت الذي غادرتنا، أم أننا نحن الذين غادرناك؟!

بمشيئتكم أم بمشيئته التي لا تنكسر ولا تلين أبداً!

هل رأيت الموت حقاً؟!

أم أنه سراب؟!

ربما كنت واهماً.

ربما كنت عابثاً.

وربما هي لحظة لم ولن تأتي أبداً، لعلها ولّت منك، هربت، طارت

شعاعاً، وعدت أنت كما أنت.

تبحث عن نقطة البداية في دائرة سرمدية لا تتوقف أبداً.
تبصر نفسك وقد انشطرت نصفين... وتراقص أمامك كل أفكارك.
تتجسد ثم تنفجر في وجهك كشظايا زجاج مكسور.
وتعتريك قشعريرة برد قارص، حين تكتشف أنك تغرق في أعماق
بئر سحيق.

٧٦- الجدار

يا أبي...
كنت ملكاً تتحرك فتشعل ناراً، وتجلس فتضيء الأرض نوراً.
يا أبي...
حادثهم، ولم أكن معك، قلت كلاماً لم يكن كمثل كلام عن ذلك
الغلام الذي منحك القدر.
يا أبي.. أمرتهم، لا تظلموه، لا تجحدوه، لا تغدروه.
هذا الجدار الذي اتكأت، وهذا الجبل الذي اعتصمت، وذلك
القلب الذي اهتديت، وتلك العيون التي رأيت.
كل هذا لم يكن سواك.
فهل أنت سراب أم حلم انقضى وكأس خمر به انتشيت!
يا أبي...
أوصيتهم هذا الفتى من بعدي هو أنا، وأنا هو، أعينوه، ولا تخذلوهم.
وضعوني في صندوق مغلق.
منعوا عني الضوء والماء والهواء، مزقوني، وألقوا بأجزائي فوق رؤوس
الجبال، نثروني كما حبات الرمل في الوديان.
أركض مع الراضين، أواقع الحقيقة وأرفع رأسي، لا يهمني سيف
ولا رمح، وحين أبتمس، تأتيني في الخفاء طعنة في القلب، من أولئك
الذين أوصيتهم، الذين يرون دوماً، وكنت يوماً قد رفعتهم إلى
السمااء.

٧٧- رحيل الفرعون الأخير

رغما عن الأخطاء الكارثية، والفساد المقنن الذي استشرى في عهده، كشبكة عنكبوتية مرعبة، والوصول لمستويات متدنية في منظومتي التعليم والصحة، وما حدث من تدمير للقطاع العام، وإهمال كبير للتنمية الاقتصادية، والسماح بظهور كيانات احتكارية كبرى تحكم في مفاصل الدولة اقتصادياً، وسياسياً، وضاعفت الفوارق الطبقية في المجتمع، بخلاف سماحه لنمو التيارات المتأسلمة حتى توحشت، فكادت تفتك بالدولة...

مع شبهة التجهيز والإعداد لتوريثه الحكم لنجله والتمسك المقيت بالسلطة...

بيد أنني -ورغماً عن كل هذا- لا أستطيع أن أنسى آخر قرار قد اتخذته وهو رئيس للجمهورية!

وكيف أنه واجه بكل شجاعة غضب وثورة الشعب عليه، لم يركب طائرته الخاصة ويترك البلاد مثلها فعل غيره من حكام.

كان يدرك أنها ليست مجرد ثورة عادية، ولكنها مؤامرة كبرى لإسقاط الدولة كلها، تمهيداً لتقسيمها لعدة دويلات منها واحدة في الشمال، وأخرى في الجنوب، بخلاف منطقة سيناء التي سيتم ضمها على الفور إلى الكيان الصهيوني.

كان يعلم أطراف المؤامرة بداية من أمريكا وإسرائيل، ونهاية بقطر وتركيا رفض مغادرته للبلاد، رغم ترحيب كثير من زعماء الدول

به، بل وتخصيصهم له قصوراً ومبالغ باهظة، لتكون تحت تصرفه هو وأسرته، عرفاناً منهم وتقديراً لما قدمه لهم، وللأمة العربية، وللعالم كله، من خدمات هي في نظرهم، لا تعد ولا تحصى.

مبارك قام بتفويض صلاحياته لحكم البلاد للمجلس العسكري، ثم تنحى ليقبع هو وعائلته في قصره الخاص الكائن في المدينة المحببة إلى قلبه، شرم الشيخ، كان يعلم مدى خطورة أن يترك الحكم لأي فرد، كرئيس مجلس النواب أو رئيس المحكمة الدستورية، كما ينص الدستور المصري، وكأنه كان يدرك سهولة اغتيال فرد واحد، ووقوع البلد في حالة فوضى مطلقة، مخطط لها من قبل، والتي أطلق عليها المتآمرون نظرية (الفوضى الخلاقة)، كان مبارك يتصرف بحكمة وحنكة كبيرة، أظهرت مدى عشقه لتراب هذا الوطن، حتى وهو يقوم بخلع نفسه كان يفكر في الكيفية التي تحافظ على بقاء الدولة...

ورغم تحذيرات كبار رجالات الدولة له، مثلها طلب منه رئيس جهاز مخابرات الدولة اللواء عمر سليمان، الذي جهز له طائرة حربية خاصة لمغادرة البلاد سراً، حرصاً عليه من بطش الكيانات المتأسلمة، وأنه على أقل تقدير سيتعرض للمحاكمة، بل وربما يتم اغتياله، ومعه كل أفراد أسرته، إلا أنه رفض أن يتخلى عن مواصلة دوره في الحفاظ على تراب ووحدته وطنه، وقال له: فليكن، يحاكموني فأنا لست مجرمًا أو خارجاً على القانون، حتى أفر من وطني كالفرار المذعور، أنا حسني مبارك زعيم الأمة العربية، وسأعيش وأموت على أرض مصر، وأدفن في ترابها.

كان يعلم أن المخطط كبير، وأن خلف ثورة الشعب العديد من الدول الغربية، بل والعربية، وقد اتفقوا جميعاً على سقوط الدولة المصرية، وأن مسألة سقوطه هو، هي مجرد بداية لسيناريو كارثي، ونشر حالة مرعبة من الفوضى بين ربوع المحروسة.

لم ينس أنه واحد من كبار أبطال حرب أكتوبر المجيدة، وأنه لم يبيع حفنة تراب واحدة من تراب الوطن، وكيف رفض إقامة أي قواعد عسكرية أجنبية على أرض مصر، طوال فترة حكمه، رغم بشاعة الضغوط، وتعدد الإغراءات. فعلياً مبارك له ما له، وهو الكثير... وعليه أيضاً ما عليه، وهو أيضاً كثير جداً.

ولكن يبقى مبارك كواحد من كبار رؤساء العالم، ورمزاً يصعب انتزاعه من أعماق كل مواطن عربي، وقد كانت نهايته كما أراد، وكما قال في آخر حديث له مع الشعب قبل تنحيه عن السلطة، حينما أعلن أنه ولد في مصر وسيموت على أرض مصر، وأن التاريخ وحده هو من سيحكم عليه.

مشهد حمل جثمانه في جنازة عسكرية مهيبه، يؤكد أن قيادات الدولة قد أحسنت في تعاملها معه، بهذا النهج الراقي الذي يليق بزعماء العالم، ربما لأن التاريخ لا يكتب فقط على أوراق يمكن تمزيقها بفعل فاعل، وإنما التاريخ الحقيقي هو ما يكتب في وجدان الشعوب، ربما كنا شعباً يمتلك جينات حضارية عبقرية، ولكننا في النهاية صرنا نحارب حروباً ضارية لمجرد البقاء على قيد الحياة.

حين سقطت مني دمعة، وأنا أرى آخر فراعنة مصر، وقد واره
الثرى، تعجبت من نفسي بشدة، بل ونهرتها بقسوة، وصحت غاضباً
فيها من بين دموعي، أليس هذا الذي أبكيه الآن هو نفسه من لعنته
سراً وجهرًا مئات المرات؟! أليس هو من أعلنت للجميع عدائي
وكرهي له؟!

أليس هذا هو من قلت عنه جاهل، فاسد، مخرب؟!
قلت عنه: هو مجرد موظف روتيني، وأنه السبب الرئيس في تدهور
الدولة، فهو لم يضع البلد إلى جوار مثيلاتها من الدول المحترمة، بما
يليق بها من إنشاء مشروعات تنموية، بل هو من دمر الاقتصاد
والصناعة والزراعة والصحة وأدخل المبيدات، والكيماويات،
والهرمونات التي أثلفت الأرض، ودمرت صحة المواطن وجعلت
الأمراض تنهك جسده، حتى صار في مصر أعلى نسبة مصابين
بالسرطان والفشل الكبدي والكلوي..

قلت أشياء كثيرة وجاهرت ببغضي له، وتظاهرات مع المتظاهرين في
٢٥ يناير، وطالبت بإسقاطه ومحاكمته، وهتفت فرحاً مع جموع
هادرة من الشعب يوم أعلن تنحيه...

الآن وبممتي الغرابة أبكيه!
ربما كنت أبكي الشخصية الأولى لمبارك، فمبارك حتما يمثل
شخصيتين منفصلتين تماماً..
مبارك الأول...

المقاتل، البطل، المكافئ، النزيه، الزعيم العربي قاهر اليهود، الفرعون

الذي أذلهم في حرب أكتوبر وسار على درب سلفه الرئيس الراحل محمد أنور السادات، حتى استعاد كل حبة رمل من الأراضي المغتصبة، فلم يترك وسيلة من وسائل السلم أو الحرب حتى سلمت مصر بكل أراضيها من دنس المحتل الصهيوني.

مبارك الأول هو ملك فرعوني عظيم، لا يمت بصلة لمبارك الثاني الفاسد، الجاهل المستبد، ولكن مهما فعل مبارك الثاني من موبقات إلا أنه لم يستطع أن يقضي على مجد مبارك الأول الذي يبدو أنه كان عظيماً بحق.

موت مبارك بلا شك، هو إعلان عن انتهاء وزوال حقبة تاريخية مهمة في ثقافة ووجدان كل مواطن عربي.

٧٨- الشيطان شاطر

يسألني في استياء صديقي الشاعر جابر بسيوني:

- لماذا يحدث كل هذا؟!

لماذا كل هذا الشر، الذي يملأ العالم؟

جابر بسيوني هو أحد علامات الشعر في الإسكندرية، لقبه مبدعي الثغر بالنورس، لحركته الدائمة، وكثرة تنقلاته، وتواجهه في معظم الفعاليات الثقافية بالإسكندرية، وشتى محافظات مصر.

له دور كبير في اكتشاف ورعاية المواهب الشابة، وهو يشرف على العديد من الندوات، كما أنه عضو مجلس إدارة اتحاد كتاب مصر شبه الدائم.

حلو الحديث عذب الكلمات، بشوش مجامل دائماً، يتميز بوعي نادر. يدفعه دائماً طموحه لمحاولة الرقي بالمشهد الثقافي السكندري فهو بجانب كونه شاعراً بارعاً، إلا أنه دائماً ما يقدم مشروعات وأطروحات، لخدمة الإبداع والمبدعين، وقد تبين لي هذا حين زاملته في عضوية مجلس إدارة اتحاد كتاب مصر، لعدة دورات، حتى توثقت صداقتنا.

التزمت الصمت قليلاً، ثم قلت لصديقي جابر بسيوني:

- أنت تعلم أن القصة بدأت منذ زمن طويل، منذ بدء الخليقة، فرغم أن آدم كان في الجنة منعماً مكرماً، ورغم أنه حظي بشرف ومكانة لم يصل إليها مخلوق، فهو الذي خلقه الله بيديه ونفخ فيه من روحه، وهو الذي أسجد له كل الملائكة، وقد شاهد آدم بأمر عينيه الشيطان وهو لا يسجد له مخالفاً لأوامر الله.. شاهده وهو يتكبر ويعصي الله، غيرة وحقدًا على المكانة التي منحها الله إليه.

ورغم أن الله أخبره مباشرة، أنه عدوه الذي لا هم له إلا الإيقاع به في وحل المعصية ليثبت لرب العالمين أنه لا يستحق مكانته الكبرى، وأنه أولى منه بها، أو لعله يريد أن يقول لله إنه كان على صواب حين لم يسجد له، فهو المخلوق من نار يرى نفسه أرقى وأعلى من هذا الذي خلق من طين.. رغمًا عن كل هذا.. إلا أن آدم وقع في المعصية واستجاب للشيطان وأكل من الشجرة المحرمة..

وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ {٣٠} وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ {٣١} قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ {٣٢} قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ {٣٣} وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ {٣٤} وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ

وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكَلَّا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ {٣٥} فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ {٣٦} فَتَلَقَىٰ آدَمَ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ {٣٧}

الأمر العجيب أنه ترك كل ثمار وأشجار الجنة ومتعها، التي أحلت له، ومال به هوى نفسه إلى الشجرة الوحيدة التي أمره الله أن لا يقترب حتى منها....

أوهمه الشيطان أنها شجرة الخلد، وجعل يقسم له بالله، فصدقه آدم ونسي كل تحذيرات ربه..

ظن أن إبليس صادق، وأنه لم يصل إلى هذه المرحلة من الفسق والعصيان لدرجة أن يقسم بالله كذباً...

هل كان آدم ساذجاً إلى هذا الحد؟! إنه أول البشر، وأول الأنبياء، وأول من يقع في المعصية، فيستحق العقاب..

ويا له من عقاب...

بل أسوأ عقاب...

وهل هناك أسوأ من مغادرة الجنة والنزول إلى الأرض!؟

قال جابر بسببوني:

لا بد أن نتوقف هنا كثيراً لندرك كيف أن إبليس يمتلك مهارات هائلة وقدرات مذهلة على الإقناع، وتبليس الباطل ثوب الحق، فهو قد استطاع أن يغوي نبياً وليس نبياً عادياً، بل نبي شهد ما لم يشهده

أي من البشر..

وعن ابن عباس رضي الله عنه قال صلى الله عليه وسلم: "مَا مِنْ عَبْدٍ مُؤْمِنٍ إِلَّا وَلَهُ ذَنْبٌ يَعْتَادُهُ الْفِينَةُ بَعْدَ الْفِينَةِ، أَوْ ذَنْبٌ هُوَ مُقِيمٌ عَلَيْهِ لَا يَفَارِقُهُ حَتَّى يَفَارِقَ الدُّنْيَا، إِنَّ الْمُؤْمِنَ خُلِقَ مُفْتَنًا تَوَابًا نَسِيًّا إِذَا ذُكِرَ ذِكْرٌ".

وقد كان آدم يبكي كثيراً على حاله ويحزن حزناً عظيماً لغضب الله عليه، ويتحسر على جنته التي ضاعت منه، ليهبط إلى الأرض حيث الشقاء والتعب..

وليشهد مقتل ابنه هابيل على يد أخيه قابيل.

كانت الملائكة تحزن لبكاء آدم الذي امتلأ بالندم والحسرة، وكانت تترقب في قلق وهي تعلم أن المعركة بين الإنسان والشیطان لا زالت في بداياتها...

تاب الله على آدم لأنه رجع إلى الحق واعترف بذنبه، بينما بقي الشيطان على كبره عدواً لكل بني آدم..

لم يسعد بغوايته لآدم كثيراً، وبكى حين تاب الله عليه، ولكنه فرح فرحاً عظيماً حين نجح في غواية قابيل، فجعله يزهد في ما أحل له من زوجة ويطلب الأخرى، التي كان هابيل أحق بها...

الشیطان زينها له، وملاً قلبه حقداً وغيرة، وأوغر صدره ناحية أخيه، الأفضل والأبقى والأقوى، فلم يتركه إبليس حتى جعله يقتله، وهو نائم بعد أن شج رأسه بصخرة كبيرة..

هو لم يقاتله وجهاً لوجه؛ لأنه يعلم جيداً أنه ليس بند له.

وهنا قال جابر: بل تربص به وأخذه غدراً ليعود بعدها نادماً خاسراً، ولتحل عليه لعنة أي جريمة قتل تتم من بعده..

حروب ودمار، وملايين تسفك دماءهم بغير وجه حق، يقتل الإنسان أخاه الإنسان ولا يتورع عن اختلاق المعاذير والحجج التي تبيح له قتله... بل وقد يقتله باسم العدل والدين واسم الرب.

ألم نرهم يكبرون، وهم يقتلون أبناء وطنهم وجلدتهم، بل ويقتلون حتى أنفسهم وهم يصيحون الله أكبر؟! هل الشيطان شاطر إلى هذا الحد؟!!

أم أن الإنسان نفسه ضعيف ظلوم لنفسه؟!!

قلت لصديقي جابر: هذا يحدث دائماً منذ آدم وحتى يومنا، وإذا كان اليهود قد سمعوا المسيح وهو لا زال في المهد صبياً، وهو يحاورهم ويحادثهم، وشاهدوا بأعينهم طيراً يشكله بيديه من الطين، فإذا به تدب فيه الروح ويخلق عالياً بأمر الله، والكثير من المعجزات المذهلة، كشفاء المرضى وعودة البصر للأعمى، بل وإحياء الموتى..

كل هذا فعله سيدنا عيسى عليه السلام بأمر الله وعلى مرأى من الجميع، غير أنهم ظلوا على عنادهم وأعلنوا للجميع، أنه ساحر ابن ساحرة، ولم يتوقفوا عند هذا فقط، بل ذهبوا إلى الملك، وزعموا أن عيسى يهدد ملكه وأنه يسعى في الأرض ليحل محله، ولم يتركوه حتى أمر بالقبض عليه.

قال جابر بسبوني: حينما يؤس سيدنا يونس عليه السلام، وغادر

قومه مغاضباً، بعدما أيقن أنه لا فائدة ترجى معهم، وأنهم حسب ظنه لا محالة من أصحاب السعير، كان قراره هذا راجعاً لنفسه، وللشيطان الذي أضله ولم يجعله يستأذن ربه، فيما هو قد عزم عليه من ترك قومه في ضلالهم والهروب لبلاد أخرى، فكان عقاب القدير له أن يمكث في بطن الحوت إلى ما شاء الله..

وبهذا يكون يونس عبرة لكل من يتخلى عن ما يكلف به من السماء.. قال جابر: عقاب النبي ليس كمثله عقاب، فهو لا بد أن يكون بحجم نبوته، العبرة كانت للبشر جميعاً وللكون كله، بجاره وأسمائه وحصاه، أي حتى الجماد، وكانت العبرة الأكبر للرسل والأنبياء، أن لا تقنطوا أبداً من رحمة الله، وأن لا تتقاعسوا أو تحبطوا من جراء العناد البشري، والتكبر الموضوع في كل نفس بشرية، والتي كثيراً ما تميل إلى نوازع الشر، عندما ننظر إلى بني إسرائيل وهم في النهاية بشر قد شهدوا المعجزات المذهلة، وكان فيهم من الأنبياء الكثير، فسنجد أنهم لم يكونوا دائماً إلا أصحاب ظن سيء، وإيمان ضعيف، بل وقد امتلأت قلوبهم دائماً بالحقد والخبث، وحب الدنيا ومعاداة الأنبياء والرسل، فلم يسلم منهم حتى نبي الله موسى، فلما مات النبي هارون وهو وزير موسى وشقيقه الذي طلب من الله أن يجعله نبياً ومعيناً له، لما مات اتهمه بنو إسرائيل بقتله غيره منه، ووصل الأمر بقارون والذي كان من أقارب موسى أن يدبر مكيدة ويتفق مع امرأة أن تدعي أن موسى قد زنى بها، إلا أنها خافت الله واعترفت بالحقيقة عندما واجهها موسى عليه السلام.

بنو إسرائيل هربوا من فرعون، ولما وجدوا أمامهم البحر ومن خلفهم جيش فرعون أيقنوا أنهم هالكون، وقالوا لقد ضيّعنا موسى، ولما شق موسى البحر بعصاه ففتح لهم ١٢ طريقاً، ظن كل سبط منهم أن الآخرين قد هلكوا، حتى فتح الله لهم نوافذ بين هذه الطرق فجعلوا يسمعون ويشاهدون بعضهم وهم يمشون بين الماء في سلام، ولما تركهم موسى ٤٠ يوماً ليأخذ فيها الألواح من ربه والتي بها التوراة، حين عاد وجدهم وقد صنعوا عجلاً من الذهب ليعبدوه. يقول الشاعر جابر إسيوني: بعض البشر يمتلكون عقلاً متحجراً، غير قابل للتغيير، وقلوباً موصدة لا تستقبل أي مشاعر وجدانية ولا تتفاعل مع ما تراه، ربما حتى من معجزات...

ترى هل هي طبيعة بشرية، تتجسد في بعض الناس منذ قديم الأزل؟!

بيننا في زمننا هذا من لا يمتلك ذرة من مشاعر الرحمة، أو حتى الحب.. بشر لا يؤمنون سوى بالمادة، عقولهم لا تدرك ولا تحس إلا بما يتجسد أمامهم من ماديات، أو جدليات ينسبونهم إلى المنطق والحسابات الدنيوية..

قد تحركهم شهواتهم أو غرائزهم، فهم عمي صم بكم لا يعقلون... ربما حتى لا تأتي عليهم لحظة يفكرون فيما هو وراء الطبيعة.. ماذا قبل؟!

وماذا بعد؟!

فهم قد جعلوا الحياة تتوقف فقط عند موطن أقدامهم.

النبي الكريم نوح ظل يدعو قومه أكثر من تسعمئة عام بلا جدوي،
فها هم بنو قومه قد تمسكوا بعبادة الأصنام، وما ألفوا من فعل
آبائهم وأجدادهم، ونسوا أن هذه الأصنام ليست إلا مجرد تماثيل
صنعت لأشخاص، كانوا صالحين في غابر الزمان، ولما ماتوا الواحد تلو
الآخر، بكاهم الناس وحزنوا على فراقهم كثيراً، وحسبوا أنهم بموتهم
قد فقدوا البركة والصلاح، حتى وسوس إبليس إلى أحد الفنانين
المهرة كي يصنع لهم تماثيل من حجارة، أو طين، أو حتى خشب،
بحجة أنها تذكرة لقومه، عليها تكون زلفة وتقرباً للرب...

واستمر الشيطان ببراعته المعهودة، ودأبه الشديد، فجعل الأمر يتغير
بمرور الزمن تدريجياً، حتى أنه أنسى الناس أنها مجرد جماد أصم، لا
ينفع ولا يضر، وجعلها آلهة كبرى من دون الله.

بل وربما أحاطها بالأفعال الخارقة وأطلق لها بعض الأصوات،
واسترق هو وأعوانه من السماوات العليا بعضاً من التنبؤات من
كتاب القدر المحتوم لكل إنسان، أولئك الشياطين الذين يسترقون
السمع خلصة من الملائكة فترجمهم بالشهب، فيصيبون مرة ويخطئون
مرات أخرى.

جاء سيدنا نوح إلى قومه ليصلح لهم دينهم ويخرجهم من ظلمات
كفرهم إلى النور، ولكنه فشل معهم فشلاً ذريعاً ولم يحقق أي
نجاح يذكر، اللهم إلا قلة من صفوتهم.

وإذا فكرنا في نوعية هؤلاء البشر، الذين يوجد بيننا من يشابههم
الآن، فهل نصفهم بالغباء والعناد أم بغلظة القلب؟!

ولعلمهم كانوا مجموعة من المتخلفين الهمج، الأقرب إلى وحوش البرية في صفاتهم وطباعهم بل وربما في بنيانهم وعقولهم...
وقد بنى النبي نوح عليه السلام سفينته الكبرى، وأخذ فيها زوجين من كل مخلوق على وجه الأرض.

بنيت السفينة على مدار سنوات طوال، بينما ينظر صناديد الكفر إليها وهي قائمة بين الجبال، كانوا يعبثون ويسخرون من نوح ومن معه ويتهمونهم بالجنون، فأى عقل هذا الذي يجعل شخصا يبني سفينة في وسط الصحراء القاحلة التي لا يوجد بها لا زرع ولا ماء.
والأمر الأكثر حزناً هو كون ابن نوح واحداً من أولئك الكفار، بل إنه وقد رأى بعينه بدايات الطوفان، وجعل أباه نوح يلح عليه أن يصعد معه إلى السفينة، ليكون من الناجين غير أنه أبى، وظن أن صعوده إلى جبل عال سيعصمه من الغرق...

وحسبي أنه وكفار بني قومه، من نفس النوعية الرديئة من البشر، الذين لا نصفهم سوى بقمة العناد والغباء وغلظة القلب، فمنهم الآن من يروع الناس في بيوتهم، ومن يقتل الأطفال والشيوخ والنساء، ومن يهدم المساجد والمعابد والكائس، ومن يفجر نفسه بغية أن يعاشر حورية من حوريات الجنة..

وكذلك من وضعهم الشيطان في قمة السلطة كحكام وملوك لجماعات وأمم وبلدان هم بشر وإخوة، ومن ذرية أب وأم واحدة، ولكنهم أشعلوا الحروب ودمروا بلدانا وقرى ومدنا بأكلها.. شردوا ويتوا، وقتلوا الملايين، بدون أن يتحرك فيهم إحساس أو حتى وخزة ألم

لضمير إنساني.

التفت إلى صديقي جابر ثم قلت له: الشيطان كعاداته، لم يترك أتباع نوح عليه السلام، وإن كانوا من الصفوة المنتخبة لتبقى وتستمر على الأرض، فسرعان ما سيتغير الزمن ويخرج أيضاً من نسلهم من يكفر بالحق ويرجع إلى الباطل.

قال لي جابر: أتذكر سالومي؟

قلت له: عندما علمت سالومي برفض النبي يحيى لزواجها من عمها هيرودوس حاكم فلسطين، قررت أن تذهب له وهي في قمة جمالها وفتنتها، لتقنع النبي يحيى أن يصدر فتوى تبيح زواجها بعمها، ولكنها هي التي فتنت به ووقعت في غرامه وعشقه حتى أنها عرضت نفسها عليه، إلا أنه رفضها، بل ولم يرفع حتى بصره إليها، وهي ملكة الجمال والفتنة في عصرها، قاوم يحيى الشيطان وذلك الجمال المذهل وتلك الفتنة الطاغية، التي تدير أعنى رؤوس الرجال وتذهب بعقولهم، وكأنها كأس نمر معتقة.. أعلمها يحيى أن قلبه ليس ملكه، فهو ملك لله وحده، فلم يكن منها، إلا أن غضبت وثارَت لأنوثتها المجروحة، وجعلها الشيطان تضمر في نفسها الانتقام، فكيف لرجل أن لا يخفي لجمالها، بل ورفضها بمنتهى الإباء.

ارتدت سالومي سبعة أثواب حريرية ورقصت للحاكم -بعد أن أسكرته- رقصة الوداع، والتي استلهم منها العديد من المبدعين أعمالاً فنية راقية، وفي رقصتها هذه جعلت تخلع ثوباً بعد ثوب إمعاناً في إغراء وإثارة الحاكم، حتى وصلت إلى الثوب الأخير ورفضت أن

تخلعه حتى يأتيها برأس يحيى.

ولم يستطع الحاكم أن يقاوم إغراء الشيطان، رغم علمه بخطورة ومغبة قتله لنبي من أنبياء الله، حاول أن يسترضيها وأن يقدم لها أي شيء مهما بلغ قيمته عوضاً عن قتل يحيى، على أن تسلمه نفسها، إلا أنها لم تنس رفض يحيى لها، وعودتها من عنده ذليلة منكسة الرأس. يحيى هو ابن سيدنا زكريا، الذي أنجبه وهو شيخ كبير وزوجته عاقرة، ليكون مولده معجزة سماوية، من معجزات الله... كما أنه سمي باسمه من قبل الرحمن ولم يكن يسمى أحد من قبل بهذا الاسم.

كان يحيى يقضي أياماً طوالاً في عبادة الله سائحاً في أرضه، وقد يكتفي بأكل أوراق الشجر كطعام له... أحبه الجميع وأنصتوا له، لبلاغته وعلمه، وحكمته، وفصاحته وورعه الشديد، حتى أن الوحوش كانت لا تقربه، بل كانت تحرسه وهو يؤدي صلواته.. ولعلنا نلاحظ أنه جاء من أب شيخ وأم عجوز عاقرة، كمعجزة تمهيدية لولادة المسيح الذي أنجبته السيدة مريم العذراء بدون أب، كمعجزة كبرى، تشابه معجزة خلق آدم عليه السلام.. وكأن الله يمهّد لعباده حتى يعوا ويدركوا أنه قادر على كل شيء.. فهو خلق آدم عليه السلام بدون أبوين، وخلق يحيى من أب شيخ، طاعن في السن، وأم عجوز عاقرة؛ ليقطع عليهم عبادة المبدأ المادي، باتخاذ الأسباب الأرضية، وخاصة أنهم انتهجوا سبيلاً دنيوياً ينتهج التخلي عن كل ما هو وراء الطبيعة.

بينما الحق هو عبادة رب الأسباب، وخالق المنطق نفسه، والقادر على أي فعل سواء كان يخضع للعلم البشري الجدلي، أو حتى غير الخاضع لأي سبب أو منطق دنيوي، والذي يدخل في نطاق يتجاوز قدرات العقل الذي هو في الأساس مخلوق تابع لخالقه.

يا أيها الإنسان ما غرك بربك الكريم، الذي خلقك فسواك فعدلك، في أي صورة ما شاء ركبك.

وقد ماتت سالومي شر ميتة، إذ سقطت من شرفة القصر، ونهشتها حية الكلاب الضالة، بمجرد أن أتوا إليها برأس يحيى عليه السلام.

٧٩- قط أبي الأسود

ورأيت أبي وهو يحمل جسده العاري تماماً ويقتحم منزلنا.
يلقى بجسده على الأرض وينظر إلينا، وهو يلهث ثم يهمس:
- أخيراً استطعت أن آتي بجسدي إليكم.
أصابتنا جميعاً دهشة مفرطة، وأجمت ألسنتنا رعباً، إلا أنه استطرد
قائلاً في هدوء ودون أن يحرك شفثيه:
- الآن يمكنني أن أودّعكم جميعاً، قبل أن أرحل.
نهضت إليه مسرعاً، وانتابني الحيرة وعصف بي ألم شديد، كان أبي
اثنين؛ واحد يقف بجسده العاري أمامي مستنداً على الحائط
ويتحدث، بينما الآخر ملقى على الأرض ميتاً، وتساءلت لبرهة:
- إلى أيهما أتجه؟!

كان بي اشتياق شديد إليه.
تجاهلت الملقى على الأرض واتجهت إلى الواقف، وما إن هممت
بمعانفته حتى تلاشى تدريجياً في الحائط! شملتني رهبة شديدة، كنت
أشعر بملبس روحه على جسدي..
نظرت إلى أبي الآخر الملقى على الأرض وتملكني الرعب..
كان نوعاً نادراً من الإحساس بالخوف، يقع في منطقة عجيبة بين
الخشية، والشجن...

حينما انخبت أتحسس جسد أبي... وجدتني بغتة، معصوب
العينين، في ظلام دامس، ملفوف بكفن أبيض، وموضوع في حيز

ضيق بين قضبان خشبية، ولا أستطيع الحراك، أو حتى التنفس.
شعرت باختناق شديد، وأصابني الهلع.
جعلت أحاول أن أصبح، أن أنادي كل من حولي، ولكن بلا
جدوى.
كان قط أبي الأسود، الضخم، قد شرع في التهام قدمي.

٨٠- الإسكندر الأكبر

كانوا جميعاً هنا!
على نفس الأرض ونفس الرمال ونفس الطريق الذي نمضي عليه
جميعاً..

في نفس الشارع المسمى شارع العزب..
شارعي وشارع الآباء والجدود، مصريون، عرب، رومان، يونان،
وأفارقة!

لهم جميعاً نفس الملاح والطباع، بل والروح.
يتحركون ويتكلمون، ويتشاجرون..
الإسكندر الأكبر جلس هنا في تلك القاعة التي كانت العائلة كلها
تجتمع بها.

ابتسم لي، بل مازحني وطلب مني أن ألاعبه تنس الطاولة، ولما
هزمني أحضرت له صلاح الدين الذي استعان بمحمد علي وتشاور
معه كثيراً، وفي النهاية لم يتمكن أحد من هزيمة الإسكندر إلا أخي
طارق بعد أن تحالف مع كليوباترا، التي تعرف كل نقاط ضعف
الإسكندر.

كانوا جميعاً يأكلون ويشربون ويتطلعون دوماً لغد جديد، غد ممتلئ
بالإشراق والأمل..

يتصارعون أيهما أفضل، بل الأفضل على الإطلاق.
يصدقون قليلاً، ويكذبون كثيراً.

لا أحد منهم يتذكر الموت وكأنه وهم كبير، أو لا يصدق.
قد يتأثرون للحظات، وقد ييكون لحظة.
ولكن الآن في الشارع نفسه، بل وفي كل البيوت.
في نفس الفيلا.

وعلى نفس الأثاث والمقاعد يجلس الآن آخرون، أما هم فقد رحلوا
جميعاً وكأنهم قد هاجروا لمدينة أخرى، وشارع آخر، اختفوا اختفاء
مرعباً، وتوارت فجأة ضحكاتهم وكلماتهم، أفراحهم وأحزانهم!
بل وكأنهم لم يكونوا أو لعلهم لم يأتوا أساساً..
هل صاروا لا شيء، أم أنهم أضخوا سراباً؟
لعلهم كانوا لحناً، جميلاً، صدح مرة واحدة، في جوف ليل حزين.
من العدم أتوا وإلى العدم عادوا، أم غادروا مدينة الوهم ولبثوا في
مدينة أخرى.

مدينة الحق والجمال.

ربما كان حلماً قصيراً وقد استيقظوا منه!
ونحن لا زلنا نعاساً، نغط في نوم عميق.

٨١- الشجرة العتيقة

كانت وهي في لحدها، نائمة على سرير مخملي كبير، متدثرة بغطاء حريري أخضر.

كانت الإضاءة خافتة، وثمة موسيقا هادئة، تصدح في أرجاء المكان. حاولت أن أستكشف بعيني المزيد من تفاصيل اللحد.

ثمة رائحة لعطر جميل، ودخان كثيف، وخيالات وأطياف مبهمة الملاح، جعلت، تحاصرني من شتى الجهات، بدت وكأنها تعصب عيني عن رؤية أي شيء سوى هي وسريرها!

اقتربت حتى دنوت منها، طفقت أتأملها في شغف، وأنا غير مصدق أنها هي.. نعم هي جدتي بنفسها!

تلك الشجرة المثمرة، العظيمة، التي خرجنا منها جميعاً. ضحكت، فضحكت حتى بانت أسنانها بيضاء جميلة، احتضنتني في رفق، قلت لها دون أن أنبس: - اشتقت إليك كثيراً.

ضمتني مرة أخرى في صدرها، ثم حدثت في عيني طويلاً، وهي تنظر إليّ، وكأنها تشكرني، ولم أكن أدري على ماذا!؟

ولم أعلم حتى سرّ هذه النظرات التي تمتلئ امتناناً وزهواً. قبل أن أغادرها ودعتني بنظرة دافئة طويلة، وكأنها تقول لي: - يا حبيبي، لا تبالي، قريباً تكتمل كل أجزاء الشجرة، بفروعها، وأوراقها، وجذورها.

٨٢- العود الأخير

قال لي: ما تكتبه يقرأه الذين في الأرض، والذين في السماء.
قلت له في دهشة: وهل من في العالم الآخر يمارس فعل القراءة؟!
نظر إليّ في استياء، ثم همس:
- كيف لا تعلم أن كل مخطوط يتم طباعته لديكم في نفس اللحظة
يكون له مثيل هناك؟
قلت في ريبة: - أنت تقول لديكم، ولم تقل لدينا، ألسنت واحدًا منا؟!
قال في ضيق: - يبدو أنك من هذا الصنف الذي يتعبني كثيرًا،
أولئك الذين يدققون في كل الأشياء.
صحت به، في قلق:
- من أنت يا هذا؟!
طلب مني أن أعطيه لفافة من التبغ، أخرجت علبة السجائر، وعلبة
الثقاب، أعطيته سيجارة، وحاولت أن أشعل له عود ثقاب، ولكن
عبثًا، فقد باءت كل محاولاتي بالفشل، حتى كادت تنفد العلبة من
كل محتوياتها، ولم يتبق سوى عود واحد.
نظر إليّ في ثقة شديدة، ثم همس بعد أن ألقى السيجارة من فمه:
- حافظ على عودك الأخير، كي تتمكن من إشعال لفافتك، بعد أن
أمضي.

الفصل الأخير

لا أنا يوسف ولا أنتم نساء

وستبصر أنك يوما كنت تطرق كل الأبواب، تهفو لرائحة عطري،
وبقايا دخان، وستفتح كل الأدراج وكل خزائن الإنس، والجنان.
تبحث في قصاصات من ورق، وحروف من كلمات صدق أو بهتان،
وستفتش حتى في طعامي أو بقايا لقهوة، في فنجان.
وستسأل: أين الإنسان.
حتى يأتيك عرّاف الأزمان.
سيحدثك عني.

سيمنحك صورة لن تعرفها، وحقيقة لم تبصرها، سيعطيك زهرة،
وقلماً ومداداً من بحر الأيام، وسيخبرك أنك، ما كنت يوماً وحدك.
ولكنك كنت تصارع وحشا وتفجر بركانا.
وسيمنحك كتاباً مكتوب فيه أنني كنت يوماً في كل مكان.
عفوا...

فأنا النجم الذي ليس هوى.
بل قلتم إنه تصاعد بكم إلى السماء.
لا أنا مختال، ولا نخور ولا أنا الذي قلت لمن يعرفني: يهيم في كل
واد، يتوه في الصحارى بين الجبال، والتلال..
حائراً ولكنه يبدو كما النسر يخلق في إباء.
لعلكم الذين كنتم تروون عني الأساطير والحكايات، وتسطرون اسمي

على أضرحة المقابر وأعمدة المعابد في كتب الحب، والتاريخ،
والكيمياء.

ويحيني تلاميذكم في الطابور كل صباح، ويحكي عني العجائز، وتسهر
الغداى في خدرها لا تنام.
عفوًا.

أنا لم أقل...
فلا أنا يوسف ولا أنتم نساء .

- تمت -

إطالة توتالة

قبل الاشتباك والاجترار، بالقبول والمخالفة والحجاج

يعيد كاتبنا الروائي / شريف محي الدين، إنتاج الواقع المصري المعاصر خلال نهر الحكي المتدفق لروايته الأخيرة (شارع العزب) على مساحة ثلاثة وثمانين فصلاً قصيراً تئارجح في فضاء من الوصل والفصل.

وتتوالى في التشكل كمتوالية قصصية تحتفظ لكل منها بخصوصية صلاحيتها كقصص قصيرة مستقلة، (النجفة) تلك القصة التي يستهل بها كاتبنا متواليته بوعي شديد مؤكداً بما يتركه عنها من أثر على عدم قدرة الحاضر بكل ما أوتي من تكنولوجيا على إطفاء الماضي المتمثل في رمزية النجفة العتيقة التي تفشل كل الجهود في إطفاء توهجها رغم نزع جميع أسلاك الكهرباء عنها وعزلها عن مصادر الطاقة الآتية، ولولا أن القارئ سيتأكد بما لا يدع مجالاً لأي شك أن كاتبنا ليس كاتباً عبثياً ما توصل إلى هذه الدلالة الأكثر عمقاً والتي تعد أحد أهم مواقف الكاتب الإيدلوجية من العالم الحديث أو المعاصر.

وثم (-) نهى وشيرين - السلك والفيشة - سيارة أبي... (إلخ) حيث ينساب السرد بجماليات التوصيف الذي يتراءى في كادرات متحركة (درامية) تشكلها كاميرا قلم الأديب، التي تمتد من أركان الذاكرة بداية من ركن الطفولة الأكثر براءة، والذي يحمل طيه عبق الماضي ودقائق جماليات المكان السكندري في نحسينات القرن المنصرم

متنقلة بعد ذلك حثيثاً بين أركان الذاكرة الأكثر قرباً متصاعدةً من الطفولة إلى المراهقة وسنوات الدراسة الأولى ثم الشباب وبدايات الوعي والتشكل الفكري وتكوين الرأي ووضوح الرؤى وبدايات الاهتمام بالثقافي واكتشاف الإبداعي داخل الذات، فالعلاقات النسوية التي تعد بشكل ما كأهم الركائز التي تتمحور حولها الأحداث ويتفتق عنها العنوان الرئيس (لا أنا يوسف، ولا أنتم نساء) .. فيجد كل قارئ كأن حياته تمر أمام عينيه من خلال استدعاء ذاكرته لأحداث عاشها بالفعل مشاركاً للكاتب في خضم الواقع، واستدعاء أشخاص من حياته تتشابه كثيراً مع أشخاص الرواية بما يجمع بينهما من وشائج مشتركة، فيروح سواء بوعي أو بغير وعي لإقامة الكثير من المقارنات بين شخصيته كقارئ وشخصية المؤلف .. هذه المقارنات التي ستعمل بداخله قد تصل مع الكثير من الأحداث والمواقف الاجتماعي منها والسياسي والثقافي والعقائدي والفكري بشكل عام لإنجاز نوع من الإحلال -إحلال شخصية المؤلف داخل شخصية القارئ- فكأنه لا يقرأ رواية من تأليف كاتب روائي، بل يقرأ ويشاهد شريطاً من ذكريات حياته هو.

الرواية غنية بالشخص والاحداث المتنوعة، وهي أميل لرويات السيرة الذاتية التي تضع مؤلفها بامتياز كشاهد على العصر .. وهو - كما أرى - ما سيوفر لها البقاء طويلاً في ذاكرة الأدب المصري.

محمود عبد الصمد زكريا

٢٠٢٠ / ٥ / ١٤ م

إضاءة على رواية "شارع العزب"

الكاتب العربي / مولاي إدريس

سيدي، إن قمة الإبداع الفكري اللغوي الراقي عند اختيارك -القلم-
والقلم وما أدراك ما القلم؟!
إنه سلاح العصر علماً وثقافة وفناً.

إنه أخذ من القاف قوة وقدرة على العطاء، ومن حرف اللام إلى
الأمام ولا رجوع.
أي حبر سكب، ومضى.

والنظر إلى المستقبل، ومن حرف الميم الأهمية والمروءة والمودة مع
القارئ والمتلقي لتنويره وثقافته وإخباره بالجديد، إنه مقولة أقرأ،
والقراءة إلا بالكتابة والكتابة إلا بالقلم.

ألف شكر للقلم إنه كاتب الحرف، والحرف بناء كلمة، والكلمة بنت
جملة، والجملة أصبحت مقالة للنشر، إنه الإبداع ينير الفكر من الجهل
إلى العلم اختيار القلم مفوق، ياسلام على صدق المقال لأن الأزمة
تلد المهمة.

أنتم النجباء، دراسة وفكراً.

فلقد خلق الله الإنسان من عدم، والإشارة هنا إلى روح الكلمة
لتلخص المعنى الحقيقي، فإن العالم بخير مدام أنت موجود، وحبك
للشعر والتطور التكنولوجي في وسائل الاتصال، سهل النشر لتعم

الفائدة فهنئاً لك سيدي.

إذا كان للكتابة قلم فأنت قلبها.

فكرت فكتبت فأبدعت، واتضح نقي سريرتك وبعد خيالك وتنوير بصريتك جلياً، في السطور التي كتبت بعقل راق وجمالية لها دفء المعنى، لا تعجب فيما أقول، لقد أخذت غناء الكلمة بمعناه اللغوي الشامل لتطوف بها فكراً راقياً لسرد المعنى الحقيقي لمخاطبة الشعوب، وأسقيت بحبر القلم ببساطة لتسهيل الفهم لتكون الراحم لعباد الرب الذي قال: ارحم من في الأرض، يرحمك من في السماء.

كلام جميل ورائع يخاطب العقل؛ لأن الله اصطفى الإنسان بنعمة العقل، حيث يقول الله تعالى: ولقد كرمنا بني آدم.

وتكريم الإنسان بالعقل يعتبر جائزة ربانية بامتياز، فإذا غيبه في ملذات تافهة وزائلة، كان عبئاً عليه في مسار حياته وأرهقته الدنيا بغرورها، فلا بد المحافظة على العقل لأنه المحرك الأساسي لجسم الإنسان من حواس وأعضاء وأطراف.

إن الشعر جزء من الثقافة.

وشاعر أنت بحق...

تسوق الكلمة وتعني تبليغ رسالة ما، في موضوع ما، في قالب فني، تضيف له الجمالية والإثارة ليعيش المتلقي الواقعة كما وصفتها بحسن التعبير وقوة الإلقاء.

إذا أنت كاتب، أنت مفكر، أنت مبدع، أنت مثقف، فهنئاً لنا بك سيدي.

الشعر قوته الإلقاء، والقاعدة التعبيرية للإلقاء هي: الصوت + الحركة + الملامح.

إذاً هو الإفراغ الحقيقي لكامل الإحساسين المتعلق بالموضوع المتناول، فهنيئاً للشعراء، والكتاب بهذا، وهدفي سيدي مخاطبتكم نكحرة سفراء الكلمة في الأدب والشعر لأنكم تمثلون الفكر، والتصور والإلهام لظاهرة ما وتجسيدها عن طريق الكلمة.

وهذا ليس له حدود يخاطب البشرية عامة، فأتم رواد في مخاطبة الوجدان وتجسيد الواقع.

كما هو فهنيئاً لكم، ولقدرتكم على تفكيك الشفرة بكل تحدٍ وإصرار لكل المواضيع العالقة دون استثناء.

وهذا دلالة أكيدة لزرع الأمل والتطلع لمستقبل زاهر. من طبعك وإبداعك سيدي ستجعل الجميع يحب الأدب... والأدب سيد الأخلاق، والرسول بعث ليتمم مكارم الأخلاق. وأنتم الأدباء، سفراء الرسالة السماوية المحمدية.

في تجسيد هذا ميدانياً، وكلماتك هي الإبداع، هي الفكرة راقية، في المجمع اللغوي ولها جمالية ذات إحساس دافئ، تمس الوجدان الإنساني بلطف، والله أبدع أديباً في معجزة القرآن، وأنتم خلقه في الأرض، حفظكم الله، وسدد خطاكم.

سيدي استوقفني دهاؤك كلام ولا يخطر على البال إلا من إنسان ذكي له إلهام يلاعب الخيال ويتجمل في الإبداع اللغوي الراقى لينجز الحلو الأدبي.

فعلا أنت أديب كبير حقا.
لقد استقام لك الحرف يا سيدي.. يحسب لكم جودة الحضور،
وكانكم أنتم مصايح تنير الأمة بالكلمة والإبداع.
فإن الشعر هو إلقاء الشعبي وتأطيره لإثراء موضوع يمس الجوانب
المتعلقة بالمجتمع وهذا لأنكم حركة الأمة، ونهضتها في التوعية
والتذكير؛ لأن كلمة شاعر - شا - شوق - ع - علم وإبداع - ر -
رقي.

ما أروعك! فعلا أبدعت حين فكرت فكتبت.
أنت ناديت العمق بأنامل أصابع طوحت القلم ليسيل حبراً...
خط به أغنى ما كتب.
الإعجاز هنا لأن مسيرة دهر كامل استطعت تلخصها في جملة وليس
مجرد جملة عادية!
إنها معايشرة السنين لأن التراث الشعبي أصلا متصلا شعبياً، وأنتم
إظهاره وأساس تداوله.
إن كلماتك تحتاج إلى دراسات وتحاليل معمقة من خبراء مختصين
في مجالات شتى لفك ألغازها وشفرتها، ويمكن أن تبقى تتداول إلى
سنوات قادمة لفهمها!

وستدرس للأجيال القادمة في المعاهد والجامعات، لأنك داهية
عصرك في فكرك وحكمتك ونجاحك.
والغريب في الأمر أنك أنت الذي كتبتها لأنك ترشد الفكر من
الضياع مقابل هذا الكم من الأحاسيس التي تتهاطل على صفحتك

لتزرع الأمل، وتقرب البعيد إلى الحبيب.
والجميل في الأمر أنك تخرج المكبوت حتى لا يضيق صدرك، ولتجد
من يسمعك ويواسيك.
سيدي الأديب الشاعر الغوث، ليس مجاملة.
سيدي الغريب!
سيدي لأنك بشر، والبشر إنسان والإنسان سمي من النسيان ومرارة
السنين.
لكن صدّق أولاً تصدّق، إن رقيق الفكري ليس من صنع إنسان،
إنه إلهام رباني، يعجز العقل البشري في إتقان معناه بهذه الصورة
البلاغية الإبداعية والجمالية الرائعة.
فهنيئاً لنا بك سيدي.
لأنه واقع شرحته في كلمات أتقنتها لتختفي بين السطور، لتجعلنا
نفكر في الكثير من الأمور كيف حصلت، وكيف نحلها!
أنت رائع الفكر، بديع المعنى، موفق المسار.

■ هذه الإضاءة تم نشرها في موقع "نادي القصة السعودي"
تحت إشراف الكاتب العربي/ خالد اليوسف.

شريف محي الدين إبراهيم

عضو اتحاد كتاب مصر.

وكذلك عضو عامل في: هيئة الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية.

نادى القصة بالقاهرة.

نادي القصة السعودي

كما شغل عضوية مجلس إدارة اتحاد كتاب مصر،

ورئيس مجلس إدارة نادى أدب مصطفى كامل لعدة دورات سابقة.

أشرف على عدة صفحات أدبية، بالعديد من الدوريات والصحف المصرية،

وهو ، مؤسس ورئيس تحرير سلسلة ومجلة ألوان إبداعية.

صدر له:

أحذية وكلمات| قصص قصيرة|

طائر على صدر امرأة| رواية

أصحاب الملامح الباهتة| رواية

رجل الخوف | مسرحية

الحب والوهم| مسرحية

الدهليز (أصحاب الملامح الباهتة)| مسرحية

الملك| رواية

أنا الملك | مسرحية

خارج الحدود| رواية

طريق النخيل| قصص قصيرة

نجوم الإبداع السكندري| دراسات نقدية

مريم| رواية | ٢٠١٦

امرأة عارية| قصص قصيرة | ٢٠٢٠

والعديد من المقالات والقصص القصيرة ، المنشورة في الدوريات والصحف

العربية الورقية والإلكترونية .

حصل على العديد من الجوائز وشهادات التقدير من:

جائزة الثقافة الجماهيرية، محافظة إسكندرية مركز أول.

نادي القصة القاهرة مركز أول.

مجلة نادي النصر الوطن العربي، مركز أول.

جائزة التميز، نجلاء محرم .

جائزة خاصة، جمعية أبناء الصعيد.

وميداليات وشهادات تقدير من؛

اتحاد كتاب مصر

وزارة الثقافة

أكاديمية جامعة الدول العربية

قصر ثقافة مصطفى كامل

هيئة الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية

تم عمل تكريم خاص للكاتب في مؤتمر إبداعات الشباب دورة الراحل خالد السروجي ٢٠١٦ | وزارة الثقافة

تم إذاعة عدة أعمال درامية للكاتب في الإذاعة المصرية منها:
كلاب المدينة ؛ الرجل والمصعد | إعداد إذاعي: محمد أبو المعاطي

تم تنفيذ وعرض عدة مسرحيات للكاتب في مصر..آخرها:

أنا الملك | إخراج الراحل: سيد الدمرداش

رجل الخوف | إخراج: محمود فيشر، ٢٠١٦

دار إضافة
للنشر والتوزيع

الإسكندرية

ج . م . ع

www.Idafabooks.com